

القسم الساوس

أمرء ورؤساء وغزوات

إمارة الترازة

فوارس يركضون بنات عوج
أتوا وأتين بالعجب الجسيم
عبد الله ولد رازكة^(١)

حسانيون ومغافرة:

لم يبدأ «العصر الحساني» مباشرة بعد نزول العرب إلى الصحراء في أيام ليون الإفريقي أو حتى في عهد فرناندس الذي دوّن مشاهدات عن حصار بني حسان وهجماتهم على سكان الصحراء. صحيح أن تلك الوقائع كانت جزءاً من صعود متزايد لبني حسان من الشمال إلى الجنوب. ولكن تمددهم كان حثيثاً، وبدا لفترة طبيعية بالنظر إلى حركات المجموعات الصنهاجية الأخرى. ولا تبدو المؤشرات في القرون التالية دالة على حركة توسّع واحتلال حساني كما دأبت على ذلك بعض المصادر، بل تبدو مرحلة القرن الخامس عشر فما بعده من التاريخ مرحلة انتشار بطيء للقبائل القادمة من الشمال إلى الجنوب. كانت الفترة فترة تغيير مناخي، ومن المحتمل جداً أن القلاقل السياسية في داخل المجموعات المهاجرة كانت سبباً في التوسع والتدفق إلى الجنوب. وقد لحقت القبائل المحاربة والمتاجرة على السواء بهذه الحركية بحثاً عن الكسب والسلطة. لقد حدث في

(١) من قصيدة يمدح بها أولاد أحمد بن دامن، نواة إمارة الترازة (الوسيط، ص ١٤).

هذه الفترة توزّع صنهاجي تمثل في هبوط قبيلة كنتة من وادي درعة وتوات إلى الساحل الموريتاني والوسط الموريتاني إلى الجنوب، حتى أعالي نيجيريا. أما قبائل تجكانت وإيدو علي والأقلاق فقد هبطت أيضًا إلى الوسط والجنوب في تكانت والعصابة. وهذا، من بين عدّة أسباب أخرى، سبب لعدم الأخذ بنظرية السيطرة الحسانية قبل القرن السابع عشر^(١).

وأكثر من هذا، فإن عوامل التوسّع في هذه الفترة لا تبدو كلها عوامل عسكرية. وتماّمًا كما أن الحسانيين لم يأتوا من عندهم بنظام الأرستقراطية العسكرية بل كرّسوه^(٢)، فإنهم في هذه الفترة لم يفعلوا غير أن كرّسوا أسلوب السيطرة القبلية ونظام الإلحاقية. وكما رأينا فإن كثيرًا من العوامل التي غيّرت الاقتصاد السياسي الصحراوي كانت بيئية وتجارية واقتصادية، وكانت لها علاقات مباشرة مع ظهور التجارة الأطلسية وتحول مسالك القوافل من الشرق إلى الغرب، بسبب القلاقل على الخط الشرقي وظهور ثروات صحراوية جديدة أو مستجدة كالصمغ والخيول وظهور أحواض جديدة لتربية الخيل خصوصًا في تكانت والحوضين، إضافة إلى اكتشاف ثروات حيوانية جديدة كالأبقار. وقد أثر هذا في التركز السكاني في مناطق معيّنة، وشجّع نزول تشكيلات اجتماعية من الشمال إلى وسط البلاد فجنوبها. لم تكن الأرستقراطية العسكرية، المعروفة بحسان، برغم ضراوتها الأسطورية، غير ظاهرة مصاحبة لهذه التحوّلات. وبفعل الفرص التي أتاحها الهبوط وتغير الموازنات السكانية والاقتصاد السياسي سرعان ما تطوّرت هذه الأرستقراطية البدوية من رئاسيات قبلية صغيرة من النوع الذي لم يكن بدعًا في الصحراء إلى إمارات كبيرة عابرة للمجالات القبلية الضيقة.



إلا أن الأسر الحسانية التي قدمت إلى الصحراء، على موجات وفي أجيال، سرعان ما انتظمت في رئاسيات قبلية صغيرة على أسسٍ عائلية وتحالفية وفي

(١) في هذا الموضوع انظر تحليل عبد الودود ولد الشيخ في كتابه عن عناصر من التاريخ الموريتاني: Ould Cheikh, *Éléments de l'histoire*, 64.

(٢) رغم أن المختار بن حامد يذهب إلى العكس. انظر: التاريخ السياسي، ص ٨١.

رئاسيات صغيرة، وسرعان ما بدأ بعضها في التمدد والانتشار وفرض إرادته على مجتمعات الصحراء المسالمة. وهو انتشارٌ حدث دومًا بفعل عوامل سياسية ونفعية أكثر ممّا كانت صراعات عرقية. منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر قامت رئاسة أولاد دليم في الساحل والشمال، في تيريس والساحل الغربي. ويبدو أن البرابيش الذين كانوا قوة في جنوب الصحراء أفضوا إلى أن كوّنوا رئاسة قبلية في منطقة أزواد، شمال مالي الحالية في القرن السادس عشر، حيث لحقت بهم رئاسة من أولاد دليم لاحقًا هي أولاد المولاة. وفي الساحل الغربي قامت رئاسة أولاد رزك وأولاد اللب (بن سويح) في إينشيري، وأولاد ارميطة (من أولاد معارف بن دليم) في تيرس ووادي الذهب (منهم أوديكاك أولاد تكدي) ورئاسة أولاد المولات (بني سلطان بن سنان بن دليم)^(١).

على العموم، لقد كانت هذه الرئاسيات تجمعات بدوية ورعوية استطاعت أن تتحوّل إلى أرستقراطية عسكرية، وإن بقيت دومًا بدوية، تسيطر على المسارح الغنية في الشمال وتنظّم حملات الغزو والنهب الخاطفة، كما كانت تتقوّى بالتحالفات القسرية عندما تُلحق الأجنحة المهزومة من خصومها بها أو تتحالف مع الأطراف المحاربة في الجوار. وبفضل هذا أمكن لها ممارسة الخفارة (حماية القوافل) والكسب من حماية المجموعات في الصحراء وحماية التجارة لقاء العوائد والامتيازات التي كانت تصل عادة إلى أيدي الأمراء، الذين يقومون بدورهم بتوزيعها على الأتباع لإبقائهم في الدائرة السياسية. ولم يكن نظام السيطرة هذا حكرًا على القبائل المغفرية، ولا حتّى العربية؛ ذلك أن الخفارة كانت نظامًا قديمًا، ومن الأرجح أن لواحقها الاجتماعية ظلّت قائمة في الصحراء حتّى ورثها وبني عليها الحسانيون. وقد كان الأنباط وانيروزي ما زالوا يواصلون النظام الحمائي والإلحاقى نفسه في وسط البلاد وجنوبها الغربي في القرن الخامس عشر. وفي القرن السادس عشر كانت القوى البدوية المحاربة تحظى بنفوذ في داخل المدن والكصور في آدرار، حسب رسالة مليشور بيتوني وحسب

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ٩٥-١٠٣؛

الوثائق البرتغالية. أما في أرض الغبلة فيذكر مؤرخ تاشمشة الصنهاجيين، وهو اليدالي، كيف أن تاشمشة تعرضوا في الغبلة لسطوة عدة قبائل هي الخباشة ثم لعزيزات ثم البرابشة ثم أولاد رزك^(١).

ابتداء من القرن الخامس عشر فما بعده كان ما سيُعرف بـ «أرض الغبلة»، التي امتدت من السواحل جنوب تيريس إلى محاذة نهر السنغال، قد صارت مقصدًا لكثير من القوى التي كانت تسكن في الشمال في تيريس وآدرار لعدة أسباب كان بعضها بيئيًا وتجاريًا وكان بعضها سياسيًا. ومع القرن السادس عشر دفعت الصراعات التي قامت على الحرب على الموارد والسيادة عدة قبائل إلى النزوح وبناء حواضر وتجمعات قروية في الغرب الصحراوي. ويبدو أن هذا التدافع نحو «الغبلة» عضد من وجود البيضان وجعل قبائلهم التي نزحت من «الغبلة» سابقًا بفعل نفوذ السودان المتصاعد تعود إليها.

وربما كان سبب هذا التدافع هو الضغط الذي كانت تقوم به الرئاسيات العسكرية في الشمال ووسط البلاد، وبالأخص الجيل الأول من بني حسان من الودايا والرحامنة وأولاد رزك. ويبدو أن بعض هذه الرئاسيات وصل إلى «أرض الغبلة» في وقت مبكر وشرع في ممارسة نظام الحماية والجباية كما كان شأن مجموعات الخباشة ولعزيزات والبرابشة. ولكن هذه الرئاسيات سرعان ما تدهورت، الواحدة منها في أعقاب الأخرى. وحسب أيديولوجيا الزوايا، فإن تدهورها المتلاحق حلّ بسبب النعمة الإلهية عليها بسبب اضطهادها للزوايا. وتمتلئ أفكار محمد سعيد اليدالي، مصدرنا البيضاني في القرن الثامن عشر عن معظم الأحداث، بالأخرويات خصوصًا في عهد ازدهارها في فترة تراجع القوة الدنيوية للمجموعات الصنهاجية في الغبلة؛ ولذا فمن الصعب إدراك الأسباب المباشرة التي أدت إلى تبادل السلطات في المنطقة. يبدو من كلام هذا الشيخ أن هزيمة الأنباط وتخليهم عن السيطرة على تاشمشة نبعت من أمر إلهي سببه علم تاشمشة وبركاتهم. إلا أن من الواضح أن الفترة اللاحقة لتفكك سلطة انيرزيك في الغبلة شهدت سيطرة عدة مشيخات عسكرية الطابع وتعاقت الواحدة منها لتو

(١) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٦٣.

الأخرى، إلى أن جاء أولاد رزك، على افتراض أنهم مختلفون كليّةً أو جذرياً عنهم^(١).

لفترة بقي الشمال والساحل الغربي تحت سيطرة الجيل الأول من بني حسان، ولن يتعرّضوا للتهديد إلاّ ابتداء من القرنين السابع عشر والثامن عشر عندما سيبدأ جيل جديد منهم في استبدال الجيل الأقدم. مثل هذا الجيل «المغفرة»، وكانوا ينتمون لبطن مختلف من المعقل؛ إذ انحدروا من مغفر بن أوداي بن حسان، أخي حسن بن أوداي، الذي انحدر منه حسانيو الصحراء الأوائل كالرحامنة والودايا وأولاد رزك، وانحدر منه أولاد دليم وأولاد اللب. ورغم أن أولاد الناصر، الذين تزعم رواية الكنتي في الرسالة الغلاوية أنهم كانوا رأس الحربة في القدوم إلى الصحراء، كانوا ينتمون للمغفرة؛ إلاّ أن المستفيدين الكبار من هذا «الاختراق» الأوّل في الغلبة كأولاد رزك والبرابيش وأولاد دليم، كانوا ينتمون لأبٍ آخر ولرعيل حساني آخر.



وصل أولاد رزك إلى الغلبة في أعقاب البرابشة الذين ربما قضوا على الجماعات العسكرية التي سبقتهم من لخبابشة ولعزيزات في أواخر القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر. وقبل قدوم المغفرة سيطر أولاد رزك على الوضع في أرض الغلبة والساحل من خلال توزّعهم في بطون مقاتلة صغيرة تتمركز حول أولاد بواعلي الذين قادهم في القرن السابع عشر زعيم متجبر هو كدول بن موسى، الذي فرض نظاماً قاسياً على الزوايا من تاشمشة بحيث إنه كان يعلن ملكيته لأي دابة تدخل حومته. ويبدو أنه لقي مصرعه في خلافٍ عائلي عندما تحالف عمّه وأولاده عليه فقتلوه قبيل غارة على تاشمشة^(٢).

ساهمت قسوة أولاد رزك على المستضعفين التاشمشيين في جرح بليغ الأثر في نفوس هؤلاء. فقد كان أمراء الحرب منهم يغيرون عليهم ويُعرّمونهم دوماً، كما كان حال أحد زعماء فرع من أولاد رزك، هو أولاد اخليفة، ذكره اليدالي

(١) نفسه.

(٢) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٦٣-٦٦.

مثلاً^(١). وفي القرن الثامن عشر كان صوت اليدالي ما يزال يشكو من بطشهم ووحشيتهم:

ومن شنيع جورهم على تَشْمُش أن رجلين من أولاد بَوَاعِلِي من قبيلة محمد بن اكدوي خرجا يصطادان بكلبيهما فرجعا خائبين فمراً بصالحة من تَشْمُش قيل إنها من إيدَا جَفَع تتنفل ضحى خارج حلتها ومعها ولدها صبي سمين جميل فتقالوا أن كليهما اليوم بقيا بلا غداء، فليكن هذا الصبي السمين غداهما، فشقاها نصفين والعياذ بالله [...] فأخذ كل منهما نصفاً لكلية^(٢).

ولكن قوى محاربة صغيرة بدأت تتغلغل إلى أرض الغبلة التي كانت موصولة بالشمال المفتوح على الحظوظ التجارية (حوض آرغين)، والجنوب الزراعي؛ وبدأت هذه القوى الصغيرة في مزاحمة أولاد رزك. وربما وصل المغفرة في بداية القرن السابع عشر أو قبيل ذلك في الوقت نفسه الذي كانت فيه هجرات بعض المجموعات الدينية والتجارية تُشاهد ذاهبة من آردار بعد الأزمة الاجتماعية هنالك. وقد اختلف المغفرة عن بقية المهاجرين في أنهم كانوا مسيطرين على الأراضي التي يأتون إليها وذلك من طبيعتهم كقوى بدوية محاربة؛ غير أن سطوتهم لن تبرز إلا بعد حصول الشقاق في السلطة الأميرية الحاكمة: أولاد رزك، الذين اصطدموا بهم في معركة أولية في العقود الأولى من القرن السابع عشر عُرفت بـ «النيش»، التي قتل فيها زعيم من أولاد رزك هو امهين بن عيسى^(٣).

كان الحسانيون الرزكيون قد بسطوا سيطرتهم على جلّ القبائل الموجودة في الغبلة، وربما ألحقوا بقايا انيرزي وجعلوهم ملحقين وأقناناً. وكان الصراع الأهلي بينهم يقوم أساساً على عوائد الغزو وحقّ الهجمات. ولعلّه كان لتنظيم أولاد رزك تفوقاً من الناحية الفنية؛ إذ استفادوا من انقساماتهم الأنسابية في إنتاج تقسيم عمل عسكري. فكانت قواتهم تنقسم قسمين: قِسم يُشَنُّ الهجوم والغزو

(١) نفسه، ص ٧٣.

(٢) نفسه، ص ٦٦-٦٧.

(٣) نفسه، ص ٩٤-٩٥.

الخاطف هو عبارة عن وحدة عصبية هي لِكُتَيَّات، أما البطن المقاتل الآخر، أولاد بواعلي، فقد كانوا متخصصين في الأسلاب. وهو ما جعل غزواتهم خاطفة ومُنتِجة ولا تسمح للمنهمزمين باستنقاذ أموالهم، وفي الوقت نفسه تخلصوا من أيّ عامل سلبي قد ينجم من عجلة المقاتلين عن المواجهة والاندفاع نحو السلب. ولكن للمفارقة، فإن هذا عينه كان سبب أفول أولاد رزك؛ إذ سبّب مشاكل بين الجانب الهجومي والجانب الاختطافي المتخصّص بالأسلاب. فيبدو أن لِكُتَيَّات لم يرضوا عن طريقة أولاد بواعلي، وربما أحسّوا بالضيّع لقيامهم بالمجهود الشاق في الحرب فيما تؤول الأسلاب لغيرهم. وفي عام ١٦٣٠ وصل هذا الخلاف إلى ذروته لدى العودة من غزوة قام بها البطنان القبليان في الشرق. انتهز لِكُتَيَّات فرصة أمان أولاد بواعلي وهاجموهم في أثناء انشغالهم بالسلب والنهب، فقتلوا منهم الكثير في عملية انتقامية سيكون لها أثر سلبي فيهما معاً^(١).

هذه كانت فرصة للمجموعات المقاتلة الصغيرة مثل المغافرة والعروسيين، الذين استقطبهم المجال. كان العروسيون محلة غازية متجولة في الصحراء تتراوح جيئة وذهاباً بين ولاّات في أقصى الشرق الجنوبي وأرض الغبلة في أقصى الغرب الجنوبي. وكان من زعماء هؤلاء آنّذ سيدي إبراهيم بن سيدي العروسي الذي كان موهوباً في استقطاب الحلفاء وكاريزمياً جدّاً، بحيث إن اليدالي وصفه بأنه: «كانت له حيل يحتال بها، يجلب بها قلوب الناس»؛ ولكن قوته نبعت من قوة عصابته، وأنه «كانت له محلة وكان يأتي زوايا الغبلة ويفعل فيها ما يشاء ولا يقدر أحد أن يتعرّض له بشيء»^(٢). أما المغافرة، برغم أن الأدلة تُشير إلى حضور البراكنة وأولاد امبارك فيهم، إلّا أن الروايات تُشدّد على نواة الترابزة فيهم التي كانت تنضوي تحت زعامة أحمد بن دمان. وكان أحمد بن دمان بن عزيز بن مسعود بن موسى بن ترّوز استراتيجياً طموحاً. وتقريباً في الوقت نفسه الذي كان فيه حليفه سيدي إبراهيم يفكر في الهجوم على القبائل الصنهاجية في الغبلة كتاشمشة، فإن أحمد بن دمان كان يُنظر لمشروع أكبر هو السيطرة الأميرية

(١) نفسه، ص ٩٤-٩٥.

(٢) نفسه، ص ٨٧-٩٠.

وتحيد أولاد رزك نهائياً للاختلاء بقبائل القبلة والساحل . فانظر حتى تلقى دعوة للنصرة من قبل زعيم أولاد بواعلي المهزومين من قبل لِكْتِيَّات، محمد بن عيسى، واعتبرها فرصة لا تعوّض للسلطة^(١). وهكذا، قال للزعيم العروسي الذي كان يتحرّف للحرب على تاشمشة: «لنبدأ بأخذ النعمة ثم لنأخذ بيضها بعد ذلك»^(٢). وهكذا هاجمت غزوتهما المتحدة مع أولاد بواعلي، القوة الضاربة في أولاد رزك، لِكْتِيَّات، وهزماها في معركة انْتِيَّام عام ١٦٣٠-١٦٣١، بادئين عصر المغفرة في أرض القبلة^(٣). انتهت زعامة أولاد رزك في القبلة والساحل، رغم أن نواة منهم بقيت فاعلة وشاركت مؤقتاً في شربة إلى جانب الطرف الخاسر، إلى أن غيّرت ولاءها في المرحلة الأخيرة، وأنقذت نفسها من الدمار. وهو ما سمح لها بالظهور لاحقاً كسيادة متشكّلة في نواة صغيرة منضوية في الجنوب ومتحلّقة حول أسرة اعلي وناس. أما في المجال الواسع من الساحل حتى إمارات الكايور والوالو فسيفرض أحمد بن دامن سلطته الأميرية أو بالأحرى رئاسته، وسيتوّج أسرته رأساً لها حتى مدخل الاستعمار الفرنسي.

(١) نفسه، ص ٩٥-٩٦.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٢؛ البدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٩٤.

(٣) البدالي، شيم الزوايا . . . ، ٩٤-٩٧. المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٤-١٠٣.

إمارة الترارزة

شنشنة قديمة فيهم

كلهم يعرفها من أبيه

(الأمين بن اعبيد الديماني، مادحًا أمير الترارزة، محمد لحبيب)

أخذ المغافرة النعامة وبيضها، بل أصبحوا أقوى من حلفائهم العروسيين الذين فقدوا قوتهم في معركة أنتيكام. وبفضل هذا بقوا مستفردين. وبالنسبة إلى تاشمشة فإن الأمر لم يكن غير سلطة أميرية مثل سوابقها من السلطات البربرية: العزيزات، وازناكة، والأنباط، والقوى الزنجية (تاغللة من البولار)، وأخيرًا بنو حسان (أولاد رزك). إلا أن انتصار المغافرة لم يعن سيطرة قوة مركزية أو حتى وحدة، فقد كانوا يتفصلون في عدة رئاسيات يقودها زعماء محاربون تتداخل قواهم وصلاحياتهم. وقد ظهر من بين هذه القوى أولاد امبارك، القادمون من الشمال، الذين أصبحوا قوة مزعجة لأولاد الزناكية من المغافرة كأبناء تروز وأبناء بركني وأزعجوا طبعًا التاشمشين وغيرهم، وخصوصًا عندما بدأ أميرهم، أوديكة الأقرع، في تغريم القبائل المسالمة. وهو ما فتح الباب أمام مواجهة مع بقية المغافرة الذين قاموا بتطبيق استراتيجية شبيهة بهزيمتهم لأولاد رزك، وذلك عندما كرّوا على أولاد امبارك في أثناء انشغالهم بجبّي المغارم من إيديقب، القبيلة الزاوية المسالمة، وهزموهم. بل إن هزيمة أولاد امبارك هذه أفسحت الباب لعناصر صغيرة من أولاد عكبة وأولاد داوود لبسط سلطانهم جنبًا إلى جنب المغافرة^(١).

(١) اليدالي، شيم الزوايا...، ص ٨٤-١٠٠.

سرعان ما فرض أحمد بن دمان (ت ١٦٣٦) نفسه كأمر حرب قوي؛ وقد استفاد من العلاقات مع البرتغاليين، الذين كانت تلك لحظاتهم الأخيرة في السواحل الصحراوية؛ إذ وقّع اتفاقية مع أحد زعمائهم اسمه رودريغو أو روديرغوس لإنشاء ميناء للتعامل معهم في إنجيل (ما سيُعرف ببورتندي أو ميناء هدي). كما استفاد من النجاة العلمية لأحمد باب الدّيماني الذي فكّ شفرة رودريغو وترجم رغبته في التعامل التجاري مع أحمد بن دمان. ونتيجة لهذا، فقد كافأ الأمير الدّاماني العالم الدّيماني بأن خصّص له محفّزاً أو «أمكبل» بقي أولاده يتوارثونه من بعده^(١).

غير أن استندار عوائد من التجارة الأطلسية ربّما لم يكن كافياً لكلّ محيط أحمد بن دمان، وكانت عشيرته القرية تسطو على المجموعات وتفرض عليها المغارم والحماية، وربما المداراة؛ فقد كان له إخوة ستة يصلون على مجتمعات الغبلة، كما كان أخوه، ساس بن دمان، يفرض الإتاوات على تاشمشة وإيدغبان عند تنياشيل وأغينت. وكان ثمة حضور ملحوظ لأخيه الآخر، عتّام، الذي فرض بدوره مغرمًا على تاشمشة^(٢). أما زنون بن دمان فيبدو أنه قد ورث بعض العلاقات مع البرتغال؛ إذ كان العالم الدّيماني، أبو زيد، سفيره إليهم (ويبدو أنّهم قد أسروا الأخير عندما وفد إليهم نيابةً عن زنون، ولم ينج إلا بكرامة، حسب السرديات)^(٣). ورغم أن نواة التراززة الأولى هذه لم تكن مهيمنة على كلّ المجال، إلا أن أحمد بن دمان كان مركز قوة عشيرته وأساس تلك السيادة، وقد ترك «الإمارة» في بنيه عندما توفي في منتصف القرن السابع عشر. وكان الذي خلفه هو ابنه: هدي، الذي لم يكن مجرد وريث، بل كان قائداً جديراً ومخطّطاً بارعاً. ومن أسرة أمراء الحرب هذه نشأت نواة الأرستقراطية العسكرية التّروزية

(1) Norris, 'Znaga Islam,' 499.

(2) نفسه، ص ٨٥-٨٧.

Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. , 29.

(3) Norris, 'Znaga Islam,' 499.

التي ستؤسس قبيلة وإمارة مزدهرة ومسيطرة حتى القرن العشرين^(١).

وبطبيعة الحال، فما كان للترارة أن يُصبحوا أسياد المجال دون أن يواجهوا القوى المتعددة من أعدائهم وحلفائهم. فقد تصادف صعودهم مع صعود قوتين: الأولى البراكنة، الأكثر تنظيمًا والأكثر قوة، الذين سيفرضون غرامات على التروزيين. ولكن المواجهة معهم ستتأجل قليلاً بسبب ظهور القوة الثانية التي شكلت خطراً عليهما معاً، وعلى كل المغامرة في المجال: الزوايا التاشمشيون. بسرعة تحوّل الأخيرون في خمسينيات القرن السابع عشر وستينياته من حركة إيمانية صغيرة متحلقة حول قائد كاريزمي هو ناصر الدين، وإلى مشروع ديني نضالي يحاكي حركة المرابطين الأولى. وسرعان ما تحوّلت الحركة الزاوية الصغيرة إلى أرستقراطية عسكرية انساحت إلى الجنوب بسرعة في شامة (الوالو) وفتحت الممالك السودانية في حوض نهر السنغال، وأصبحت قوة مخيفة بالنسبة إلى المركز التجاري الفرنسي في سان لويس وبالنسبة إلى المحاربين المغامرة، بل وحتى بالنسبة إلى المطامع المغربية في الشمال البعيد.

في مواجهة قوة ناصر الدين هذه ظهرت قيادة الأمير هدي، المتحالف مع رؤساء المغامرة كبكار الغول (البراكنة) وبوسيف (أولاد امبارك) ومحمد بن عبد الله المغفري. وفي عام ١٦٧٣ استصدر هدي فتوى بضرورة التصدي لناصر الدين وبعدم شرعية دفع الزكاة له. وبالفعل، نشبت حرب شريفة الشهيرة عندما أرسل المغامرة من يتصدى لجباة ناصر الدين ويبعدهم بشكل قاسٍ. ورغم هزيمة هدي وبقية الأمراء في المعارك الأولى، إلا أنهم نجحوا في قتل ناصر الدين في ترنلا في معركة مهيبة في أغسطس عام ١٦٧٤. ومنذ تلك اللحظة، وتزامناً مع انقلاب الموازنة الاستراتيجية لصالح المغامرة - إذ تمكّنوا من وضع الزوايا بين كماشتين جنوبية وشمالية-، وهم يحققون انتصارات متتالية إلى أن قاموا بالهجوم النهائي على الزوايا في تنيظاظ في عام ١٦٧٧، وأفنوا جيشهم وفرضوا عليهم

(١) نفسه، ص ٨٥-٨٧.

Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions

Ernest Leroux, 1919, p. , 29.

شروطًا استغلالية مهينة شكّلت عقدًا اجتماعيًا وثقافيًا كان أساسيًا لنمو النظام الأميري في التراززة وتطوّره.



مرةً أخرى لم يخرج التراززة منتصرين وحدهم من الحرب، وكان عليهم التعامل مع شركاء النصر من البراكنة، وشركاء المجال كأولاد دليم، الذين بدأوا ينفذون إلى مجال التراززة بغية فتح منفذ على البحر، الذي أصبح مصدر عوائد مهمة من خلال موانيه المتاجرة مع عموم الصحراء. لقد جعلت حرب شربية من المغافرة أسياد المجال الذي يقع فيه حوض آرغين، والذي أصبح مهمًا جدًا خصوصًا بعد تراجع تجارة العبيد الأطلسية وحلول تجارة الصمغ محلّها؛ فأصبحت الشواطئ مسرحًا تجاريًا من جديد. في هذا السياق أحكم المغافرة سيطرتهم على الشاطئ الأطلسي وعُرفوا آنذاك بـ«عرب الزبار» أو عرب البحر⁽¹⁾، حيث فرضت سيادتهم على المجال أن يُوقّع التجار الأوروبيون الاتفاقيات معهم ويعهدون إليهم منها بنسبٍ من الأرباح التجارية، فُننّت في شكل «محفزات» و«إكراميات». وكانت الإكراميات في حقيقة الأمر هي مكاسب القوى المحاربة من الاقتصاد الحمائي على مجال المبادلات التجارية؛ إذ لم يكن الأمراء تجارًا، وكانت شاهدة على كيف تقوم الأرستقراطية المحاربة البدوية بالاستمرار من الأنشطة البرجوازية الرأسمالية بدلًا من أن تنسحق فيها.

ولعلّ هذا لم يظهر في شخص أكثر من رجل شربة القوي. فبمعنى ما يعتبر هديّ هو من أرسى السلطة التروزية المبنية على التجارة؛ ذلك أنّه حاكّ علاقات مع الهولنديين والإنجليز والفرنسيين بحكم سيطرته السيادية على مينائه، بورتنديك (إنجيل)، الذي أحياه وجعلهم يستخدمونه في تجارة العبيد والذهب، والذي سيصبح أساسيًا للتجارة الأطلسية في الصحراء. لقد بدأ هذا الميناء -الواقع في أجريدة على بعد ٣٠ كيلومترًا من العاصمة الحالية نواكشوط- يصبح ببطء بديلاً لميناء آرغين وصار محطة تجارية ثانية. وقد عاد هذا التحوّل في جزء كبير منه

(1) Muhammed Al- Muhtar Assa'd, " Emirats et espace émiral maure: le cas du Trarza aux XVIIIe-XIXe siècles." *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 54(1989), 58.

إلى مجهودات هدي (وإن كانت له أصول من عهد أحمد بن دمان)؛ لذا سمّاه الأوروبيون باسمه فأصبح يُعرَف عندهم بـ «بورتندي»، أي «ميناء هدي»، الذي سيتحوّل لاحقًا إلى portendie ثم بورتانديك Portendik^(١). (رغم أن كاتبًا إنجليزيًا معاصرًا لازدهار الميناء، هو جورج ديوك، يحيل إلى تسمية أخرى هي (Port en Derique)^(٢). أما البيضان فكانوا يسمونه «اتيل» أو «اطيل» (Tyeil)، حسب فينسان^(٣)، التي هي صيغة ترخيمية تعني «التل الصغير» أو «الطلل الصغير».

وبفضل نجاح هدي في احتكار الميناء التجاري، فإنه كان يحصل على عوائد من الأوروبيين لضمان التجارة والمقايسة عند المدخل الغربي مع الصحراء. لقد قلنا إن هذه العوائد عُرِفَت عند الأوروبيين بالإكراميات (les coutumes)، أما البيضان فقد عرفوها باسم «أمكُبل»، التي كانت تعني «المحفزات». وستصبح أساس نفوذ الإمارات ومصدر الصراع فيها والتنافس عليها^(٤). وكمثال على هذا، فقد أتى الهولنديون في ثمانينيات القرن السابع عشر لهدي بجياد أوروبية عالية الجودة، وصفها لا كورب بأنها «جياد فلاندية كبيرة وجميلة إلى أقصى درجة». ورغم أن البيضان لم يحبوا الزغب الكثيف في أرجلها، إلا أنها أثارت ألبابهم وتركت أثرًا حسنًا في الصحراء بحيث إن الزعيم التجاري لإيدولحاج في أبريل عام ١٦٨٦ في جنوب النهر، كان يسأل الفرنسيين عن إمكانية أن يأتوا بخيل جيدة مثل تلك التي حصل عليها هدي، واعدًا إياهم بالحصول مقابلها على كل العبيد. وكان هدي نفسه يقدم إلى مناطق التبادل التجاري في جنوب اترارزة محاطًا برجاله المسلحين، فيحصل على هدايا من «البراك»، أي ملك الوالو، الذي أهدي له عبدًا في أبريل عام ١٦٨٦؛ كما نعرف أنه كان يدرس في تلك الفترة إمكانية التعامل مع الفرنسيين الذين زاد نشاطهم التجاري في المحطات التجارية في حوض النهر^(٥).

(1) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 67.

(2) George Duke. The Life of Major-General Worge, 100.

(3) J. Ancelle. Les explorations, 121.

(٤) الشنقيطي، الوسيط، ص ٤٦٠.

(5) Cultru, 154-156.

أما في الشمال، ناحية الساحل، فقد كان الأمير التروزي يستفيد أيضًا من تحالف شبيه. ففي عام ١٦٧٨ أو ١٦٧٩ قدم الملك المغربي مولاي إسماعيل، أو بعث وفدًا على الأصح، إلى الصحراء مرّ فيه بشتيطي وتيشيت قبل أن يصل إلى أرض الغبلة، وهو يبحث عن علاقات في الصحراء تُوطّد مصالحه في بلاد السودان - وهنالك حاك تحالفًا مهمًا مع هديّ، وقام بحركة يبدو أنها فُهمت تتويجًا له أميرًا على الترازة^(١). وبطبيعة الحال، فقد كان هذا نسيبًا؛ ذلك أن سلطة هديّ نفسها لم تكن تدين للمغاربة بالكثير، علاوة على أنها لم تكن مباشرة على الجميع ولا شاملة لهم؛ بل إنّ لو براسير، الشاهد على الفترة، يُفيد بأنه ولاحقه كانوا يدفعون المغارم للبراكنيين مقابل ضمان مصالحهم في الصحراء^(٢).

تذهب معظم الروايات المعاصرة في كتابة تاريخ الترازة إلى وفاة هديّ في عام ١٦٨٤. ولكن هذا تاريخ مستعجل، ولا بدّ أنه توفيّ بعد عام ١٦٨٦؛ لأن لاكوب التقاء في أبريل عام ١٦٨٦ وتفاوض معه. ومن الواضح أن السنوات بين التاريخين كانت سنوات بلا أحداث كبيرة. ومهما يكن من أمر، فإن ابنه، السيّد، حلّ محله وقام في ٢٠ ديسمبر عام ١٦٨٧ بتوقيع اتفاقية مع البروسيين يمنحهم فيها حق المتاجرة في ميناء حوض آرغين مقابل عوائد لإمارة الترازة الوليدة^(٣). وهو ما فتح المجال لصراع مع أولاد دليم الذين اعتبروا أن الميناء يقع في حمايتهم ومجالهم. وبالإضافة إلى هذا، فإن قوة البراكنة التي خرجت منتصرة من شربة جنبا إلى جانب هديّ كانت ترى لنفسها أيضًا حقًا في المجال. وبطبيعة الحال، فقد كان ما حدّد هذا الصراع هو المركز التجاري الجديد في ميناء هديّ، الذي صار مقصدًا للسفن الأوروبية، الهولندية والبروسية وتعزّز التبادل التجاري والمقايضة فيه؛ وتم الرقي بذلك في اتفاقيّتين وقّعهما البروسيون مع الأميرين التروزيين، السيّد وأعمّر أكجيل، في عامي ١٦٨٥ و١٦٨٩^(٤).

(1) Ould Cheikh, *Eléments de l'histoire*, 78; Norris, *the Western Sahara*, 48.

(2) Le Brasseur, 91.

(3) Mukhtar Assa'd, "Emirats et Espace émiral," 60.

ويعتبرها المختار بن حامد اتفاقية ١٦٨٥. انظر: التاريخ السياسي، ص ١١٣.

(٤) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٣.

في السنوات اللاحقة تطوّرت المواجهة مع أولاد دليم إلى حروب مستعرة، كان أهمها معارك «شار» و«عبانة» في ١٦٩٥ التي أنهت تمّدّد المغافرة في الساقية الحمراء؛ ولكن الحروب استمرّت بعد ذلك في مجال الترازة وبلغت أشدها في عام ١٧٠٣ عندما لقي الأمير اعمر الكجّيل بن هدي، الذي خلف السيّد، مصرعه في مواجهة في آكليل. وكان أميرًا موصوفًا بالعدل^(١)، وقد عبّر ولد رازكة، شاعر اترازة وسياسيها، عن حسرة فقدانه في قصيدة لم تخلُ من طابع سياسي^(٢).



ابتداءً من العام ١٧٠٣ أصبح اعلي شَنْظورة بن هدي، أخو الأمير القليل، أميرًا للترازة. سوف يتمّ تذكّره على أنه المؤسّس الحقيقي لمجال الترازة، باعتباره سلطة سياسية لها مجالها وقضاؤها وسلطتها الاقتصادية. بل وستظهر صفة «القطر الشَنْظوري» في أعمال الشيخ المامي في القرن التاسع عشر. كانت كاريذية اعلي شَنْظورة واضحة لمعاصريه فقد كتب عنه معاصر له، هو لو براسير: وُلد اعلي شَنْظورة ولديه عبقرية وشجاعة لن يوجد لها مثيل في إفريقيا المعاصرة، فقد تألّم لضعف والده وتأمّل منذ صغره كافّة مشاريع الفتوح والاستقلال التي قام بها بعد ذلك. وما إن وضع أقدامه على أرضية العرش حتّى بدأ في استطلاع شؤون بلاده من حيث القوى التي قد تتعرّض لها ومن حيث العلاقات التي يمكن لها أن تحيك مع الأمراء الآخرين. وعندما حان وقت تأديته المغرم إلى البراكنة، وهو عبارة عن صحن من القطع النحاسية وآخر من القطع الفضية، كما جرت العادة، فإنه ملأهما بالبارود وبالرصاص وأبلغهم تدمّره من دفع هذا المغرم ومن البطء الذي يصل به إليهم، وأنه سيوصل إليهم صحنًا أخرى من النوع نفسه في وقت أسرع^(٣). ولم يتباطأ البراكينيون في فهم إشارة التحدي، فأعدّوا جيشًا هاجموا به الأمير

(١) الشنقيطي، الوسيط، ص ١٧-٢٠.

(٢) المختار بن حامد، ص ١١٣؛ ولد بابا في ولد السعد، شربة هامش، ص ٨٠.

Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 77.

(3) Le Brasseur, 91.

الشباب في عقر داره ولكنه نجح في صدّهم. ويروي لابروسير حكاية بطولية شبيهة بالأساطير في هذا الخصوص، فقد عاد البراكينيون إلى وطنهم لتهيئة جيش قويّ ضد اعلي شنظورة، الذي أدرك أنه لا قبلَ له بهم، فخرج باحثًا عن حلفٍ يواجهُهُم به. ولكن طريقه كان محفوفًا بالمخاطر وخصوصًا من الأعداء الذين صنعهم والده. فخرج متنكرًا مخافةً أن يعرفه أعداؤه الكثر وعبر بلدان عشرين قبيلة وهو متنكر حتى وصل إلى قصر طنجة فمكث به عامين، وهي مدة طويلة جعلت الجميع يعتقدُ أنه مات، وخصوصًا عندما اقتنعت زوجته، فاطمة، أنه قُتل على يد البراكنة ولم تعد قادرة على التكتّم على غيابه الطويل. وفي الغياب -يوصلُ لو براسير- خان أمير أولاد دليم اعلي شنظورة بمحاولة إغواء زوجته، التي تمتعت وبقيت مخلصه لزوجها. وتنتهي قصة لو براسير بعودة اعلي شنظورة بعد سنتين، آتيا بمحلة من عند الملك المغربي فهزم بها أمير أولاد دليم وقطع رأسه وأهداه لزوجته، فاطمة، وهاجم البراكنة ودمّر حقولهم واستاق قطعانهم وهاجم منازلهم وقتل أسرة أمرائهم وعاد به ٤٠٠٠ أسير من عندهم^(١).

من الأرجح أن لو براسير كان يبالغ أو كان يعيد كتابة ملحمة تروزية وصلت إلى مسامعه. ولكن قصته الدرامية تحمل عناصر كثيرة من الحقيقة، فقد سقط على عاتق اعلي شنظورة تكوين إمارة مستقلة وقادرة على مواصلة سيادتها بعيدًا عن أطماع المحاربين المتربّسين وإتاواتهم، وخصوصًا أولاد عبد الله، أسياد البراكنة والمتنفذين في الترابزة في هذه الفترة. ومن المحتمل جدًا أنه كان لاتفاقية اعلي شنظورة مع الإنجليز دورٌ في إيقاد الصراع مع البراكنة. ولا شك أن هذه التحديات كانت معينة لاعلي شنظورة على تنظيم مجاله وعمله على تأسيس «دولة». وكان من أمارات هذه التأسيس تفاهمه مع عدّة قوى ناعمة في الترابزة على إقامة مجالٍ سيادي ومعنوي، فشرع في ضمان قانون يرعاه القاضي، اتشفاغة موسى، المنحدر من أعداء الأمس، تاشمشة. كما قام بالعمل مع وزيرٍ وقاضٍ وعالم وشاعر من قبيلة إيدوعلي سرعان ما أصبح نوعًا من السلطة الرمزية والمعرفية، هو عبد الله ولد رازكة (١٦٥٠-١٧٣١).

(١) نفسه، ص ٩١-٩٢.

ولا شك أن هذا التأسيس كان صعبًا؛ لأنه تحصّل في فترة رمت فيها جلّ القوى في المجال التراززة عن قوسٍ واحدة؛ فعانت زعامتها من تدفق أولاد دليم وحرّبهم لها ومن حملات البراكنة وشبح أولاد رزك. وربما كان من أسباب تدفق أولاد دليم إلى التراززة، هو صراعمهم هم وإيدوبلال مع المخزن المغربي؛ فاضطرتهم العداوة مع السلطان مولاي إسماعيل إلى النزوح جنوبًا. وفي هذا الإطار بدأوا تركيز هجماتهم على ميناء بورتنديك^(١). وكما رأينا، فإن المصادر الفرنسية، التي مثّلها لو بروسير، تذهب إلى أنهم نجحوا في طرد اعلي شنظورة إلى المغرب^(٢). هذا إضافة إلى أن انتصار أم عبانة في ١٦٩٥ جعلهم سادة الصحراء الغربية، وعزّز مطالبهم في أعالي أرض الغبلة وخصوصًا منطقة الساحل قرب ميناء هدي. أما البراكنة فبالإضافة إلى قوتهم، فإنهم لم يكونوا بعيدين من المجال، وربما كانوا يعتبرون أنفسهم شركاء في خيارات المحيط. ولهذه الأسباب فقد وجدوا فرصة في التحالف مع أولاد دليم^(٣). ورغم هزيمة أولاد رزك، إلا أنهم بقوا قوة ضاربة كما رأينا في حرب شربية، ويبدو أيضًا أنهم كانوا يزعجون الأمير، اعلي شنظورة^(٤).

إلا أن اعلي شنظورة لم يكن وحيدًا. وهنا تدخل بقية العناصر من قصة لو براسير. فما كان عليه إلا الاستنجد بالملك المغربي مولاي إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧)^(٥)، الذي كان يحيك تحالفات مع البدو والقوات الهامشية ليقوي بها ملكه المهدّد. كان قد بدأ في إرساء ملكه في شمال المغرب وسواحله، وقد عرفه الأوروبيون بـ «السلطان الأسود»؛ لأنه استطاع جمع جيش قيل إنه تكوّن من ٤٠٠٠٠ أسود سيُعرفون بـ «جيش البخاري» أو «العبيد» أو «الحراطين»،

(1) Mustapha Naimi. La dynamique des alliances oust-saharienne. Paris: edition de la maison des science de l'homme, 2004, 230.

(٢) انظر مثلاً استخدام المؤرّخ بوبكر باري لمعلومات لو براسير:

Barry, Le Royaume du Waloo, 157.

(3) Webb, Desert, 39.

(٤) الشنقيطي، الوسيط، ٤.

(٥) الشنقيطي، ص ٤-٥.

استطاع بهم توطيد ملكه وحرّر طنجة ولعرايش والمهدية وأرزيلة، وأمن مدنه الشمالية بالقوات المسيحية العربية، كما استطاع إبقاء الأتراك بعيدين عنه. كانت مغامراته السلطوية كبيرة اعتمد فيها على عرب المعقل، والأودية، أبناء عمومة الحسانيين الصحراويين، وكانت أمه منهم فكان يشعر بحنين كبير لهم سترجمه إلى اهتمام كبير بالصحراء، بحيث إنه قام برحلة كبيرة إلى المجال الموريتاني، بحسب المؤرخين الصحراويين (ولد أطوير الجنة) والمغاربة (الناصري). إلى بلاط هذا الملك سافر اعلي شنظورة رفقة مستشاره، ولد رازكة، إلى مكناس في المغرب في عام ١٧٢٠، ولم يعودا قبل نهاية العام على رأس محلة قوية من بدو واد نون، من قبيلة تكنة وذلك قبل نزولها إلى المجال الموريتاني، ويبدو أن ذلك حدث بعد مقابلة شيخ القبيلة حامو سعيد الأزرجي، الذي قرر مساندته^(١)، ربما بناء على طلب الملك^(٢). ومهما يكن من أمر، فقد عاد اعلي شنظورة متوشحًا بالسروال الأبيض الذي ألبسه له الملك المغربي والذي سيصبح منذئذ رمز الإمارة.

وبطبيعة الحال، فقد استخدم اعلي شنظورة المحلة المغربية في تصفية حساباته المحلية. وفي الأشهر اللاحقة لقدمه قام بتنسيق حملة لإبعاد البراكنة عن مجال الترابزة، ولكن أول مواجهة معهم لن تحدث قبل ٢٨ مارس عام ١٧٢١ ثم أتبعها بسلسلة هجمات تمكّن بها من إبعادهم إلى تزاكرت في أفطوط. وكانت المحلة أيضًا قوة هجومية له في منطقة شمامة، فاستخدمها في متابعة الإنجاز الشمشي بقهر الممالك الزنجية، وخصوصًا الوالو والفتوتا^(٣). فلفترة بقيت قوة بني حسان منشغلة عن المجال الجنوبي السوداني بسبب الصراعات على آرغين؛ فحتى بعد

(١) لقد ارتبط في المجال أن هذه المحلة هي من إنفاذ الملك، بينما هي كانت تطوعًا من تكنة التي كانت تتمتع باستقلال كبير عن المخزن.

(٢) من هنا ستتكرس عادة منح فرس لقبيلة تكنة كل عام حتى عام ١٩٠٤، أما التكنيون فكانوا يقدمون الهدايا للقادرين الموريتانيين.

Robert Rétzette. The Western Sahara and the Frontiers of Morocco. Paris: Nouvelles Editions Latines, 1975, 49.

Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 49.

(3) Assa'd, "Emirats et Espace émiral," 60.

سنوات من القضاء على ناصر الدين ظلّ من سماهم لأكورب في عام ١٦٨٥ بـ «العرب» متوقعين في حوض آرغين، رغم أنهم كانوا «مسيطرين على مناطق واسعة من البلاد»^(١). وقد بقي المجال الجنوبي مفتوحًا للقبائل المتاجرة والمجموعات المسلحة الصغيرة في الهجوم والكسب من محطة «تكشمكة» في جنوب التراززة. ولم تصبح السيطرة على شمامة وما دون النهر مشروعًا لاعلي شنظورة إلا عندما هزم أعداءه وبسط سيادته. ولم يكن غرضه إبعاد الفوتا فحسب، وإنما فرض الإتاوة عليها أيضًا. وهو ما حاول الساتيغي أبوبكر سيرى تفاديه ببعث ابنه، غاكو، الذي أقام في المغرب في عام ١٧١٦، من أجل إقناع السلطان المغربي بإيقاف تأثير محلته في الممالك السودانية. ولكن محاولته الدبلوماسية فشلت وترك المجال لاعلي شنظورة ليكون القوة الأساسية في المنطقة. بل واستخدم المحلّة، التي كانت تضمّ عناصر من البيضان والسود من الحوض والمغاربة، في تفويض السلطات السياسية لملوك حوض نهر السنغال وإشاعة العنف السياسي به؛ إذ تعاونت مع الفوتا في نهب إمارة الوالو وتعبيد أهلها، وذلك في عهد الساتيغي غاكو نفسه، الذي ورث أباه، والذي رغم الأعداد الغفيرة من البشر في مملكته لم يستطع فعل شيء في مواجهة البيضان الذين شتّوا مملكته الفلانية^(٢).

في عام ١٧٢٠، عام عودة اعلي شنظورة من المغرب، كانت المحلّة التروزيّة التي كان يقودها قائد مغربي عرفه الفرنسيون والولوف بـ «القادش» أو «القاضي» تشكّل قوة مخيفة فيما وراء النهر. في العام نفسه كتب أندريه بري André Brue في السنغال إلى بيير ماسكون Pierre Mascon في بيساو أن ١٢٠٠٠ من المغاربة بُعثوا إلى المجال، وأخبره عن توغلهم داخل الأراضي السودانية حتى كاجاكا (غالام)، وأنهم هاجموا بلدة للبابارا. وفي أبريل من العام نفسه وصلت الأنباء إلى القديس روبرت أن المحلّة تصل إلى ٥٠٠٠ جندي. وأبرق القديس الفرنسي

(1) Cultru, 146.

(2) de Pommegeorge. Description de La Negritie, 1789.,51-52; Webb, Desert Frontier, 40. Kane, Les Maures, 243, 245.

بهذا في رسالة كتبها في السادس من أبريل عام ١٧٢٠ ولكن في العام الموالي، وتحديدًا في ٢٨ مارس عام ١٧٢١، بعث القديس نفسه رسالة تُقدّر المحلة بـ ١٢٠٠٠ مغربي، وأنهم وصلوا إلى شمال الفوتا، وقالت الرسالة إنهم يأترون بأمره اعلي شنظورة وإنهم يُنفذون أجندة الملك المغربي. وبطبيعة الحال، لم تخلُ بعض هذه المعلومات من مبالغات؛ فالحقيقة أن المحلة لم تكن غير ٥٠٠٠ محارب، ولن يبعث الأمير المغربي، مولاي علي، بمدد إضافي من ٢٠٠٠ محارب إلا بعد انتهاء حربه الأهلية مع مولاي عبد الله. ولكن، بطبيعة الحال، كان هذا العدد أكثر من كافٍ لتقليص نفوذ الولوف إلى ما وراء النهر وتكريس سلطة البيضان فيه وإقامة تحالفات مع أساطين المنطقة. وبناءً على هذا انتصر اعلي شنظورة في معركة مشتركة مع الوالو ضد الفوتا في تحالف مع الأمير الفلاني، يريم امبانك، وتمكّن من هزيمة الولوف بعد معركة شاقة انكسرا فيها أولاً. وعاد الأمير التروزي بالغنائم^(١). وكانت هذه الانتصارات مُشجّعة على مغامرات أكثر. ففي الفترة ما بين ١٧٢١ و ١٧٢٤ هاجمت قوات البيضان غلام، التي كانت مملكة متاجرة بالذهب^(٢). كما تمكّن اعلي شنظورة من تسيّد نفسه على الكايور والوالو بعد أن دمّرت المحلة المغربية الفوتا ودولة دينياكوبى. ومن العشرينيات إلى الأربعينيات ستعيث هذه المحلات العنف في الإمارات السنغالية^(٣). وكان من رؤية اعلي شنظورة أنّه استفاد من النظام المغربي وأراد بناء جيش من العبيد، كما فعلت الدولة العلوية في المغرب. وكانت المحلة هي وسيلته في اكتتاب أو استعباد عناصر إضافية لجيشه، وخاصةً عندما نجح في مصادرة ما أوصلته المصادر إلى ٤٠٠٠ عبد من البراكنة واستخدمهم جنودًا في جيشه^(٤). ورغم تحالف البركنة مع الفوتا وقتالهم ضده وضد أمير الوالو، إلا أنهم انهزموا في معركة عام ١٧٢٢ الكبيرة^(٥)، ولم يعودوا يشكّلون خطرًا ماحقًا على الترازة.

(1) Barry, Le Royaume du Waloo, 157-160.

(2) Kane, Les Maures, 238-244.

(3) Webb, Desert Frontier, 40.

(٤) نفسه.

(5) Barry, Le Royaume du Waloo, 160.

وتواكب ترسيم الترازرة عن لبراكنة بإصلاحاتٍ سياسية داخلية تميّزت بالمصالحة مع تاشمشة وإفساح مجال لعلماء الزوايا في لعب دور قضائي في المجال، ما كان مهمًّا، إن لم يكن شرطًا في قيام المحلة حيث قامت بترسيم مجال الترازرة بقوتها الضاربة وكأنها جيش نظامي.

وبطبيعة الحال، فلم تكن جلّ هذه الطموحات متوقّفة على المحلّة؛ فحتّى قبل مجيئها فرضَ اعلي شنظورة الأمن السياسي الداخلي لصالح قوة أرادها أن تكون مركزية، فعندما ثار عليه الرحاحلة فإنه أخضعهم في علب الكسرة ومليزيمات الرحاحلة في عام ١٧١٩^(١). وكانت سياسته صارمة تجاه هؤلاء وقد بعث إليهم برسالة واضحة: «ادفعوا المغارم أو غادروا اترازرة». ويبدو، بحسب الرواية التأسيسية، أن مجموع القبيلة رضي بهذا الشرط باستثناء سبعة زعماء مُقاومين منهم ذهبوا إلى الحجّ ثم عادوا واستنجدوا بلبراكنة الذين صاروا أحلاف بطن معتبر من الرحاحلة هم الحجاج. ولعلّ أعمال اعلي شنظورة في الترازرة الداخلية تواكبت مع أعماله «الخارجية»، التي قام فيها بتطوير علاقاته التجارية-الحمائية مع الفرنسيين الذين كان قد وقّع معهم اتفاقًا في يوليو عام ١٧١٧. لاحقًا سيشير مفكر الصحراء، الشيخ محمد المامي (١٧٩٢-١٨٩٥)، إلى الترازرة باسم «القطر الشنظوري»، اعترافًا بالجهود الدولية للأمير.

بهذه المرحلة، ونتيجة هذه الجهود، أصبحت الترازرة سلطة ممتدة إلى حدود بعيدة تمتدّ من الساحل إلى ما وراء النهر جنوبًا ومن المحيط الأطلسي غربًا إلى بحيرة اركيز والبراكنة شرقًا. وأصبح هذا المجال يضمّ تحالفًا من القبائل المتجمعة بدورها في اتحادات قبلية صغيرة: أولاد أحمد بن دمان وأولاد دمان وأولاد بوعليية ولعلب وليّيدات. في القرون اللاحقة سيسيطون سيطرتهم من خلال نظام إلحاق جديد يحافظ على وحدة القبائل مع استخدامها في أغراض نظام القبائل المسيطرة من تجنيدها إلى تغريمها مرورًا بالتحالف معها. وكانت هذه القبائل من أصول مختلفة وشعوب متفرّقة، فكان منهم بنو عمومة الترازرة، أمثال الرحاحلة الذين ينتمون لمغفر، وأولاد الفاجي الذين ربما تمّ إلحاقهم باعتبارهم

(1) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 78.

فريقًا مستقلًا من تجكانت، وكان منهم آرويجات الذين توالى إلحاقهم لعب. ولقد قام أولاد أحمد بن دمان بعد سيطرتهم بانتهاج الإلحاقية ضد بني عمومته من أولاد رزك وأولاد عايد ثم لمرادين، الذين كانوا يضمّون أيضًا عناصر صنهاجية كلمناصير ولمزازكة. سيلحقون أيضًا زمبتي الذين كانوا حراطين مستقلين. وعلى مدى العقود اللاحقة ستصبح إمارة الترازة سلطة سياسية ومجالًا جغرافيًا كان يضمّ أيضًا قبائل الزوايا المستقلة كقبائل إيدوالحاج وإيدوعللي وتندغة والمدلش وتاشدبيت وإيدالاحين وأولاد اتشفاغة حيبلل وأولاد بوزيد والطلابين وانتابو وإيديوسات وتاكونانت وتجكانت وتاكنت وأولاد أبييري^(١).



لم تكن معركة اعلي شنظورة معركة مع البيضان أو السودان فحسب، وإنما مع الأوروبيين كذلك، وخصوصًا الفرنسيين منهم. فقد غدا ميناء هدي خاصة ومجال الساحل عمومًا مصدرًا مهمًا للتجارة، وكما رأينا فقد اقتتل عليه قوى الترازة مرارًا غير أنه استقرّ في أواخر القرن السابع عشر في أيدي الهولنديين الذين فرضوه مكانًا للمقايسة مع البيضان، وبالأخصّ في حصن آرغين القديم. ولم يكن أولاد دليم أو البراكنة وحدهم من طمع في الميناء، بل وبزهم في ذلك الفرنسيون. كان أندريه بري، الذي تم تعيينه في عام ١٧٢٨ مديرًا لشركة الهند الفرنسية في السنغال، قائدًا طموحًا؛ وكان قد قام برحلات في السنغال وجنوب بلاد البيضان بدءًا من عام ١٦٩٦ وشاهد خصوبة التجارة بين البيضان والبولار. وفي عام ١٧١٧ كان يفكر في طريقة يتمّ بها تحويل تجارة البيضان، وخصوصًا الصمغ، إلى المحطات الفرنسية في الجنوب، بدلًا من أن تتوقّع في السواحل الأطلسية. «كانت قضية آرغين تشغله جدًّا»، حسب تعبير الكاتب الفرنسي الاستعماري أنسيل، وقد ارتأى أن العمل العسكري هو أفضل الحلول لانتزاع الصمغ، ونسّق مع العسكري الفرنسي بيير دو سالفير Pierre de Salvert حملة لاحتلال آرغين. وهو ما تمّ القيام به في هجوم خاطف في ٢٤ فبراير عام ١٧١٧، استطاع فيه الفرنسيون فتح ثغرة في سور حصن آرغين والنفاذ إليه وإزاحة

(١) نفسه، ص ٦٨-٦٤.

الهولنديين جانبًا والسيطرة على التجارة. وفي ٢٩ يوليو وقّع دو سالفير اتفاقية صداقة مع اعلي شنظورة ولكنه ظلّ يطمح لإقصاء الهولنديين بالقوة^(١).

ورغم أن الهولنديين بقوا مسيطرين على ميناء هديّ، إلا أنّ سيطرة الفرنسيين على ميناء آرغين لم ترقّ لهم، خاصّةً أن هذا الميناء بدأ يستحوذ على التجارة؛ إذ كان حوالي ثلاثمائة بيضاني يأتون فيه إلى الفرنسيين بالصمغ العربي وریش النعام والذهب^(٢). وكان الهولنديون أصدقاء لاعلي شنظورة وكانوا يقدمون له الإكراميات من القطن الثمين، الذي كان ذا قيمة كبيرة في الصحراء، ومنه جاء اسم «شنظورة» دليلًا على الوفرة والثراء^(٣). لذا «دفعوه» إلى استعادة آرغين^(٤). وتحرك اعلي شنظورة مدفوعًا برغبة في الانتقام من مذبحه قام بها الفرنسيون بقيادة حاكم آرغين ديفال للبيضان؛ فقام بهجوم ضارٍ قُتل فيه ديفال^(٥). وفي ٢٢ يناير عام ١٧٢٢ هاجم اعلي شنظورة حصن آرغين بألف وخمسمائة من البيضان وطرد الفرنسيين، الذين فشلت حملة لهم في استعادة الحصن بسبب نقص الماء الصالح للشرب في المنطقة المحاذية لآرغين، واضطرّ جيشهم إلى الإبحار قافلاً إلى السنغال. إلّا أنّهم حضّروا للجولة القادمة وهبّأوا في عام ١٧٢٤ حملة أكثر تنظيمًا لاستعادة الميناء قادها بطل احتلاله السابق، دو سالفير. وبالفعل نجحت الحملة في استعادة الحصن بعد أن استسلمت قوات اعلي شنظورة، وتمّ تعيين حاكم فرنسي على الحصن وبقوا مسيطرين عليه حتى عام ١٧٥٨^(٦). وربما وضع هذا الاحتلال الترابزة أمام الأمر الواقع، فبدأوا في التعامل مع الفرنسيين، وذلك بعد تحطيم محطات «التربة الحمراء» (le terrier rouge) و«دّية» (la desert du coq). ومن الواضح أن هذا التدمير كان بغرض احتكار تجارة الصمغ وتوابعها والتحكم في أسعارها ووجهتها.

(1) Ancelle. Les explorations, 33; Barry, Le Royaume du Waloo, 152-153.

(2) Ancelle. Les explorations, 33.

(3) Webb, Desert Frontier, 98.

(4) Ancelle. Les explorations, 33-34.

(5) Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique, 1, 94-95.

(6) Ancelle. Les explorations, 33-34.

ويبدو أن اعلي شنظورة سرعان ما وجد فائدة كبيرة للمراكز التجارية في مجاله. وعندما لم تبقى خارج مجاله إلا محطة Terrier Rouge المملوكة من قبل البراكنة هاجمهم في مجال قطف العلك وبيعه في المحطة، ونجح في طردهم إلى اركيز لفترة ثم تابع الهجوم عليهم ودحرهم حتى بوغي، حيث لقي حتفه بعد هزيمتهم في عام ١٧٢٧. وتختلف الروايات هل مات مسمومًا أم مات في ساحة المعركة يُطارِدُ البراكنة^(١). بنهاية فترته الملحمية أصبحت التراززة تمتدُّ على مجال واسع النطاق كانت تبسط فيه سيطرتها على ثلاثين واحة من بينها واحة الحوض والغابات العلكية الواقعة على بعد ستين ميل من ميناء هدي، وعلى بعد خمس وسبعين من المحطات التجارية، كمحطتي «تكشكمة» Desert و«دية» Coq^(٢).



دُفن اعلي شنظورة في بوغي (غرب وجنوب البراكنة الحالية)، وخلفه ابنه أعمر ولد اعلي شنظورة (١٧٢٧-١٧٥٧). تعتبر الفترة الطويلة في الإمارة لهذا القائد فترة توطيد فتوحات والده. إلا أن كثيرًا من السلطات التي يبدو أن اعلي شنظورة قد جمعها في يده قد توزّعت بعد رحيله في عدّة قوى. وبطبيعة الحال، فإن الرغبات الفرنسية والإنجليزية كانت تُحبذُ تعدّد مراكز القوى في صميم الإمارة، هذا طبعًا بالإضافة إلى ما فهمت الأنثروبولوجيا الفرنسية أنّه طبيعة انقسامية في المجموعات والسلطات البيضانية، وأنّه ميلها الفطري إلى الاستقطاب والانقسام. وسرعان ما لعبت المراكز الاقتصادية الأوروبية دورها في تقسيم الإمارات بين أطراف قوية يمكنها أن تضعف بها القوى المحاذية لها عسكريًا وسياسيًا وتؤثّر بذلك في قدرتها على التفاوض واحتكار السيطرة على المحطات التجارية. في إمارة البراكنة أدّى هذا إلى إبعاد الحمائية البدوية المسيطرة لأولاد نغماش بأخرى بديلة هي أولاد السيد. وفي إمارة إيدوعيش بعد أكثر من قرن سيحدث هذا أيضًا بفعل الخلافات الأسرية وصراع الأطراف على المداخليل وستنشق العائلة الحاكمة إلى قطبين سياسيين متعادين. أما مملكة أولاد امبارك فستتجزأ إلى رئاسيات

(1) Marty. *Etudes sur l'I slam et les tribus maures*: Les Brakna, 24-25.

(2) Oumar Kane. *Les maures*, 238.

صغيرة غير قابلة للتوحد، وسيذهب كلُّ منها في اقتصاده وحده؛ بل إن هذا نفسه سيفتت إماره الترازة في نهاية حكم الأمير محمد الحبيب مع بداية ستينيات القرن التاسع عشر.

إلا أنه يُذكر لأعمر ولد اعلي شنظوره أنه تغلب على هذه المشكله وأجلها لقراة قرن. فابتداء من أربعينيات القرن الثامن عشر بدأت هذه المشكله تُطرح بشكل قوي على إماره الترازة، فقد ظهر أولاد دمان، بنو عمومة أولاد أحمد بن دمان، القبيلة الأميرية. تاريخياً كانوا ذراعاً مناصرةً لأبناء عمهم الأمراء، وإن حافظوا على تمايزهم الجغرافي والنسبي عنهم. وكانوا حلفاء اعلي شنظوره الأقوياء، وكانت زوجته، والدته أعمر، وهي عائشة بنت التونسي، من أسرته الأساسية^(١)، التي ستغدو قطباً مهماً في الإمارة. ويبدو أن بعض قادة أولاد دمان كان في موقعٍ يقدرُ منه أن يستفيد من الأرباح التجارية التي أتاحها الموقع الاستراتيجي للترازة. ففي عام ١٧٤٣ استطاع قيادي منهم، هو سيدي أحمد بن أحمد بن سيري بن اعلي الكوري (من أولاد ساسي)، التقرب من الفرنسيين وإقناعهم ببناء محطة تجارية محاذية للبراكنة وتقع في حماية جناح أولاد دمان. وهنا تدخل أعمر ولد اعلي شنظوره بقوة لمنع هذا السيناريو، الذي قد تنشأ منه قوة اقتصادية لا تتبع للإمارة، ما قد يؤدي إلى إنهاء قوتها، كما حدث لأولاد نغماش في البراكنة المجاورة؛ فالأقتصاد الحمائي وقوة الأمراء تتحدّد بقيمة ما يمكن أن يقدموه لتحالفاتهم. ثم إن وجود محطة تجارية أخرى كان سيضعف أسعار الصمغ، ما كان قد ينعكس سلباً على تجارة الترازة وأرباح أمرائها. وربما كان ثمة عامل الخوف من نفوذ البراكنة الذين ستقع المحطة في مجالهم^(٢).

ومهما يكن من أمرٍ، فقد تمكّن أعمر من إلغاء الاتفاقية والضرب عرض الحائط بمشروع سيد أحمد. ونُخْمِنُ أن هذا الإجهاض قوى من مركزية الأسرة الأميرية، بحيث إن الأطراف الدمانية ستسعى للبحث عن السلطة في إطار

(١) كانت عائشة بنت التوينسي ولد عتام ولد دمان تنحدر من أسرة عتام التي ستتحول إلى قوة معارضة مزعجة للإمارة، وكان أهلها على مستوى من الاستقلال السياسي.

(2) Muhtar Assa'd, "Emirats et Espace émiral," 61.

التحالفات وصراعات الأجنحة القريبة من الإمارة بدلاً من أن تسعى إليها خارجها. وهكذا بعد تراجع أولاد ساسي دخل بقيّة أولاد دمان في الصراع على السلطة من خلال الوقوف خلف أخوال الأمير من أهل عتّام وحلفائهم من أهل أكمتار. وفي مواجهة هؤلاء وقف أهل عبد الله. وكان جزءً من الصراع هو صراع أسرة أخوال الأمير مع أسرة زوجته، فاطمة اطفيلة بنت الشرقي ولد هدي. فقد أنجبت اطفيلة للأمير ابنه، المختار ولد أعمر، ووقفت إلى جانب أخيها سيدي المختار ولد الشرقي في الصراع ضد أولاد عتّام، الراغبين في مواصلة نفوذهم باعتبارهم أخوال الأمير وشركاء اعلي شنظورة. واستطاعا تأمين الإمارة لابنها المختار ولد أعمر الذي تلقى السروال الأبيض من السلطان سيدي محمد بن مولاي إسماعيل^(١). أما سيدي المختار، الخال المنتصر، فسنجده يعمل سفيراً للأمير ومستشاراً له.



بفضل سياسات فاطمة اطفيلة استطاع المختار ولد أعمر (١٧٥٧-١٧٧١) أن يصبح رجل الترابزة الأوحده؛ وصار، كما وصفه إنجليزي معاصر له، «ملكاً عظيماً في تلك النواحي»^(٢). شاهده الإنجليز في عام ١٧٥٨ عندما عبر ضفة النهر إلى سان لويس إلى حليفه حاكم السنغال الإنجليزي، ريتشارد وورج، لتهنئته والاحتاد معه في شأن سيتيين أنه في غاية الأهمية. كان «يحيط به نبلاؤه وحشمه ممتطين الخيول والإبل في أعداد عظيمة». ومن الواضح أنه كان معتدّاً بنفسه؛ لأنه تدمّر من استقبال الإنجليز له في سان لويس بمجرد شخصين بدلاً من أن يستقبلوه بموكب ومسيرة على عادة الفرنسيين قبلهم. ولم يقبل نقص قيمته إلا بعد أعدارٍ وشروحاتٍ من الملازم الإنجليزي هاميلتون^(٣).

نعرف تفاصيل عن صفات هذا الأمير، أو الملك، كما عرفه بذلك الإنجليز، فقد كتب عنه شاهد عيان على زيارته للسنغال في عام تأمره، وهو الرحالة

(1) Poulet, 27; Ould Cheikh, *Eléments de l'histoire*, 79.

(2) George Duke, 94.

(3) نفسه، ص ٩٥.

الإنجليزي إلى السنغال جون ليندساي، واصفًا هيئته ودراسته وعمامته وسرواله الأبيض المغربي، يقول:

كان رجلًا طويلًا مفتولًا، جديّ المظهر، بلحية مسبولة، خفيف اللون، جميلًا، وكان يلبس ثوبًا من الشاش الصوفي الغليظ، به خطوط زرقاء عريضة، ومع الثوب أكمام من القطن الأبيض الحسن الواسع والمتسربل على هيئة لباس الكهنة. وكان تاجه مُعدًّا من القماش القرمزي المحشئ بالقطن الناعم على شكل أنواع التيجان القديمة، تاجٌ معدٌّ من ثياب مصنوعة من القماش الشاشي نفسه المذكور سابقًا، يحيط بصدغيه ويرتخي منه جزء إلى الوراء. وكان عاري اليدين والذراعين ومكشوفًا من الأجزاء السفلى من فخذه إلى رجليه ويرتدي نعلين في قدميه^(١).

كان وفده من الترابزة يضمُّ حشماً فيهم واحد يقدّم له غليونه الخاص وفيهم مغنيه، صاحب «الآردين»، القيثارة البيضانية، أما هو فكان يضع مساوًا في فمه وكان عفويًا في تصرفاته يجلس وسط أتباعه ويضع رجلًا فوق أخرى. وهو تصرف استغربه الإنجليزي من شخص في هيئة أمير^(٢). وكان داعي هذه الزيارة التفاوض والتخطيط مع الإنجليزي من أجل الإطاحة بالفرنسيين في سان لويس؛ إذ يبدو أن الفرنسيين استطاعوا إنهاء طموح اعلي شنظورة بالتحكم في منافذ التجارة من خلال تدمير المحطات التجارية التي لا تقع في نفوذ الترابزة. ويتضح أن سياستهم كانت تتعلّق برغبتهم في تعدّد المحطات التجارية وكسر احتكار الترابزة؛ لذا أصبح المختار ولد أعمر «يكنُّ لهم ضغينة كبيرة»، حسب تعبير كاتب حوليات إنجليزي^(٣). وبدورهم تضرّر الإنجليزي من سيطرة الفرنسيين على سان لويس؛ لأنهم كانوا يريدون بهذه السيطرة أسعار الصّمع المهم للنسيج الإنجليزي، كما كانوا يستفيدون بها أيضًا من تجارة العبيد في إنتاج سكر بتكلفة أقل من المنتج الإنجليزي.

(1) John Lindsay. A Voyage to the Coast of Africa, 72.

(2) نفسه، ص ٧٢-٧٣.

(3) John Almon. A Review of Pitt's Administration. London, 1763, 81.

وهكذا قديمَ التاجر المتعسكر توماس كمينغ Thomas Cuming إلى ميناء هدي في عام ١٧٥٧، وخطّط مع الأمير التروزي هجومًا على الفرنسيين لتوطيد الإنجليز مكانهم. وقدّم المختار معلومات أساسية للإنجليز تكشف عن نقاط ضعف الفرنسيين. ورغم أنه تعهّد بثلاثمائة مقاتل في الحرب، وسبعمئة مقاتل في حالة الحاجة إليهم، إلا أن القوات الإنجليزية استعجلت وسارعت بهجوم سريع على الفرنسيين في سان لويس طردتهم منها، مستحقّة تهنئة الأمير وهداياه والتعاقد معه^(١).

على العموم، فقد برهن الأمير الجديد على أنه ليس مجرد وريث للسلطة فقد حافظ على علاقات مهمة مع المخزن المغربي حصل منها على هدايا اعتبرت رمزية بالنسبة إلى الإمارة^(٢)، وضرب له الإنجليز سبع طلقات ترحيبية في السنغال^(٣). ودخل في صراعات قوية مع البراكنة، أساسها الملكية الأرضية في إيكيدى والتقاتل على الحظوة لدى حلفائه الإنجليز. وقد فتح هذا سلسلة من المعارك المتلاحقة في مجال البراكنة، الذين كان الترابزة يطلقون عليهم اسم «شباطين البيضان» أو Diable Moors، وذلك حسبما دلّت عليه مفاوضات الأمير مع الإنجليز الذي عرفوه باسم بأمير لجيبيللي أو Legibelli، الذي كان الاسم الإنجليزي للترابزة وربما لعموم الصحراء التي عرفتها خرائطهم باسم آخر مليء بالحشو هو «صحراء الصحراء الرملية» Sandy Desert of sahara أو باسم ساحل العلك أو Gumcoast.

وفي هذا الإطار حقّقت عناصر المختار انتصارًا كبيرًا على البراكنة في معركة «واد خينة» في الزار، كما حقّقت نصرًا آخر عليهم في «جفجف» عام ١٧٥٧^(٤). وهي المعارك التي تصادفت مع عودة توماس كمينغ بعد تفاهمه الأول مع أمير الترابزة وتوقيعه تفاهمًا مكتوبًا معه. وقد اختتمّ هذه الحروب بزواج من مُنيّة

(١) نفسه، ص ٦٣-٦٨؛ ١٠٤-١٠٦.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٣.

(3) George Duke, 97.

(4) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 80.

البراكنية، ربما كإشارة سَلَم مع الإمارة المنافسة^(١)؛ وهو ما يصبُّ في صالح رواية الإنجليز التي تتحدَّث عن صلح أقامه حاكم السنغال الإنجليزي بين الترارزة والبراكنة تمَّ بموجبه الحفاظ على تعدد منافذ التجارة وتعزيزها في ميناء هُدِي. ورغم أن هذا كان ضدَّ المخطَّط الأصلي للمختار وضد الطموحات الأصلية للترارزة، إلَّا أنه بقي حلًّا مقبولا كما تجلَّى في سعادة موفد الأمير، عمه سيدي المختار، إلى سان لويس^(٢).

وفيما يتعلَّق بسياساته الداخلية في الترارزة فربما نهج المختار نهجًا أميرياً معتدلاً يدخل في إطار سياسات ما بعد شربَّة، فأنهى احتلال المجموعات العربية من أولاد بوزكري لبئر «إيكيدى» المملوك من قبل أولاد ديمان والمهم استراتيجياً لجمع الصمغ، أمراً بإجلاء أولاد بوزكري عن المكان^(٣). لقد توفي هذا الأمير فجأة ما بين ١٧٧٢-١٧٧٥ أو ١٧٧٥-١٧٧٩^(٤). وكانت وفاته صدمة؛ إذ اعتقد الترارزة، المشيطنون أصلاً للبراكنة، أن زوجته البراكنية قد قتلته بالسحر. وهكذا دخل عليها نسوة من أولاد أحمد بن دمان وقتلنها مباشرة^(٥).



كان الأمير الجديد، ابنه اعلي الكوري (١٧٧١-١٧٨٦)، قد استفاد من توسيع والده لمجال الترارزة الذي أصبح يضمُّ غابات الصمغ الكبيرة. ومع تراجع نفوذ الإنجليز وازدهار التبادل التجاري في المحطات الأجنبية، فإن هذا الأمير، الذي اعتقد لو براسير، المعاصر له، أنه كان مدفوعاً بحبِّ الفرنسيين وحبِّ بضائعهم، كان يطمح إلى فتح وصلة حدودية معهم، وهو ما وضعه في مواجهة الممالك

(١) نفسه.

(2) George Duke, 104-107.

(٣) آمحمد بن أحمد يورة الديمانى، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٩٢، ص ٢٦.

(٤) يجزم ولد السعد خلافاً للمصادر الأخرى أن نهاية ملكه كانت في عام ١٧٧١.

Assa'd, "Emirats et Espace émiral," 61.

(5) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 80.

السودانية التي تحول بينه وبينهم^(١). وهكذا أصبحت إشكالية حكمه الأساسية هي كيفية فرض إرادته على الممالك والسيادات الزنجية والبيضانة فيما وراء النهر، وهو أمرٌ تورّط فيه حتى سُمي باعلي الكوري، أو «اعلي الزنجي» (ذلك أن «الزنج» في تقاليد البيضان كانوا «لكور»، أي سكان الأكوار، والأكوار، في العربية الكلاسيكية، هي الحومات العجمية) بفعل تغلغله في المشاكل السودانية، وهو الاسم الذي سيصبح شعبياً وواسع التداول في منطقة الترازرة لاحقاً. وكانت سياساته السودانية تتلخّص في معاداة الفوتين والتحاليف مع بابكر سيري، الأمير الولوفي في منطقة شمال النهر وجنوبه.

ولكي ييسط نفوذه في السودان، فإنه اضطرّ لإعادة الدور التاريخي لمعركة انتيتام ضد أولاد رزك. كان أولاد رزك قد اندحروا تماماً في شمال اترارزة وذاب الكثير منهم في القوى المنتصرة المغفرية الجديدة، ولكن مجموعة مسلّحة منهم بدأت تظهر في سبعينيات القرن واتجهت إلى نواحي بلاد السودان، وبدأت في فرض المغارم والإتاوات بقيادة زعيمها اعمر ولد اعلي ونّاس، الذي تلقى الإكراميات من الشركات الأوروبية باعتباره حامياً للتجارة؛ وهو ما شكّل مزاحمة لأمر الترازرة الذي اضطر إلى قتله. ولم يكن اعلي الكوري عموماً رحيماً بأعدائه فقد قتل أيضاً زعيماً آخر لأولاد رزك نافسه على إتاوات الفرنسيين هو أحمد بن اعمر، المنتمي إلى أوديكة بن أيوب، زعيم أولاد اخليفة^(٢).

وبطبيعة الحال لم تقتصر مواجهات اعلي الكوري على الأطراف «الخارجية» فقد تحارب مع أولاد دامان، القوة الانقسامية في يمين النهر، وقتل منهم الكثيرين في عام ١٧٨٣ ردّاً منه على هجوم مباغت شنّه على محلته^(٣). وفي الوقت نفسه تواصلت حروبه مع البراكنة في شرق إمارته، فاشتبك معهم في معركة كراع ولد العيمار^(٤). واستطاع باحتكاره للسلطة في الترازرة أن يصبح أهمّ أمير في منطقة

(1) Le Brasseur, 92-93.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٤.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

(٤) نفسه، ص ١١٤.

ما وراء النهر. وكان هذا يترجم إلى استقباله بسبع طلقات كلما زار سان لويس بعكس بقية الأمراء الذين كانوا يُستقبلون بخمس طلقات، أمثال غريمه أمير البراكنة، أمحمد ولد المختار. وكان الفرنسيون يخصّصون له، إبان زيارته لهم، وليمةً يومية كبيرة عبارة عن بقرة ومثاقيل من السكر وغالونات من الخمر الأبيض والأحمر القاني والخبز والقمح اليومي؛ كما كانوا يخصّصون الشيء نفسه للأمير سيد المختار وحليفهما بابكر سيري^(١).

من الواضح أن تجارة الصمغ قد بدأت تصبح أساسية في مداخل الإمارة ابتداءً من عهد اعمر ولد المختار، وأنها بفعل هذه الأهمية أصبحت تُسعرُ الحروب، وجعلت ابنه يتابع قهر البراكنة وإبعادها عن المراكز العلكية وعن مجالات تسويقها التي تقع في مجال الترازة. ولم يحل عام ١٧٧٨ حتى كانت الترازة تدرّ أرباحاً مثيرة من هذا المجال العلكي. فقد نقل لو براسير في عام ١٧٧٨ أن عائدات الصمغ الذي بيعَ للفرنسيين بلغت ٦٠٠٠٠٠ جنيه، بينما قدّر آخر أن الأطنان التي كانت تصدر من المجال للسنغال تصل إلى ١٠٠٠ طن^(٢). وقدّرهما ماكونغ بتسعمائة طن يأتي بها البيضان.

بطبيعة الحال، لم تكن كل هذه الأرباح أرباحاً للسلطة التروزية، بل كانت تذهب إلى عموم التجار القادمين من قبائل متفرقة في الترازة. غير أن الإمارة كانت تستفيد من انتعاش التجارة؛ لأنها كانت تضمنه لقاء عائدات. وتحيل الاتفاقية التي وقّعها اعلي الكوري مع الفرنسيين، ممثلين بالمدير العام لشركة السنغال الفرنسية، جان بابتيست ليونارد ديران، في ٢٦ مايو عام ١٧٨٥، إلى نوعية علاقاته بالتجارة النهرية. فقد حصل على إكراميات من الشركة التجارية الفرنسية لقاء ضمانه ليس فقط لأمن التجارة، بل و«حريتها» كذلك (شرط أن تتوقّف هذه الحرية عند التعامل مع خصوم الفرنسيين، الإنجليز). في المقابل كان يتعهّد كتابياً بتوطيد تجارة الصمغ والعبيد والعاج عند القناطر الفرنسية، بل وحماية

(١) انظر تفاصيل الاتفاقيات في:

Golberry. Fragment d'un voyage, 1, 276.

(2) Le Brasseur, 90; Kane, Les Maures, 242.

القناطر أيضًا. كما كان يتعهّد بالعمل على منع أي تبادل تجاري مع الإنجليز في ميناء هدي وعلى خفض الأسعار في منطقة التبادل شمال النهر.

لقاء هذا كان يكسبُ الإكراميات الفرنسية السنوية التي تصل إلى كميات كبيرة له ولحلفائه. وكانت في تفاصيلها تضمُّ مئات القطع من القماش الغيني والقماش القطني والشاش القرمزي وعشرات الأمشاط والمقصات والسكاكين والخرز والعسل والسكر إضافة إلى البنادق والمسدسات والرصاص والبارود والعنبر والمرجان والقضبان الحديدية والصنادق وركائز الخيام وغيرها من المواد التي غدت رفاهية الصحراء وعلامات حياة أرستقراطيتها. كما كان يحصل أبناؤه وآل أسرته كعاليات ومحمد المختار وسيد المختار، ووزراؤه كالمترجم ورئيس وزرائه، مذلّح، وحلفاؤه كأبي بكر سيدي وعمر سرخ وابهيمات وبيرام واعيمر وغيرهم، كانوا يحصلون على إكراميات ومُحفّزات مُعتبرة. وجليّ أنه، بما أن ضمان وقاية التجارة لم يكن عبء الأسرة الأميرية وحدها، فإن أعيان بعض القبائل المحاربة من الولوف والبولار والبيضان كانت أيضًا تتلقّى الإكراميات الفرنسية كذلك^(١).

وبطبيعة الحال، فلم تقف جبهة البراكنة مكتوفة الأيدي أمام نجاح الترابزة وبقيت تعمل دؤوبة على المشاركة في المكاسب. وكان لهذا علاقة كبيرة بتورّط اعلي الكوري في السودان، فصحيح أنه كان مهتمًا بالتبادل التجاري وبحبّ البضائع الفرنسية كما جزم لو براسير، ولكن قواته كانت تعبر النهر بغية ما هو أهم من ذلك: تجارة العبيد. فبالتعاون مع الحاكم الإنجليزي Charles O Hara هاجم بيضان الترابزة وحلفاؤهم الوالو وتمكّنوا من تعبيد ٨٠٠٠ من السودان وبيعهم عبيدًا. وكان الإنجليز أنفسهم متورّطين في النخاسة وأصبحوا يحصلون على ضعف ما يحصل عليه الفرنسيون من العبيد. ويبدو أن الأمر شكّل هزيمة للبراكنيين الذين ردّوا بأن تحالفوا مع ثورة الفوتين للوقوف في وجه اعلي الكوري والإنجليز^(٢).

(١) انظر نصّ الاتفاقيات في:

Jean Baptiste Leonard Durand, Atlas Pour Servir du voyage au Senegal, Paris: Dentu imprimeur. 33-67.

(2) Boubacar Barry, Senegambia and the Slave trade. Cambridge: Cambridge University Press, 1998, 67-68.

فبعد هزائمهم في السبعينيات بدأوا في الاتصالات بالقوى القبلية الموجودة في الأقاليم المحاذية للنهر والمتضررة من نفوذ اعلي الكوري.

كانت قوة الفوتين قد بدأت في الصعود في هذه الفترة، وقد ظهر فهم عبد القادر الألمامي بصفته رجل فوتا القوي وموحدًا منذ السبعينيات. وكان قد درس في مجال البيضان وقد احتفظ بعلاقات هنالك، بما فيها إغداقه على بعض فقهاء البيضان، كالنابغة الغلاوي (ت ١٨٢٩) مثلاً. ومع الثمانينيات كان اعلي الكوري قد أصبح تهديدًا حقيقيًا خصوصًا عندما تلقى تشجيعًا ودعمًا من الحاكم الإنجليزي، تشارلز أوهارا، في مهاجمة الوالو والفوتا. كما أنه قد بدأ في استيراد الأسلحة من الفرنسيين والإنجليز. وفي عام ١٧٨٥ حدث أول انتكاسة لاعلي الكوري عندما نجح المختار أغريشي، المتحالف مع عبد القادر الألمامي، في تنظيم حملة نجحت في التسلّل إلى مضره الأميري واختطفت زوجته. ولن يردّ اعلي الكوري إلا بعد فترة لاحقة من العام نفسه. وقد تصدّى له تحالف الألمانين والبراكنة في أكتوبر. فهاجم الألمانيون بـ ٤٠٠ رجل يقودها تبسيرو أمادو هامت تورى، ونجحوا في مفاجأته تحت خيمته في نجيراين، وهي المعركة التي عرفها المختار بن حامد باسم **المرفك**، وقتلوه منهين سيطرته على الفوتا^(١).



بعد مصرع اعلي الكوري خلفه أخوه المختار^(٢) ولد أعمر ولد اعلي شنظورة عام ١٧٨٦. كانت فترته فترة هدوء؛ إذ كان متقشّفًا وكريمًا وتوفي من دون قلاقل كثيرة في عام ١٧٩٣. خلفه أخوه عاليات (١٧٩٣-١٧٩٤)^(٣). وبعد حكمه الوجيز انتقلت الإمارة إلى اعمر ولد المختار (١٧٩٤-١٨٠٠) الذي عُرف بولد كُمبَه، التي كانت جارية لوالده. كان حليفًا للفرنسيين، الذين تخبر مراسلاته معهم بأنه اتصل بهم يخبرهم بغزوة ينوي البراكنة القيام بها ضدهم من قبل أميرهم أحمد ولد المختار ولد اغريشي، ويخبرهم بأنه رفض

(1) Kane, Les Maures, 251.

(٢) هو امحمد بن المختار بن اعمر، بحسب المختار بن حامد، ص ١١٤.

(٣) المعروف أنه توفي بعد عام ١٧٩٤، ولكن لا يعرف على وجه الدقة تاريخ الوفاة.

التعاون معه على هذا الأساس وذلك في عام ١٧٩٩^(١).

كان نفوذ الإمارة قد تقلّص في أرض السودان تزامنا مع زيادة نفوذ الدولة الألمامية، التي فرضت مغارم على الترابزة. وفوق كلّ هذا كانت صراعات الأجنحة داخل الإمارة قد بدأت تطفو فوق السطح لتملأ الفراغ السياسي الذي نجم عن ترؤّس أمراء ضعفاء ووجيزين. فمنذ عهد الأمير اعلي الكوري شبت صراعات قوية بين أهل عتّام، الذين بقوا جناحًا قويًا من أولاد دمان رغم هزيمتهم من قبل فاطمة اطفيلة في الخمسينيات، وبين أسرة الإمارة. ومع أواخر القرن تفتّق الصراع عن هجوم من أهل عتّام على محلّة الإمارة أعقبه هجوم انتقامي قام به رهط الأمير وقتلوا فيه زعيمًا من أهل عتّام^(٢). وباستثناء هذا، فإن الاتفاقيات النفعية التي وقّعها اعلي الكوري مع التجارة الفرنسية والتي نظمت الإكramيات، جعلت المشهد السياسي خاليًا من الأحداث الكبرى. لذلك لم يكن عهد اعمر ولد المختار مذكورًا أو ملحمة، خصوصًا مع الضربة التي تعرّض لها نفوذ التروزيين في التجارة الأطلسية، وربما توفي في عام ١٨٠٠^(٣).



إلا أن وفاته كانت فاتحة حرب طويلة المدى وواحدة من أكبر حروب المزاخمة على السلطة في تاريخ الإمارة. فلقد انفجرت أزمة وراثية في الحال، وتكشف سيناريو هامليتي عندما انتقلت الإمارة عمليًا إلى اعمر ولد المختار ولد الشرغي ولد اعلي شنظورة الذي كان رأسًا لجناح أميري لم يتداول السلطة إلى هذه اللحظة. حسب وليه، فإنه وصل إلى الحكم بصفته وصيًا على ابن أخيه محمد ولد اعلي الكوري، الذي كان حدث السن، ولكن اعمر ولد المختار استفرد بالحكم^(٤). وبطبيعة الحال، فقد أثار هذا استياء أولاد اعلي الكوري، القتل في نجيرارين عام ١٧٨٦، الذين اعتبروا أنفسهم أحقّ

(1) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 82.

(2) نفسه، ص ٨٠.

(3) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٤.

(4) Poulet, 27.

بالسلطة، وقام ابنه، محمد ولد اعلي الكوري، بالمطالبة بالحكم.

كان طبيعياً أن يعتبر محمد ولد اعلي الكوري نفسه أحقّ بالإمارة؛ فأبوه، اعلي الكوري، كان الأمير بلا منازع، وقد سارع أولاد أحمد بن دمان، المشاكسون منذ الخمسينيات ثم السبعينيات من القرن الثامن عشر، بدعمه. وسرعان ما تمكّن المتنازعان على السلطة من تأمين قوة ضاربة لكليهما، وتفاقت الصراعات بين الفريقين ولم تهدأ رغم استمرار العم اعمر ولد المختار في ممارسة سلطته. كان أولاد أحمد بن دمان أصلاً جسماً داخل أولاد دمان حيث كان الأمير أحمد ابناً لدمان، ولكنهم أصبحوا جزءاً قبلياً مستقلاً^(١)، وأدّى دعمهم لولد اعلي الكوري وعداؤهم لاعمر ولد المختار إلى حرب أهلية طويلة المدى ومتراكمة الأسباب. وفي عام ١٨٠٨ اندلعت معركة قوية بين حلفاء الأمير اعمر ولد المختار، وهم مجموعات أولاد بوعلية وميسات وأهل عبللة، الذين شكّلوا حلّفاً ثلاثياً سموه «لِمِثْلِيَّة» (الثلاثية) واصطدموا بأولاد دمان من حلفاء محمد ولد اعلي الكوري في معركة نتيمرگاي. وبعد عام لم تتوقف المعارك وشبّت بينهما معركة أغبُسيت؛ ثم تطوّرت هذه إلى معركة انبیم بين أولاد دمان المتحالفين مع أولاد بوعلية ضد أولاد أحمد بن دمان في عام ١٨١٠^(٢).

ورغم أن الصراعات كانت صراعات انقسامية-قبليّة من النوع النمطي في قلب أي إمارة بيضانية، إلا أن جوهرها الحقيقي كان يتعلّق بمصالح الأطراف وقوتها وظهورها كمجموعات نفوذية لها مصالحها في ثروة الصمغ وفي الإكراميات والاستفادة من توزيعها. وقد نجح الفرنسيون، الذين لم يرضوا عن نهج اعمر ولد المختار وراهنوا على خصومه، في إدخال إيدولحاج والوالو ضده. وبديهي أن هذا فاقم العداوات في الترابزة في العقد اللاحق، وسرعان ما تحوّلت المواجهات بين الأطياف المتناحرة إلى سلسلة حروب مطّردة بأكثر مما كانت عليه. فعندما نجح أولاد أحمد بن دمان في قتل رجل مهم يُدعى «أبانه» في عام

(١) Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 29.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٤-١١٥.

١٨١٦، تولدت سلسلة معارك انتقامية متجددة عُرفت بـ«حرب ابانة» وسقط ضحيتها كثيرون^(١). ويبدو أن اممر ولد المختار أثبت تفوقه عندما تمكّن من تحقيق نصر معتبر على ولد اعلي الكوري في معركة عند بئر نويلة رغم صغر قواته مقارنة بقوات ولد اعلي الكوري وحلفائه من أهل الشرقي^(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد واصل محمد ولد اعلي الكوري معارضته لتأمّر اممر ولد المختار. وعندما هدأت المعارك في الترازة وألقت مُعارضتها السلاح لم يرضَ بالأمر الواقع وذهب إلى إمارة إيدوعيش في تكانت واستطاع صياغة تحالف قوي مع أميرها القوي، امحمد ولد محمد شين، الذي وجد مصالح في فرض نفسه قوةً قريبة من الفرنسيين، وهاجما معًا اممر ولد المختار على رأس جيش مشترك في أباخ في عام ١٨١٧، واستطاعوا الولوج إلى مضاربه وأخذوا زوجته وقطعوا أذنها إمعانًا في إذلالها.

ولم يستمرّ سلام الجبهة التروزية طويلاً. ففي عام ١٨١٦ نجح ولد اعلي الكوري في صياغة تفاهم مع الفرنسيين الذين فاقم تعامل ولد المختار مع أعدائهم الإنجليز في ميناء هدّي من استيائهم. فدخلوا على الخط واستطاعوا استمالة شاب نافذ له أتباع أقوياء في الترازة، هو محمد فال ولد عمير ولد سيدي المختار ولد الشرقي ولد اعلي شنظورة. وقد وجد هذا الأخير مصلحة قوية في إبعاد الإنجليز وإرساء الفرنسيين محلّهم، وذلك عندما نجح في توقيع اتفاقية سرية مع الفرنسيين في ٧ يونيو عام ١٨٢١ دعتّه بمنع المتاجرة مع الإنجليز وتوجيه النشاط التجاري إلى جهة النهر حيث يتمركز الفرنسيون^(٣). وبالفعل، فقد شرّع ولد عمير في مشروعه الكبير فهندس معارضة قوية للأمير اممر ولد المختار وعمل على ممارسة الضغوط عليه. وعندما رفض الأخير طرد الإنجليز بحجة أنه أعطاهم كلمته، فإن ولد عمير حاول بالقوة منع تجار الصمغ الصغار من التبادل مع

(١) نفسه.

(2) Ancelle. Les explorations, 19.

(3) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 84.

Assa'd, "Emirats et Espace émiral," 64.

الإنجليز في القناطر على الشاطئ. وسبب هذا السلوك حرجاً للأمير ورهطه وتحدياً لحمايتهم للتجارة ولاتفاقهم مع الإنجليز، ما أثار كرامة ابن الأمير، إبراهيم ولد اممر ولد المختار، فقتل محمد فال ولد عمير وبطبيعة الحال، فقد سَعَرَ هذا الاغتيال من حدة المواجهات، وهرع والد القليل، عمير، إلى تحالف أولاد دمان مع ولد اعلي الكوري، وخاضوا معارك جديدة مع رهط الأمير بدأت بمعركتي كصرام وتنويريت، التي مات فيها عددٌ من الزعماء المهمين؛ فقتل ولدا الأمير اممر وهما: إبراهيم والد وأخوه اعلي خملش، وقُتل من رهط عمير: إبراهيم، خال ولد عمير؛ واركيعه ولد محمد شتوف.

ولم يخف على اممر ولد المختار نفوذ الفرنسيين في الصراع، فقام بإثارة القلاقل لهم في منطقة الوالو وذلك على خلفية الصراع على الأراضي الزراعية الممتدة من شمامة إلى دغانة. فابتداءً من العشرينيات بدأت قضية الأراضي الزراعية تظهر بصفتها موضوع احتقان مع الفرنسيين والسنغاليين؛ فقد اعتبر الأمير اممر أن أرض دغانة التي يزرع فيها الولوف «ملك لأهل محمد ببانه، لا تباع ولا تشتري». ودخل في صراع مع ملك الوالو، المدعوم فرنسيًا، ومن قبل الأمير المنافس، محمد ولد اعلي الكوري، الذي وقّع معهم اتفاقين في عام ١٨١٩. وهما الاتفاقان اللذان رفضهما اممر ولد المختار رفضاً قاطعاً^(١).

وبدوره فقد فتح احتقان الصراع باباً من الحوار المباشر بين فرنسا والترارزة، فوُقِّعت بينهما عدة اتفاقيات في الفترة ما بين (١٨٢١ و ١٨٢٦) كانت كلّ واحدة منها تُخرق سريعاً من أحد الأطراف. ولعلّ أهمّ ما في هذه الاتفاقيات كانت آخرها التي اعترفت فيها فرنسا بحق أمير الترارزة في الوالو^(٢). كان نفوذ البيضان قد وصل بالفعل إلى الوالو في غابر العقود السابقة، وكان البيضان قوة فاعلة في المجال. ولكن الاستخدامات الجديدة للعبيد وما رافقها من تغيير العادات الغذائية جعلت الأراضي الزراعية مهمة جداً لاقتصاد البيضان، الذي أصبح يعتمد على المزارعين العبيد أو السودان الأحرار العاملين والقاطنين في شمامة (الوالو) في

(١) نفسه، ص ٦١-٦٢.

(٢) بول مارتري، ص ٩٤؛ عبد الودود، ص ٨٤.

تأمين الحبوب جبايةً وإتاوةً. ولا شك أن هذا أدخل السيادة العقارية في صميم الأطماع والسياسات الأميرية بالترارزة.

وعلى ما في اتفاقية ١٨٢٦ من قيمة معلّمة، إلا أنها لم تُنه حرب الوراثة في الترارزة. وفي الحقيقة، فلم تنتهِ الحرب حتى بتصفية المُطالب الحرون بالإمارة، محمد ولد اعلي الكوري. فبعد توقيع الاتفاقية الأخيرة قام مناصر للأمير هو ولد عيه، وهو متحمس من أولاد أكشار، باغتيال غريمه محمد ولد اعلي الكوري في عام ١٨٢٦. وعلى إثر هذا تشبّث الأطراف الداعمة للقتيل بابنه، المختار ولد اعلي الكوري (١٨١١-١٨٣٢) الذي حقّق انتصارات دبلوماسية رغم حداثة سنّه. كان مراهقاً في سن الخامسة عشرة، ولكنه حصل على اعتراف الفرنسيين وسلطة الوالو الذين نصبوه أميراً، اعترافاً بخدمات والده. إلا أنه سرعان ما تبين أنهم راهنوا على طرفٍ خاسر عندما انهزم جناح الشاب في الوالو لصالح جناح الأمير اعمر، وبدأ الفرنسيون في مقاربة براغماتية مع الأخير^(١). وفي عام ١٨٢٩ كان اعمر قد نجح في إنهاء حدة الصراع وفرض نفسه في الوالو وأصبح زعيم الترارزة القوي. وتوفي في عام ١٨٢٩ عن عمر يناهز التسعين (حسب پوليه الذي أخطأ في تاريخ وفاته)^(٢).



في القرن التاسع عشر صار مجال الترارزة الممتد من أرغين إلى ما وراء النهر سلطة معتبرة نظر إليها الرحالة والتجار والإداريون الغربيون على أنها مملكة. وتتعدّد الإشارة إليها في الوثائق الفرنسية، كما إلى بقيّة الإمارات البيضانية، بالـ «حكومة» أو «البلد» أو «الدولة» أو «المملكة». ويُفرد الأب بوالا -المُعاصر للأحداث والقاطن آنئذٍ بسان لويس والذي يعرف الترارزة معرفة الجار- لهذا «البلد» أسطراً:

(١) محمّدو محمّدن أمين، وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، ترجمة وتحقيق وتعليق، منشورات جامعة نواكشوط، المطبعة الجديدة، نواكشوط، ٢٠٠٠، ص ٩٧.

(2) Poulet, 28.

يمتدُّ هذا البلد من حدود البحر إلى أربعين فرسخًا في الأرض . الدولة فيه وراثية، حيث يتقلد الابن الأكبر من الأطفال المُلك، وينتقل التاج إلى القريب الأقرب من العائلة المالكة . ويقومون بجمع الصمغ في الشمال في غابات الساحل التي توجد في دوائهم ويحملونه إلى محطة الصحراء المخصصة لهم على حدود السنغال^(١) .



خلف اعمر ابنه محمد الحبيب (محمد لحبيب)، أحد أبرز الأمراء البيضان قاطبة . بدأ إمارته بإنهاء مشكلة الوراثة عندما سمح للمختار ولد اعلي الكوري الذي كان يطالب بالإمارة بالانتقام لمقتل والده، وتركه يقتل ولد عيّه من أولاد أكشار، مقابل اعتراف المختار بسلطة محمد لحبيب وبصفته أميرًا أوحد للترازة^(٢) ؛ فانتهت مطالب آل اعمر ولد اعلي شنظورة التاريخية، وانحلّ رسميًا -بعد أن انفكّ عمليًا- أطول خلاف على شرعية الإمارة . أما الأعداء الألداء، الذين ارتبطوا بآل اعمر ولد اعلي شنظورة، الذين رفضوا الصلح والذين كانت لهم ضغائن وثارات في المجال فقد هاجروا إلى البراكنة^(٣) .

لم يستفد محمد لحبيب فحسب من انسحاب المختار ولد اعلي الكوري، بل استفاد أيضًا من مصرعه . فلقد توجّه هذا إلى التجارة بعد تخليه عن مطالبه السياسية . وفي يوليو من عام ١٨٣١ اندلعت مشاكل بين التجار البيضان والتجار الفرنسيين قام فيها المختار ولد اعلي الكوري وأنصاره بقتل التاجر الفرنسي فرانسوا ماليقوا François Malivois، ما سبّب حربًا بين الفرنسيين وحلفائهم الوالو ضد الترازة . ولن تنتهيّ هذا الحرب إلا في ٢٤ أغسطس عام ١٨٣١ عندما تم توقيع اتفاقية «كرنل» Quernel، التي وافق فيها محمد لحبيب على طرد القتلة من الترازة . إلا أنّ تطورات مهمة نشأت في عام ١٨٣٢ عندما استأنف المختار

(1) Abbé David Boilat, Esquisses sénégalaises, Paris: Karthala, 1984, p. 368.

(٢) ولد محمّدو، وثائق من التاريخ الموريتاني، ص ٩٧.

(3) Poulet, 28.

نشاطاته التجارية^(١)، وذهب إلى سان لويس لتوقيع بعض الترتيبات المالية مع شركائه الفرنسيين. وهناك أمسكه الفرنسيون وحاكموه وأعدموه رميًا بالرصاص في ديسمبر عام ١٨٣٢. وكانت هذه فرصة لمحمد لحبيب، فاستغلّ المشاعر الملتهبة في الترابزة، وقاطع الفرنسيين وفرض نفوذه على الوالو بأكثر من ذي قبل^(٢).

وبطبيعة الحال، فإنه لم يكتفِ في ابتغاء النفوذ في الوالو على مجرد السياسة؛ بل وّطد مزاعمه بالزواج من وليّة عهد الوالو الأميرة دُيُومْبَة Diombo. ولا شكّ أنه فعل هذا في إطار تكتيك سياسي كان عنده في زيجاته عمومًا؛ ذلك أنه عندما أراد إنهاء الخلاف مع أولاد دمان تزوّج بنت زعيمهم، فاطمة بنت سيدي أحمد (والدة الأمراء: أحمد سالم، المختار السالم، إبراهيم السالم، محمد لحبيب واعمّر السالم). ولعلّه فعل شيئًا شبيهًا بهذا عندما تزوّج أيضًا بأمبيريكة بنت سيدي محمد ولد محمد شنوف، واستطاع بذلك الزفاف رأب الصدع في القبيلة وتثبيت تحالفات جديدة. وعندئذ استخدم نفوذه في التمدّد والتسيّد على القبائل التروزية ثم البراكنة^(٣). أما زواجه من أميرة الوالو، فقد كان أيضًا حلقة أخرى في إيقاظ العداوة مع الفرنسيين.

ولم يتباطأ الفرنسيون في الرد عندما أعلنوا حربًا مفتوحة على الترابزة سنعرج عليها، إلا أن أهم انعكاس لها على الضفة اليسرى لن يحدث قبل عام ١٨٤٧، عندما قاموا بدعم انشقاق في الترابزة قاده أخّ لمحمد لحبيب هو ولد الليكّاط المتحالف مع أولاد دمان بغرض الإطاحه بأخيه. وبطبيعة الحال، فإن جراك الليكّاط وأولاد دمان لم يكن صنيعة فرنسية؛ وإنما كان ترجمة لصراعات تاريخية وانقسامية وإقليمية مصلحية في الترابزة وقد استثمرت فيها مختلف الإمارات البيضانية والقبائل ذات المصالح التجارية والحراية في منطقة الضفة والساحل. إلا أن الفرنسيين كانوا يستفيدون من حرب أهلية في الضفة البيضانية تُشغل عنهم

(١) حسب Ancelle، فإنه قضى هذه الفترة مسؤولًا ثم ساقته الظروف إلى سان لوي حيث قُتل.

(Les explorations du Senegal et contree voisins, XV).

(٢) ولد محمّدو، وثائق من التاريخ الموريتاني، ص ٩٧.

(3) Ould Cheikh, Eléments de l'histoire, 85.

أطماع محمد لحبيب. ومهما يكن من أمر، فإن ولد الليكات لم يكن ناجحاً في البداية بما فيه الكفاية، فقد فشل في بناء قوة أهلية حاضرة ولجأ إلى البراكنة وشنّ منها هجمات على الترازة واشتعلت بين الفريقين معركة «شلت» عام ١٨٤٧، التي انهزم فيها ولد الليكات وفرّ إلى آدرار عندما فشلت البراكنة في نصرته وتضرّرت من حملة تأديبية قام بها ضدها محمد لحبيب.

ولكن آدرار كان فرصة مهمة لولد الليكات؛ لأنه سمح له بحياسة تحالفاته بهدوء ومأمن، فنجح -والحال هذه- في تنظيم قوة واسعة مدعومة من قبل آل عيدة، أمراء آدرار المنيعين الذين حاربوا محمد الحبيب لسبع سنوات؛ واستطاع تأمين دعم جناح من العوائل الناقمة في الترازة كأهل الشرقي ولد هدي وأهل أكماتار وأهل التونسي، إضافة إلى أطراف محاربة كالرحاحلة ولعلب وعناصر آدرارية كأولاد بولحية. وكان هذا انشقاقاً كبيراً عُرف بـ«خنديشة». ولكن الأمير المنشق لم يستفد منه كثيراً؛ إذ تمّ اغتياله بينما كان في زيارة لتيرس على أيدي رجال من قبيلة لعلب من أنصار محمد لحبيب. ولا ريب أن هذا كان راحة لمحمد لحبيب، وإن لم يَنْه انشقاق «خنديشة»؛ ذلك أنّ سنوات القلاقل انعكست بشدة على هيبة الإمارة التروزية التي تعرّضت لهجمات عدة من إمارة إيدوعيش ومن إمارة آدرار وهاجمها ملك امبيلور، صمبا اديين، من ما وراء النهر وداهم مخيم الأمير في بوطرفاية في شمامة^(١).

وفي عام ١٨٥٠ سنحت فرصة مهمة لمحمد لحبيب بالانتقام من الأدراريين عندما انشقّ أحد أمرائهم، وهو المختار ولد عيّد الملقب بالنّانة، وآوى إلى محمد لحبيب في الترازة. ومعاً قاما بتنسيق الهجوم على آدرار، ودلّه الأمير اللاجئ على الحلة فهاجم بما قيل إنه وصل إلى ٣٧٠٠ مقاتل. غير أن انشقاق خندوشة استمرّ وفاقم الصراع بين الإماراتين ولم ينته إلا بوساطة من الشيخ سيديا الكبير في عام ١٨٥٤^(٢).



(1) Ancelle. Les explorations, 119.

(2) Poulet, 28-29.

وإذا وضعنا جانباً صراعات محمد لحبيب مع بقيّة الإمارات البيضانية، فإنه اشتهر أساساً بصراعه مع الفرنسيين، صراع استعرّ حتى قبل ابتداء انشقاق خندوشة وصار من أهمّ الحروب التي خاضتها الصحراء مع فرنسا قبل الاستعمار. كانت معطيات كثيرة قد تغيّرت على الجبهة الفرنسية السنغالية، وكانت السياسة الفرنسية قد تطوّرت من سياسات شركة تجارية إلى مشروع استعماري توسّعي، وسيعرّف هذا التحوّل لدى المؤرّخين المشتغلين بالمجال بـ«الاستعمار العقاري». فمع التحوّلات الأيديولوجية والإنتاجية في الغرب أوقفت فرنسا تجارة العبيد، بل وأصبحت تُناضل ضدها؛ وفي الوقت نفسه أرادت بسط سيادتها إلى النهر، الحيوي للتجارة وللأمن؛ وأرادت التحكّم في الأراضي الزراعية على الضفة. وعلاوة على تلقّيها شكاوى وتذمرات وطلبات الاحتماء من سكان الوالو الذين كانوا يتعرّضون دومًا لحملات الاستعباد من قبَل البيضان، فإنها أيضًا أرادت إرساء كيان سائد تابع لها. ولم يكن صدفة أن يبدأ المشروع بفكّ الارتباط بين الوالو والترازة، وترسيم حدود عرقية بين البيضان والسودان.

ومنذ الثلاثينيات ارتبط هذا المشروع بالحاكم بوجول ثم بلويس فيدرب (١٨١٣-١٨٨٩)، حاكم السنغال الشهير. وقد تبلورت لدى الأخير خطة للعمل على إنهاء دفع الفرنسيين للإكراميات والمحفّزات للبيضان وللأمراء السودانيين، المعروفة بـ«أمكُّبُل»، التي كانت ترقى إلى مقام الضرائب. وتزامن هذا مع عمله على فرض حرية التجارة في منطقة النهر بالأمن الفرنسي ومنع تجارة العبيد فيما وراء النهر وإلحاق الوالو والفوتا بالسنغال. وفوق كل هذا فإن التجارة البيضانية، وخصوصًا تجارة الصمغ، بدأت تأخذ في التراجع فيما زادت قيمة المنتوجات السودانية، وخاصةً الفول السوداني الذي كانت تنتجه الكايور بكثرة وكان الإقبال الفرنسي عليه مشهودًا^(١). وبطبيعة الحال، فقد هدّدت كلّ هذه العوامل قيمة الصحراء بالنسبة إلى فرنسا وجعلت أثمان التبادل التجاري التي كانت فرنسا تدفعها في السنوات السابقة تُصبح باهظة مقارنة باقتدارها على استردار الأرباح

(1) Yves-Jean Saint-Martin. Le Sénégal sous le second Empire. Paris: Karthala, 1989, 334;

Poulet, 29.

بكلّفة أقل. وهكذا كان محمد لحبيب يُحارب طاحونة التحولات الإنتاجية والسياسية ويُدافع عن القيمة الوجودية، أو على الأقل المعيشية، لإمارته. وكما أسلفنا فلعلّ أولى جذور الصراع الحديّ والحديّ بين الفرنسيين والترارزة قامت في عام ١٨٣٣ عندما تزوّج محمد لحبيب من ولية عهد الوالو، الأميرة ديوّمبة، وهو ما عارضه الفرنسيون؛ لأنه كان يعني وضع الوالو في وصاية البيضان. وأسفر الأمر عن هجمات فرنسية ومواجهات مع البيضان في الضفة اليمنى أُسِرَ فيها وقُتِلَ من الطرفين. ويبدو أن محمد لحبيب تضرّر من الهجمات الفرنسية فقبل اتفاق صداقة مع الفرنسيين في عام ١٨٣٥، وقّعه نيابة عنه أخوه، الليكا، أيام كان وفياً له. وتنصّ هذه الاتفاقية الموقّعة في سان لويس بتاريخ ٣٠ أغسطس عام ١٨٣٠ على أن يتخلّى محمد لحبيب عن أية مطالب له أو لأبنائه المحتملين من ديوّمبة في الوالو، وأن يكفّ التروزيون وأمراؤهم عن الهجوم على الوالو ويصّفّوا الخلافات التي تفاقمّت في المواجهات ويشرعوا في تبادل الأسرى وإعادة العمل باتفاقية الصمغ الموقّعة في عام ١٨٣٣، إضافة إلى استمرار العمل بالاتفاقيات والإكراميات المعمول بها في الاتفاقية مع اعمر ولد المختار في عام ١٨٢١^(١).

ورغم ضمان هذه الاتفاقيات لسلام مريح مدة سنوات، إلا أن الطرفين استأنفا المواجهات في عام ١٨٤٢ عندما تلقّى محمد لحبيب صرخة استنجد من الأميرة ساخيويّر بنت ماصامبا في صراعه الأُميري في كايور، الإمارة السودانية المتاخمة والمنافسة للوالو، وقامت قواته باجتياح كايور والسيطرة عليه. وكرّد مستعجل قام خصمها، أمير كايور، ميسّة تَنَدَ ور، باستصراخ الفرنسيين لنجدته رغم صراعه الكبير معهم. ورغم أن تحالفهما كان وجيزاً، إلا أنه وضع الفرنسيين في مواجهة البيضان قبل أن يكتشف أمير الكايور أن التحالف مع البيضان والتفاهم معهم أفضل له فانقلب لصالحهم. كانت ثمة عدة عوامل لزيادة أطماع محمد لحبيب في الكايور، ليس أقلها رغبته في السيطرة على احتكار بيع الصمغ، ولا امتعاضه من تحريم بيع العبيد في السنغال وتجاذباته مع الفرنسيين بسبب ذلك، ولم يكن أقلها

(1) Ministère des affaires étrangères. Recueils des traits de la France, vol 4, 1831-1842, 311-313.

مكاسب التوحيد مع الكايور ضد الفرنسيين^(١)، ولا أقلها أن محمد لحبيب، المطالب السابق بعرش الوالو بحكم زواجه مع أميرتها، أراد الضغط على الفرنسيين الذين حاربوه وأرادوا طرده من الوالو بأيّ ثمن. ولا ريب أن نكوص أمير الكايور إلى حلف التراززة قد قوّى من نفوذ أمير التراززة، فوسّع شبكة تحالفاته فيما وراء الوالو وجعله يستمرّ في التدخل في شؤون جولوف وكايور، وطبعًا، الوالو. ويبدو أن تحركات محمد لحبيب كانت ناجحة مؤقتًا؛ إذ قبلَ الفرنسيون إيقاف سياساتهم المُحرّرة لشمال السنغال من البيضان واعترفوا بنفوذ التراززة في المنطقة، وأفضى الأمر إلى توقيع اتفاقية بين التراززة وسان لويس أوكلَ فيها للأولى القيام بدور الشرطة في السنغال؛ ومقابل ذلك يحصل محمد لحبيب ووزيره، سيد المختار، على عوائد من الإدارة الفرنسية^(٢).

إلا أن الرغبات الفرنسية، التي كان غرضها الحقيقي الاستفادة من نفوذ البيضان في تأمين جولوف وكايور ووالو وتوظيفهم في إدارة النظام الفرنسي، سرعان ما خابت؛ إذ كان لهذا الاعتراف بنفوذ التراززة نتائج عكسية فهو لم يجعل التروزين إلا متحكّمين أكثر في السنغال الأعلى. وبطبيعة الحال، فإنهم لم يصبوا تمكّنهم في صالح الإدارة الفرنسية، بل ولم يتحوّلوا، كما أرادهم الفرنسيون، من قوة غازية إلى قوة أمن. وابتداءً من العام ١٨٥١ تصاعدت صرخات المزارعين السنغاليين المستنجدين بفرنسا من البيضان. وفي عام ١٨٥٥ قرّر فيدرب التحرك. يُسمّى هذا العام في تواريخ البيضان بـ «عام ميسّة فُدُو» أو عام السيد (الميسيو) فيدرب، المُميّز والمُسْتَذَكَّر باشتباكات البيضان مع فرنسا من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٦. ويبدو أن فيدرب كان عازمًا على الاستقلال بالوالو، ولكنه في المقابل كان مستعدًا لترك البيضان يأخذون الكايور وديامبور (جامبور) والجولوف. في المقابل، لم يحصر محمد لحبيب جهوده في المواجهات والاشتباكات مع الفرنسيين وقواتهم، بل حاول ضربهم اقتصاديًا فمنع التجارة معهم مطلقًا. وصحيح أن الفرنسيين كانوا يتضرّرون من منع التجارة،

(1) Barry, Senegambia and the Atlantic Slave Trade, 189-190.

(2) Marty, Trarzas, 109.

ولكن البيضان تضرّروا أكثر خصوصًا أنهم لم يكونوا يتزوّدون من المواد الضرورية كالقمح والشعير والقماش الغني، الذي كان نوعًا من النقود، إلا ما كان يُستقَدَّم من التجارة الفرنسية. وهكذا بدأ البيضان المُعارضون للإمارة في الترابزة، وخصوصًا البراكنة وأولاد دمان وأولاد الفاغي، بالتواصل التجاري مع الفرنسيين، غير مباينين كثيرًا بإملاءات أولاد أحمد بن دمان. وعندما حاول هؤلاء وحلفاؤهم صدّهم نشبت قلاقل أهلية جعلت محمد لحبيب غير قادر على مواجهة الفرنسيين^(١).

في هذه الأثناء حاول الشيخ سيديا (١٧٧٠-١٨٦٨)، الزعيم الروحي الكبير في الترابزة، توحيد الجهود البيضانية ضدّ الفرنسيين واستطاع بقوة دبلوماسية جمع ممثلي الترابزة والبراكنة وآدرار في مقرّه في تندوجة عام ١٨٥٥. إلّا أن هذه الجهود التوفيقية كانت رومانية، ولم تنجح لا في توحيد الضفة اليسرى ولا في وقف المجابهة مع فرنسا فيما وراءها. وهو ما جعل محمد لحبيب خالي الوفاض. وعلى أرض الواقع، وقّع الترابزة اتفاقية مع فيدرب بتاريخ ٢٠ مايو عام ١٨٥٨ تنازل فيها محمد لحبيب عن الحقوق البيضانية في الوالو واعترف فيها بالسيادة الفرنسية، وقبل بتحرير التجارة وإنهاء نظام المحطات التجارية وإلغاء الإكراميات واستبدل بها الحصول على نسبة من الأرباح لقاء حماية التجارة. ونتيجة لهذا، مُنع البيضان من تقلّد السلاح في السنغال. ولم يكن الترابزة، وهم يقبلون بهذا الاتفاق، إلّا مذعنين للأمر الواقع ولقوة تاريخية أكبر؛ وكان التمهيد للقبول بهذا التنازل قد تمّ عندما قبله أمير إيدوعيش القوي، بكار ولد اسويد أحمد، الذي حاول أيضًا في السابق دفع النفوذ الفرنسي، ثم وقّع الصلح مدفوعًا بإكراهات سياسية ونفوذية عدة، اتفاقية باكل (بكل) في عام ١٨٥٧^(٢).

وكانت تداعيات اتفاقية ١٨٥٨ كبيرة على إمارة الترابزة، فقد قلّلت من حقوق الأمراء الثانويين وركّزت العوائد في أيدي الأمير الواحد، إضافة إلى إغلاق

(1) Poulet, 29.

(2) - Yves-Jean Saint-Martin. Le Sénégal sous le second Empire. Paris: Karthala, 1989, 334; Poulet, 29;

السنغال في وجه الجماعات الغازية من الأمراء الصغار ورجالات الحرب. ومن الواضح أن هذا دمر تعددية الأقطاب وتعددية المكاسب التي كان يُتيحها النظام القديم. وفي عائلة محمد لحبيب اشتدت نقمة أولاد إخوته، المتضررين من مركزة سلطة الأمير، التي أتاحتها الأحداث. وهكذا في ١٥ سبتمبر عام ١٨٦١ قام ابن أخته، سيدي أحمد ولد أعلي حَمَلَش، الذي عارضه قبل فترة وكان من اللاجئين في آدرار، قام بتنسيق هجوم عليه مع ثمانية من إخوته. دخلوا عليه في حصنه ليلاً وقتلوه بالرصاص وفروا. وفي الصباح تابعهم أبناءه، أعلي وسيدي، وأفنؤهم التسعة^(١).



بعد الانتقام لمحمد لحبيب استفادت الترابزة من سلامها الأخير قبل الاستعمار؛ فقد تقلد الأمور ابنه سيدي، الذي باستثناء حربٍ مع البراكنة وأخرى مع الشرايت من إيدوعيش، قد نعم بسلام مستمر؛ وقد وصفه استعماري فرنسي بأنه «كان أميراً مسالماً وقد عمل بمساعدة إبراهيم اخليل، أمير أولاد أحمد بن دامن، على ضمان العافية في بلده ومعاقبة النهابين ومثيري الفوضى»^(٢). ولكن هذا لم ينقذه من مؤامرة في إمارته قام بها ضده إخوته بقيادة أحمد سالم ووزير سيدي، واخيارهم السباعي و«مساعد» سيدي بن إبراهيم اخليل وقتلوه في عام ١٨٧٢^(٣).

إن تاريخ الترابزة بعد هذا، لغاية السيطرة الفرنسية عليها، هو تاريخ الحرب الأهلية. فقد عمل أعلي، أخو القتيل، وابنه محمد فال، ضد أخيه، أحمد سالم، الذي أصبح أميراً، وتلقيا دعماً من إيدوعيش وتمكنا بهجوم خاطف بقوة صغيرة من طرد أحمد سالم وتقلد الإمارة لصالح أعلي. ورغم أن الأخير سيطر على الأمور ووقع اتفاقيات مع الفرنسيين، إلا أن مؤامرة أخرى بدأت تُحاك ضده.

(1) Poulet, 30;

المختار بن حامد. التاريخ السياسي، ص ١١٧-١١٨.

(2) Poulet, 30.

(٣) نفسه.

ومرة أخرى كان الوزير اخيارهم خلف المؤامرة، فنجح مع حليف الأمس محمد فال في قتل اعلي. وهو ما فتح المجال لاحقاً -وبعد صراعات عنيفة- لرجلين من كبار رجالات الترازة: الأسطورة أحمد ولد الدّيد وغريمه الأمير أحمد سالم الثاني. ولكن الترازة أصبحت مسرحاً واسعاً لصراعات الأطراف وطموحات أمراء الإمارات المجاورة. وسيبقى التشرذم السياسي سيد الموقف حتى قدوم الاستعمار الفرنسي.

البراكنة

«كان الأمير الأرجح عقلاً والأكثر تميُّزاً من بين جميع أمراء البيضان»
الكولونيل شمالتز عن أمير البراكنة، في عام ١٨١٩

إن قصة إمارة البراكنة هي قصة المجموعات البدوية المقاتلة الحرة التي تطوّرت إلى المجال التجاري وأسست به مملكتها. فقد قدمت القوى الحسانية المغفرية من ساحل الصحراء في الشمال إلى غربها في القرن الخامس عشر وبدأت تتشكّل في كتلٍ صغيرة محاربة ثم بدأت تتمايز اجتماعياً وسياسياً، ولفترة غطى توخّدها ضد السلطة السياسية لأولاد رزك شرقاً والأنباط غرباً على تمايزها. ولكن هوياتها المتباينة، وأحياناً المتصارعة، كانت جليّة، وإن خاضت حروباً ضدّ أعداء مشتركين في أمكنة ممتدّة. وقد بدأ تشكّل المجموعة البركنية حثيثاً في القرن السادس عشر عندما عاشت النواة الأولى لأولاد عبد الله بن بركني، في أسرة من أولاده متكوّنة من ستة أبناء سيكونون لاحقاً نواة مجموعة أولاد عبد الله التي ستتنقسم إلى الأسرتين السياسيّتين الأساسيّتين في البراكنة: أولاد نغماش وأولاد السيد^(١). وفي القرن السادس عشر سيبرز من البنين الستة: امحمد، خلفاً لعبد الله، أما بقيّة الإخوة فكانوا زعماء مقاتلين غالباً، خصوصاً بكار^(٢). أما

(1) Paul Marty. Etudes sur l'I slam et les tribus maures: Les Brakna. Paris, Leroux, 1921, 20.

(2) نفسه، ص ٢١.

اعلي فقد حَقَّق سلطنة في كُوركل توارثها أبناؤه من بعده^(١).

وفي الاصطفاف الحاسم الذي وَحَّدَ المغفرة ضد أولاد رزك في عام ١٦٣٠ برز امحمد بن عبد اللي بن كروم بصفته قائداً وأميراً لكتلة ذات بأس وشدة، هي ما سيعرف لاحقاً بالبراكنة. وسرعان ما أنهت نواة هذه الكتلة مع حلفائها التروزيين ومن أولاد امبارك سلطة أولاد رزك وفككتها وطرَدَت جموعها إلى الجنوب الأقصى. وكانت الفترة اللاحقة لهذه الإزاحة فترة تراحم على السلطة بين الكيانات المقاتلة التي ملأت الفراغ السياسي. ويبدو أن امحمد وَطَّدَ زعامته السياسية في كتلته مشكلاً تياراً مستقلاً بذاته وموَّماً انتقال السلطة إلى ابنه نغماش.

السنوات اللاحقة لوفاة امحمد كانت سنوات احتقانٍ تجسَّدَ في حرب شربية بعد أن أدَّت عوامل عقائدية واقتصادية إلى بروز قوَّة جديدة في المنطقة، هي إمارة ناصر الدين. وتمازجاً كما وَحَّدَ خطر وجود إمارة غير دينية هي أولاد رزك من الرئاسيات الصغيرة في أرض الكُبلَة في إطار قوة عسكرية واحدة، فإن خطر إمارة ناصر الدين «الدينية» نجحَ أيضاً في توحيد هذه الرئاسيات بعد أن بدأت تتمايز في كيانات سلطوية متصارعة فيما بينها، كالصراع الذي سَعَرَ بين أولاد امبارك وبقية أولاد الزناكية من الترازة. في هذا التلاحم الجديد ظهرت قوة البراكنة متمثلة في زعامة نغماش وابن عمه بكار الغول بن اعلي بن عبد اللّٰي. وكما رأينا، فإن الخيالة الضاربة لهؤلاء أنهت خطر سلطة الزوايا في المنطقة. وقد توفي نغماش وبكار بعد سنوات من هذا الانتصار في عام ١٦٨١.

ويبدو أن قوة البراكنة ظلَّت قوة متنقلة في مجال المغفرة دون استقرار ثابت، ولعلّ مداخيلها كانت من تغريم المجموعات المستقرّة المتعدّدة؛ ولقد سمح لها هذا بالفعالية خارج نطاقها الافتراضي، وسمح لها بصياغة تحالفات واسعة. فقد زوَّج بكار (وفي رواية نغماش) ابنته، خُناثَة (خنائى، في النطق المغربي) بنت بكار (ت ١٧٣٠) إلى الملك المغربي مولاي إسماعيل. أما أبناؤه فقد حاكوا

(١) المختار ولد حامدن، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، بيروت: دار الغرب الإسلامي،

تحالفات واسعة وخصوصًا بين أولاد الزناكية المغفرين. ففي عهد هيبة ولد نغماش الذي خلف والده نغماش في عام ١٦٨١ ستهب خيالة البراكنة إلى تجال في آدرار، حيث دعموا إمارة يحيى بن عثمان في إقصاء إيديشلي، مؤسسين آخر الكيانات الأميرية المغفريّة. كان إيديشلي يمثلون سلطة صنهاجية بقيت فاعلة في النطاق وقد سبق للمغفرة بقيادة أولاد امبارك أن وجّهوا لها ضربة، ولكن موقعة تجال التي دارت في سهول أمتاليش في عام ١٦٨٩ كانت تأسيسية^(١).

ويبدو أن عدم الاستقرار وشساعة المجال الذي تحرّك فيه البراكنة الأوائل جعل سلطاتهم تتوزّع، فقد كان أبناء بكار الغول يشكلون إمارات أسرية صغيرة مستقلة وكانت لهم رئاسة عرفت بأولاد اعلي بن عبد الله. وقد ظلّت هذه السلطة، في غورغول ونواح من البراكنة، مختلفة عن بقية البراكنة ومحتفظة بشأنها السياسي، رغم انقسامات وحروب دامية، دامت حتى القرن العشرين^(٢).

وفي الترابزة بقي البركنيون يمارسون نوعًا من الوصاية وكانوا يفرضون مغرمًا سنويًا على التروزين الذين حافظوا على دفعه حتى في زمن الأمير هدي. غير أن تمكّن الأخيرين منذ عهد الأمير هدي أصبح حقيقة^(٣)، وإن لم تكن مرضية خصوصًا لابنه اعلي شنظورة الذي ظهر له أن حركية البراكنيين فيما بين الترابزة وآدرار والمغرم الرمزي الذي كانوا يفرضونه على الترابزة لم يكن فقط يتحدّى سيادة أولاد أحمد بن دامن فقط، بل كان علاوة على ذلك، إذلاليًا. وكا رأينا سابقًا فقد كان اعلي شنظورة يقوم بجهود تأسيسية لإمارة الترابزة واضطرّ إلى الدخول في حروب مع البراكنة في عهد الأمير الهيبة ولد نغماش الذين خلفه امحمد ولد الهيبة في عام ١٧٢٧^(٤).

وفي الأساس كان المجال البراكيني يمتدّ من منطقة آدرار شمالًا إلى ضفاف نهر السنغال جنوبًا ومن تكانت ولعصابة في الشرق إلى الترابزة في الغرب، وكانت

(1) Marty, Les Brakna, 23.

(2) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٠-١١١.

(3) Kane, Les Maures, 244; Le Brasseur, 91.

(4) في بول مارتي أن الهيبة توفي في عام ١٧٢٨، وعند المختار بن حامد أنه توفي في عام ١٧٢٧.

سلطاتهم في بدء أمرها تمتدُّ إلى أجزاء كبيرة مما سيُصبح لاحقاً مجالاً تروزيًا بعد شربيّة. بيدَ أن تعدد السلطات في المجتمع البدوي المحارب كان يُسهِّل اصطدام الوحدات القبلية المقاتلة وخصوصًا إذا تجاوزت. وكما أدّى انقشاع غبار المعركة مع أولاد رزك إلى اصطدام بين المغافرة وأولاد امبارك، فإن انقشاع غبار شربيّة أدّى إلى اصطدام بين المجموعتين العسكريّتين الباقيّتين، البراكنة والترارزة، الذين كانوا إلى حدّ الآن حلفاء ورفاق سلاح.

ولم يكن هذا الصّراع هادئًا، ولا مؤقتًا، ولم يخلُ من شيطنة؛ وفي القرن التاسع عشر سينقل مستكشف فرنسي لتاريخ البيضان وحاضرهم، هو لارتيج، أن اسم «البراكنة» كان يعني «الملاعين»، وأنه هو الاسم الذي كان التروزيون يطلقونه على البراكنيين في إطار عداوتهم معهم^(١). أما المصادر الإنجليزية المعاصرة للصراع فتشير إلى أن التروزيين أطلقوا على البراكنيين اسم «البيضان الشياطين» أو Les maures diables وهو اسم قريب من «الملاعين» الذي ذكره لارتيج^(٢). وفي البداية بدا أن البراكنيين سيحسمون الصراع وذلك عندما نجح تحالفهم مع كتيبة مغربية نزلت إلى الصّحراء بغرض السلب في قهر اعلي شنظورة وهزيمته في عام ١٧٢٢، وأدّت إلى تقهقر قواته إلى ماليكوري الجنوبية البعيدة. وفي المجال السنغالي استطاع البراكينيون حياكة تحالف مع كتيبة مغربية لها حضور قويّ في الفتوتا^(٣). إلّا أنّ الموازين تغيّرت بشكل ملاحظ فيما بعد هذا. وكان من حسن حظّ التروزيين في هذا المفرق التاريخي تمثّعهم بقيادة اعلي شنظورة الذي استطاع حياكة تحالفات مهمة نجح فيها الإتيان بوحدات مقاتلة من المغرب، وأنهى بها نفوذ البراكنة وأرسى سلطة الترارزة كقوة سيادية في الجنوب الغربي.

كانت قضية السيادة والكرامة متداخلة مع قضية المنافع الاقتصادية، ومن الواضح أن جزءًا من الصراع كان يتعلّق بالانتفاع من مصادر التجارة وفرض

(1) R. de Lartigue. Notices sur les Maures du Senegal et du Soudan. L'Afrique française: bulletin mensuel du Comité l'Afrique Française, Vol 7, by Comité du Maroc, Comité de l'Afrique française, 1897, Paris: Comité de l'Afrique Française, 47.

(2) Duke, 104-106.

(3) Kane, Les Maures, 245.

الضرائب عليها. فقد كان اعلي شنظورة مهتمًا بقضية العلاقات مع التجارة الأطلسية وتجارة العلك وكان يريد احتكارها. ولكن المنافسة البراكنية كانت باذرة؛ إذ كانوا حاضرين بشكل قوي في الفوتا في الفترة ما بين (١٧١٨ و١٧٢٣)، حيث احتفظوا معهم بوجود ٥٠٠ محارب براكني ومغربي فكانوا يتحكمون في الفوتا بشكل مطلق^(١). وفي لحظة حاسمة هاجمت عناصر اعلي شنظورة المقاتلين البراكنيين بألف خيال وألفين من المشاة في منطقة كايور في عام ١٧٢٣، عندما كانوا يجمعون العلك لبيعه إلى محطة التربة الحمراء Terrier Rouge وطردتهم إلى اركيز. ولقد أدى هذا الهجوم إلى إرساء سلطة التروزيين في المجال وأكسبهم اعترافًا من البراكنة^(٢).

وبطبيعة الصراعات بين القطبيين، التي أوقدتها تجاذبات العزة والنقمة وصراعات الحلفاء والمحميين، لم يدم السلام الذي تمخّض من هذه المواجهة؛ وتمّ استئناف الفصل الأخير من إبعاد البراكنة في آخر حياة الأميرين اللدوديين، الهيبة واعلي شنظورة. وقام الأخير بمطاردة مقاتلي البراكنة إلى بوغى، جنوب لبراكنة، وتوفي مباشرة بعد المعركة في عام ١٧٢٧، وفي العام الموالي لحق به زعيم البراكنة الجديد، امحمد بن الهيبة^(٣).



ورغم أن اعلي شنظورة قد أرسى سلطته بشكل ثابت، إلا أن البراكنيين ظلوا يحومون في المجال التروزي في عهد خليفة امحمد، ابنه أحمد ولد الهيبة (١٧٢٧-١٧٦١)^(٤). كما واصل مقاتلوه تمددّهم السلس في المجال المغفري إذ حارب في آدرار. ولكن أفعاله الأساسية كانت في تگانت في موقعة أكراري،

(١) نفسه.

(2) Marty, Les Brakna, 24-25.

James L. A. Webb. The Horse and slave Trade between the Western Sahara and Senegabia. Journal of African History, 34, 1993,232.

(٣) بول مارتي يسميه الهيبة:

Marty, Les Braknas, 24-25.

(٤) ربما كان أخاه أيضًا كما يوحي المختار بن حامد. انظر: التاريخ السياسي، ص ١٠٧.

وفي حصار احنيكات بغداد في عام ١٧٦٠^(١)، الذي يبدو أنه تورط فيه مُساهمًا في حصار إيدوعيش بعد أن يستقلّوا عن أولاد امبارك؛ لأنه كان مستفيدًا من الضرائب عليهم حسب رواية مؤرخ التكلور عباس توري^(٢). وربما كان توري يقصد الثلاثين أو الأربعين فرسًا (بحسب اختلاف الروايات) التي دفعها إيدوعيش مقابل فضّ حصارٍ لحنيكات^(٣). ومن الأرجح أن عامل الانتفاع كان حاضرًا، ولكن العصبية المغفريّة كانت دافعًا أيضًا، رغم صراعات المغفرين بينهم؛ لذا التحموا ضدّ إيدوعيش الصنهاجيين. وليس هذا فحسب، بل استفادوا من تحالف مع أولاد داوود، المنتمين للجيل الحساني الأول، ما قبل المغفري. وفي القرن التاسع عشر كانت صورة من الماضي حول تحالف البراكنة مع أسلاف أولاد علّوش، الذين كانوا في هذه الفترة حاضرين في الحوض، كانت ما تزال في الذاكرة وكان الناس يحكونها للمخبرين الفرنسيين^(٤).



بفعل هذا التجول العسكري استحقّت أمجاد الأمير أحمد ولد الهيبة وأعماله الملحمية العابرة للأقاليم تمجيد الفنانين والمغنين. وكان من بين هؤلاء الفنان الأسطوري، سدّوم ولد انجرتو، في قصيدته الملحمية الريتام. وعاد من احنيكات بغداد مصحوبًا بالحلل الموسيقية التي استُنسخت من فنانين أولاد امبارك. وعندما توطدت هذه التقاليد المدحية والتمجيدية في مجال البراكنة، فإن زوايا الإمارة، وهم متعلّمون وشعراء بالتكوين والهوية، استبطنوا تقاليد المدح، وإن بدأوا في توظيفها بشكل فولكلوري مختلف. فقد قام شاعر أولاد ديمان، محمد بن سعيد

(١) يفهم بول مارتي هذه السلسلة في إطار ما يعتبره سلطة مغفريّة موحدة تجمع أولاد امبارك وأولاد اغويزي وأولاد الناصر والبراكنة، إلى أن حصل استقلال البراكنة من قبل أحمد الهيبة.

Marty, Les Brakna, 25-26.

(٢) حسب رواية مؤرخ التكلور عباس توري كما أوردها بول مارتي.

Marty, Les Braknas, 26-27.

(٣) أربعون بحسب المختار ولد حامد، وثلاثون بحسب سيدبا باب. انظر فصل إيدوعيش.

(٤) لارتيج يتحدث عن حلف بركني وعلّوش.

R. de Lartigue, 42.

اليدالي (ت ١٧٥٢)^(١)، بنسج قصيدة غنائية، ذات نبرة موسيقية، في مدح الرسول ﷺ. وهو ما اعتبره أحمد مزاحمة له في سلطته الرمزية والثقافية، فاعترض لدى العالم الشمشي الذي أسكنه بأن المدح هو في خير البشر؛ ولكنه كان حذرًا وسياسيًا إذ أرفق هذا التبيان بمديحية حسانية للأمير، ما ردّ كبرياءه وجعله يقدم هدية للعالم الذي تحسّنت علاقته به^(٢). وبقدر ما يظهر هذا تفلّت الأغراض الموسيقية من أصلها الفني إلى مقامات لتحقيق الذات لدى المجتمعات العالمية، فإنه يُظهر أيضًا أن أمير البراكنة استطاع تأمين أمداح الزاويا والإيغاون، أمداح الفصيح والملحون، لصالح هبة بلاطه وسلطته. ولا نعرف كثيرًا عن الحياة اللاحقة لأحمد، ويبدو أن بقية عهده كانت هادئة. ورغم أنه كان أميرًا ضاربًا في مناطق شاسعة، إلا أن الفترة اللاحقة له كانت صامتة في تاريخ البراكنة باستثناء أن أخويه أو ابنيه، محمد وعلي، قد تتابعا على حكم الإمارة.



مع ظهور الأمير احميادة ولد اعلي بدا أن قصة البراكنة الأساسية، وهي استقلال المجموعات وانتهاجها نهجًا إنتاجيًا قتاليًا، قد بدأت تطرح مشكلة للإمارة. فقد تعمّق انقسام سلطوي ووظيفي ما بين أولاد نغماش وأولاد السيد، الفرعين الأساسيين في أولاد امحمد بن عبد الله. ففي الوقت الذي كان فيه أولاد نغماش، المعروفون أيضًا بأهل احميادة، يتمتّعون بالقيادة الرمزية، كان أولاد السيد يحققون استقلالًا عن التبعية السياسية للإمارة عندما ظهروا بصفتهم أسرة متفّذة يقودها أغريش بن سدوم في عام ١٧٤٤، الذي آوى إليه الكثير من الأتباع والأنصار وأصبح في مقام أمير بالنسبة إليهم بسبب الموارد التي كان يحصل عليها من تحكّمه في المنافذ التجارية الواقعة في مناطق انتجاعه ونفوذه.

(١) تطرّح هذه القصة، التي أوردها أحمد بن الأمين الشنقيطي، أحد المصادر الأساسية للتاريخ الموريتاني، إشكالًا؛ ذلك أن التواريخ الدارجة دأبت على تأريخ وفاة محمد بن سعيد الجبالي في عام ١٧٥٢، بينما لم تقم المعركة ضدّ إيدوعيش وحصار بغداد قبل عام ١٧٦٠. وهو ما يعني إما إعادة النظر في تاريخ وفاة اليدالي أو البحث عن مقصود بالقصة غير اليدالي، وإن كان ذلك الآخر غير متبادر للذهن.

(٢) الشنقيطي، الوسيط، ص ٢٢٦.

وسرعان ما وصل هذا الانقسام إلى ذروته عندما تنافس الأميران في القبيلة: أمير أولاد السيد، المختار بن أغريشي، مع أمير أولاد نغماش، احميادة^(١). ولم ينجح احميادة في أن يصبح قائداً أوحد لأولاد عبد الله وللبراكنة حتى بعد عقود من وفاة منافسه الرئيس المختار بن اغريشي. ففي داخل أسرته العريضة نجمت خلافات قوية. كما انفجرت خلافات بينه وبين طرف ثالث مستقل من البراكنة هم أولاد أحمد. ووصل الاحتقان إلى مداه عندما تحوّلت المواجهات الاعتبارية إلى احتراب دائم، وهاجم احميادة أولاد أحمد عند موقعة ثمارط حيث هزمهم؛ ولكنه أثار عداوة أولاد نغماش عندما قتلت عناصره صهرًا منهم لعائلة المختار بن نغماش. وهكذا تحالفت عناصر قوية من أولاد نغماش وأولاد أحمد ضد احميادة واستطاعوا قتله في عام ١٨١٥^(٢).



ورغم هذه الإطالة الحربية، فلم يكن أساس الاستقطاب داخل البراكنة، وخصوصاً بين أولاد السيد وأولاد نغماش، حروبياً بل ربما كان أساسه اقتصادياً. وربما كان له أساس جغرافي سياسي؛ ذلك أن المجال- الذي كانت تسيطر عليه مجموعات مختلفة ومستقلة اجتماعياً من أولاد أحمد والأيتام إضافة إلى الانقسام الكبير بين أولاد عبد الله في ثلاث مجموعات (أولاد امحمد بن عبد الله المنقسمين إلى أولاد السيد، وأولاد نغماش وأولاد اعلي بن عبد الله الذين أصبحوا رئاسية وحدهم)-، أصبح يشكل تمّددًا واسعاً من بحيرة اركيز إلى آفطوط ومن شمامة إلى الفوتا الشمالية. وبما أن هذه المساحة الكبيرة كانت تضمّ كثيراً من الثروات من الغابات العلكية في الفتاك والهيبار^(٣) إلى السباخ والممالح، فإن هذه المجموعات المتشكّلة من جماعات عصبية وتحالفات مصلحة أصبحت تنتجع بشكل مستقل باسطة نفوذها على اتجاهات معينة من أرض البراكنة. وهو ما

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٨.

(٢) نفسه، ص ١٠٧.

(3) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Ten?ella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 458.

ساهم خصوصًا في ترسيم الحدود والفوارق بين أولاد السيد وأولاد نغماش الذين بدأوا ينتجعون ما بين أكان وجيمي في أعلى مجال البراكنة، بينما كان أولاد السيد يستقرون في الجنوب قرب النهر حيث كانت تزدهر الفرص التجارية مع المحطات التجارية الفرنسية. وبفعل هذا سيطر أولاد السيد على شمال التورو وعلى ما يليهم من شمامة وتسيّدوا على مجتمعات «هليية» البولارية القاطنة بها. وبهذا حقّق أولاد السيد مشروع البراكنة القديم الذي طردهم منه اعلي شنظورة وهو بناء ازدهار تجاري متاخم للنهر، ولكن هذا لن يتحقّق إلا بعد نجاحهم في طرد أقربائهم من الأيتام وأولاد اعلي. أما أولاد نغماش فقد توجّهوا في هذه الفترة إلى الاقتصاد الضريبي والحماي وإلى الغزوات. وكان صعودهم إلى أكان عائداً أساساً إلى صراعات داخلية قوية⁽¹⁾.

هكذا وطّد أولاد السيد أنفسهم أمراء على المناطق المحاذية للنقاط التجارية جنوب النهر ونجحوا في التغلّب على الاحتكار التروزي بالاستفادة من خيارات التجارة مع الفرنسيين والإنجليز وخيارات حماية هذه التجارة، خاصة أن الفرنسيين عملوا على تعدّد المحطات والقناطر التجارية بما يصبّ في صالح تخفيض أسعار الصمغ والعبيد في حوض النهر كما تشير وثائق المدير العام لشركة السنغال الفرنسية، جان بابتيست ديران، ووثيقة الإنجليزي، جورج ديوك، حول حياة ومسيرة حاكم السنغال الإنجليزي، اللواء ريتشارد وورج، في منتصف القرن الثامن عشر. وبطبيعة الحال، صار أولاد السيد يقدّمون أنفسهم أمراء بفعل مكانتهم الصاعدة وتقدّمهم المادي والسلطوي على أولاد نغماش. وقد تقبّل الكثيرون وخصوصاً شركاءهم في المراكز الرأسمالية في الضفة وضعهم الأميري؛ فقد أشار مينرا غولبري، الرحالة في ثمانينيات القرن الثامن عشر، إلى محمد المختار أغريشي باعتباره «أميراً للبراكنة ولدرومانكو»، وهو ما يفهم منه أنه كان اندماجاً، أو تحالفاً، مع المجموعات التجارية من إيدوالحاج، الذين كان سكان الضفة يسمونهم «درومانكو»، والذين كانوا في هذه الفترة من أهمّ مستخلصي

(1) Marty, Les Brakna, 28-29; Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Ten?ella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 498.

الصمغ من الغابات في لبراكنة. وليست هذه هي أولى الإحالات إلى «إمارة» آل السيد المعتمدة على حماية التجارة بعناصرها المسلّحة؛ فقد ظلّ الفرنسيون، حسب ما يُخبرنا به غولبري، يدفعون إكراميات سنوية لأمير أولاد السيد لقاء حمايته تجارة الصمغ في شمال النهر وفي جنوبه إلى بودور، التي أصبحت تدخل في جملة مجال البراكنة وأقام بها الفرنسيون حصناً وغابةً من الصمغ وظلّوا يدفعون بها الإكراميات للمختار حتى عام ١٧٦٥، فأوقفوها لأنهم هجروا التجارة في بودور^(١).

خلف أمير أولاد السيد ابنه امحمد بن المختار بن أغريشي بعد وفاته في يوليو عام ١٧٦٦^(٢). ولم يكن غولبري وحده من رأى في ولد أغريشي أميراً، فعندما قدم هذا إلى بودور ضرب له الإنجليز خمس طلقات مدفعية ووقعوا معه اتفاقية في عام ١٧٦٧ حصل بموجبها على الإكراميات والمحفّزات^(٣). وقد وُقعت هذه الاتفاقية في ظل السيطرة الإنجليزية على حوض النهر، ولكن الفرنسيين، الحرونين، استطاعوا التسلل إلى منطقة الدويرة، المنطقة الموالية للبراكنة في بودور، التي بدأوا يفتكّرون في جعلها قرية تجارية. واستطاعوا إعادة التفاهم مع البراكنة تحت إمارة امحمد بن المختار، الذي عرفه غولبري بحمت مختار، ولم يميز بينه وبين أبيه.

في عام ١٧٧٢ اتفقّ الفرنسيون مع امحمد على بناء حصن في بودور وحماية تجارتهم فيها، رغم أنه لم يبدأ في استلام الإكراميات السنوية قبل أغسطس عام ١٧٧٥، بسبب انتظار اكتمال بناء حصن وقرية بودور كما نصّ التفاهم^(٤). وبعد السيطرة المطلقة للفرنسيين على المنطقة، وإزاحة الإنجليز في عام ١٧٨٣، وقّع

(1) Meinrad Xavier Golberry. Fragment d'un voyage en afrique, fait pendant les anness 1785, 1786, et 1787, dans les contrees occidentales de ce continent comprise entre le Cap Blanc de Barbarie, par 20 degres, 47 minutes, et le Cap de Palme, par 4 degres, 30 minutes, latitude boreale. Paris:Treuttel et Wurtz, 1802. Tom 1, 272.

(٢) المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٨.

(3) Marty, Les Brakna, 30.

(4) Golberry, Fragment d'un voyage, 272.

مدير الشركة السنغالية الفرنسية، جان بابتيست ديران، اتفاقية مع أمير أولاد السيد في العاشر من مايو عام ١٧٨٥ لتنظيم تجارة الصمغ، تَمَّت فيها الإشارة إليه على أنه «سلطان البراكنة». تظهر هذه الاتفاقية أهمية الأمير امحمد، ذلك بأنه أصبح يتلقّى أهمّ إكراميات فرنسية تدفع لأيّ أمير آخر في المنطقة. ورغم أنه كان يُشرف بخمس طلقات من المدفع احتفالاً بمقدمه، أي ما هو أقل بطلقتين من التشريف الذي كان يقام للأمير التروزي اعلي الكوري^(١)، إلا أنه كان يحصل على إكراميات أكثر منه، بعد أن وقّع الأخير اتفاقاً مع ديران بعد أسبوعين من الاتفاق مع امحمد بن المختار^(٢).

تنصُّ اتفاقية ديران هذه على أن امحمد بن المختار هو سيد بودور التي يضطلع بحمايتها وحماية سكانها من الأذى والإذلال والسلب. وبناءً على هذا ترسّم الاتفاقية بناءً قنطرة تجارية في بودور يتعهد الأمير بتشجيع تجارة الصمغ والعبود والعاج فيها، ويحرص على تخفيض الأسعار وضمان بيع كل المنتجات التجارية ويضمن مقاطعة الإنجليز وعدم التجارة معهم في ميناء هدّي التروزي. وفي المقابل نصّت الاتفاقية على إكراميات سنوية يحصل فيها الأمير على مئات العناصر من السلاح والقماش، القطني والشاشي والدلدي، إضافة إلى الحاجيات المنزلية والجمالية والغذائية كالسكاكين والمرايا والأمشاط والعاج والفضة والنحاس والمقصات والولاعات المعروفة عند البيضان آنذ بـ«التمس»، كما تدلّ الوثائق، والعاج وغيرها من الحاجيات، التي كان امتلاكها وتوزيعها مهماً لنفوذ الزعماء. وبعكس اتفاقية فرنسا مع التراززة، فلا يبدو أن أحداً من خارج أسرة امحمد المختار كان يحصل على الإكراميات الفرنسية باستثناء وزيره، محمد برحل، الذي مثله مثل إخوة الأمير وأخواته، سيدي اعلي فاطمة وأربع أخوات أخريات وابنته وزوجته، كان يحصل على إكراميات من القماش والسلاح

(١) نفسه، ٢٧٦.

(٢) كان أكثر ما حصل عليه شخص الأمير امحمد مقارنة بما حصل عليه شخص الأمير اعلي الكوري، حسب ما تدلّ عليه قوائم الإكراميات في الاتفاقيات الموقعة مع دوران، ولكن إذا كانت المقارنة على مستوى الأسر فإن ما حصلت عليه الأسرة التروزية وحلفاؤها بقي أكثر.

والزينة^(١). ولذا يبدو أن أمير البراكنة كان يتوقّر على إمكانيات تحقيق سلطة مركزية أكثر من معظم أمراء الضفة. وهو ما سمح له بتشريع وضعه الأميري في مواجهة مطالبات أولاد نغماش وتوطيد نفسه محتكرًا للموارد والعائدات وموزعًا وحيدًا لها، بما سمح له بضممان السيادة في منطقته من دون تهديد أمراء أقوياء فيها أو مستقلين عنه.

وبالطبع كانت أهمية اتفاقية ديران اعترافها بامحمد أميرًا^(٢). وكانت هذه إشارة لما غدا حقيقةً، وهو سيطرة أولاد السيد وإقصاؤهم لأولاد نغماش. ولم تكن هذه السيطرة فقط بسبب استباقيهم إلى المنافذ التجارية، وإنما كان أساسها العسكري قائمًا؛ فقد كانوا في هذه الفترة يمتلكون قوة من ألفي فرس كما تشير إلى ذلك المصادر الأوروبية^(٣)، وهو ما سمح ببسط سيطرتهم على المراكز التجارية التي كانت قبل هذه الفترة تقع، في شكلها الابتدائي، تحت سيطرة إيدابلهسن^(٤). ولقد جعلت هذه السيطرة على المجال التجاري أولاد السيد يرثون الصراع مع التراززة الذي قاده في السابق أولاد نغماش، الذين ابتعدوا الآن عن مزاحمة التراززة بفعل انتجاعهم في شمال البراكنة، الأبعد عن مناطق الاحتكاك. وتماّمًا كما لجأ التروزيون إلى التحالفات الإقليمية لحسم الصراع، فإن أولاد السيد أيضًا قاموا بالشيء نفسه. وفي هذا السياق تحرّروا من الإكراهات الضيقة فقاموا بالتحالف مع إيدوعيش، أعداء الأمس، ومع الدولة الألمانية البولارية في الجنوب.

وبفعل تزايد سيادة أولاد السيد وأرباحهم الكثيرة، وخصوصًا مع تضعُّع الإنجليز، حلفاء التراززة، وزيادة قيمة المحطات النهرية على حساب المحطات

(١) انظر نصّ الاتفاقية في:

Jean Baptiste Leonard Durand. Atlas Pour Servir du voyage au Senegal. Paris: Dentu imprimeur, 16-32.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٨.

(3) Webb. The Horse and Slave Trade, 232.

(4) Raymond M. Taylor, " Blood Money in the Nineteenth-Century Mauritania ". Journal of African History, 36(1995), p.425.

الأطلسية، زادت عداوتهم مع الترازرة. وكانت هذه العداوة في أساسها حرب أحقاد بين أميرين قويين: المختار أغريشي واعلي الكوري. وكانت حربًا طويلة لم يكن فقط سببها استمرار حرب المختار ولد اعمر التروزي ضد البركنيين ولا ضغائن ابنه اعلي الكوري على البراكنيين الذين تمّ اتهام زوجة الأمير المختار ولد اعمر منهم بقتله، بل وفاقمها صراع المصالح في الفوتا والوالو عندما بدأ اعلي الكوري مغامرة عسكرية كبيرة في الوالو والفوتا، وعندما أشعل باعة السلاح، بتشجيع وتورط من الفرنسيين والإنجليز، سباق التسلح منذ عام ١٧٧٦. وفي البداية حقق اعلي الكوري انتصارًا كبيرًا عندما اجتاحت البراكنة والفوتا، ولكن ثورة فوتية ألامية بدأت تعتمل ضده. وقد ركب المختار أغريشي موجتها وحقّق انتصارًا معنويًا كبيرًا في عام ١٧٨٤ عندما هاجم مخيمًا للترازرّة واستطاع اختطاف زوجة اعلي الكوري. وفي أكتوبر عام ١٧٨٦ حاك تحالفًا قويًا مع الألاميين الذين كانوا في فترة تشكّل بقيادة عبد القادر الألامامي، الذي قدّم دعمًا من ٤٠٠ مقاتل استطاع إنهاء قوة الترازرة وقتل اعلي الكوري^(١).

هذه القوة العسكرية هي ما جعل أولاد السيد ومحاربيهم يلعبون دورًا حاميًا على القبائل المستقرة في منطقتهم. فكانوا يتلقون الإتاوات من القمح والشعير من المجتمعات السودانية فيما وراء النهر^(٢). وفي لعصابة وحوض نهر السنغال في النصف الأول من القرن الثامن عشر بدأ البراكينيون عمومًا في فرض ضريبة العشر على المزارعين السود، وخصوصًا في الفوتا العليا وبين المجتمعات السودانية المزارعة. وقد عرفت هذه الضريبة في بلاد السودان باسم مودي حرمة أو باخ^(٣). وكانوا يفرضون الحماية على القبائل الزاوية كتابيت الذين كانوا يؤدّون إليهم مغرمًا، ويعطونهم نصيبًا من مداخيلهم، بما فيها نسب من الديات كما يفرض قانون الإجارة. وكانوا يُحصّلون عوائد من الحراطين المتمركزين قرب النهر ومن

(1) Kane, Les Maures, 251.

(٢) وكانت هذه الإتاوة تسمى مودي حرمة mudi horma أو ضريبة البيضان الذين كان يطلق عليهم «حرمة»، حيث كانت كل أسرة تعطي سنويًا مقدارًا من القمح أو الشعير للبيضان.

Kane, Les Maures, 242.

(3) Webb, Desert Frontier, 22.

القبائل الرعوية العابرة في مجالهم بحثًا عن الكلاء والمرعى^(١).

ولكن السلطة الجديدة تحوّلت إلى إمارة براغماتية متعالية على الإكراهات العصبية، فمثلاً يلاحظ أحد دارسيها وهو رايموند تايلور أن النظام السياسي في أولاد السيد لم يعد معتمداً على التفاصيل القرابية والعشائرية التقليدية وإنما على المصالح المتعلقة بالاستفادة من عوائد تجارة الصمغ، حيث أصبح في القبيلة زعماء عشائريون لكلّ منهم أتباعٌ مرتبطون بهم وتتكوّن مصالحهم في البقاء قريباً من المنافع التجارية وفي إقصاء منافسيهم منها^(٢). وربما عادت هذه البراغماتية، التي حبّذت المصالح المشتركة على العلاقات القرابية، إلى تحوّل الإمارة من اقتصاد رعوي إلى اقتصاد تجاري واعتمادها على التجارة العابرة للنهر. وربما كان هذا التحوّل هو جوهر عملية انتقال ثقل الإمارة إلى أولاد السيد بدلاً من أولاد نغماش. وربما بفضل هذا بدأ الأولون يتخلّون شيئاً فشيئاً عن اقتصاد الحرب الأرستقراطي التقليدي المعتمد على الغزوات والنهب واستعاضوا عنه بالاستفادة من ممارسة السيادة والحماية. فمع زيادة حجم المعاملات التجارية في حوض النهر سيتخلّون عن التمدّد الشاسع والانتجاع المتنقّل أبداً ويتركون جنبي العوائد من التحكم في الآبار والمسارح والإجارات والحمايات والمغارم على القبائل. بل وسيهجرون حتى الانخراط في التجارة المباشرة للعلك ويدعون جمع الصمغ للقبائل الأخرى التي وقعت في حمايتهم كالتواير وتانك وأرالين وأولاد عايد واكدالة^(٣). ولقد ساهم هذا الاكتفاء بالإكراميات الفرنسية بزيادة الارتباطات بما وراء النهر. وحتى تسعينيات القرن التاسع عشر ظلّ البراكنيون ينتجعون سنوياً ما بين ماتام وبودور ولا يصعدون إلى الشمال إلى الضفة اليمنى لنهر السنغال إلا في موسم الخريف، حسب معلومات مستكشف فرنسي للبراكنة في القرن التاسع عشر. وبعكس بقية القبائل التي كانت تنتجع في الضفة اليسرى وتصد في فترة الخريف من ١٥ يوليو إلى ١٥ أكتوبر إلى الضفة اليمنى، فإنهم عموماً لم يكونوا

(1) Raymond M. Taylor. "Blood Money in the Nineteenth-Century Mauritania", 425.

(٢) نفسه، ص ٤٢٥.

(٣) نفسه.

يصعدون إلا بعد انحسار المياه^(١). فقد أصبحوا هبة النهر وتجارته وأضحوا قادرين بفعل تحكّمهم في التجارة على تكوين ثروة قادرة على تغيير التوازنات. كما أنهم تدخّلوا مرارًا في الخلافات على السلطة في دولة الفوتا تورو في وسط السنغال.



عندما توفي محمد ولد المختار في عام ١٨٠٠ خلفه ابنه، سيدي اعلي الأول، الذي تابع توقيع الاتفاقيات مع الفرنسيين والإنجليز وزادوا فيها من إكرامياته. وقاد إمارة مستقرة حتى وفاته في عام ١٨١٨^(٢). وقد سمح له استقرار الأوضاع السياسية أن يلعب أدوارًا سياسية لصالح الأمن التجاري في المنطقة، فعمل وسيطًا إلى جانب الزعيم الفوتي أمادوساي في إقامة السلام مع الدولة الألمامية وفي إنهاء أعمال العنف بين الطرفين وتوقيع اتفاقية يوليو ١٨٠٦^(٣). ولعلّ فترته كانت فترة تحسّن في أداء المحطات التجارية النهرية التي يحميها، وخاصةً تصدير الصمغ إلى الفرنسيين.

بشكل عام، كان تسويق البراكنة للصمغ يمرّ عبر المحطتين التجاريتين: محطة «دية» أو L'escale du coq التي كانت معروفة أيضًا باسم «محطة البراكنة» وكانت تقع في الضفة اليسرى على بعد عشر كيلومترات من بودور وكان يقدم إليها التروزيون رغم أن الأخيرين من كان يشرف على مراقبتها ويسوّقون طبعًا فيها. أما المحطة الثانية فكانت التربة الحمراء L'escale du Terrier-Rouge التي كانت تقع في الضفة اليمنى على بعد خمسين كيلومترًا من بودور. إلى هذه المحطات كانت تُفد قبائل البراكنة المتاجرة كافة، ولم يكن الصمغ وحده مبلّغ تجارتها؛ بل كان تجارها يجلبون الأبقار والضأن والجلود المدبوغة والمنتجات النحاسية التي كان يُعدّها الصنّاع التقليديون، وكان التجار الصغار يقايضون هذه المنتجات بالقمح

(1) De Lartigue, 44, 46.

(2) Ould Cheikh, Elements de l'histoire, 96.

(3) Oumar Kane. La première hégémonie peule: le Fuuta Tooro de Koli Tenella à Almaami Abdul. Dakar: Karthala, 2004, 594.

والسكر البُنّي وقطع القماش الغينية وذلك في النواحي المحاذية للنهر إلى بودور^(١).



مع عهد الأمير الجديد، أحمدو الأول (١٨١٨)، الذي وصفه الكولونيل شمالتز Schmaltz بأنه «الأرجح عقلاً والأكثر تميّزاً من بين جميع أمراء البيضان»، محدّداً سرّ ثقته فيه بقوله: «إن الارتباط الوثيق الذي يوليه للأوروبيين [له] سيبقى مخلصاً دوماً طالما بقي يقيم اعتباراً للتجارة التي ينخرطون فيها معه، والتي هي المصدر الأساسي لمداخيله»^(٢)؛ مع عهد هذا الأمير سيظهر أن النفوذ الإقليمي ومتعلّقات السلطة وعوائدها التجارية أصبح مؤثراً في سير الإمارة. فابتداءً من العام اللاحق لوراثته السلطة بدأ أحمدو العمل على مركزة العوائد التجارية من الإكراميات في أيدي الأمير وخلفه، حتّى يمنع صناعة نفوذ في الأسرة الحاكمة ممّا قد يؤثّر في استقرار السلطة فيها. ويبدو أن استشرافه وخوفه من الصراعات العائلية والعشائرية كان أساس قيامه بإعادة توقيع الاتفاقيات مع الكولونيل الفرنسي شمالتز، التي أعادت تنظيم إسداء المُحفّزات التجارية. ولم يكن الأمير يتلقّى الإكراميات من المراكز التجارية فحسب، وإنّما كذلك من العبارات المائية التي كانت تنقل البضائع إلى حوض النهر. نعرفُ هذا من منظور زائر مهم إلى البراكنة في عشرينيات القرن التاسع عشر، هو رينيه كاييه الشهير^(٣). وكان في حاشية الأمير مترجمٌ سوداني أثار انتباه كاييه. وكان أحمدو نفسه يلوّك مفردات بالفرنسية تعبّر عن استئناسه باللغة، وكان يسأل القادمين من سان لويس عن أحوال شركائه هنالك وعن أوضاعهم^(٤)؛ إذ كانت علاقاته بأولئك في سان لويس مستديمة وكان يرسلُ إليها مبعوثين ومحتسبين لتحصيل الإكراميات التي يدفعونها له. ولم تكن وفرة أحمدو غير استفادة من لحظة تاريخية وتحولات اجتماعية بالغة

(1) De Lartigue, 46-48.

(2) George Hardy, La Mise en Valeur du Sénégal de 1817 à 1854, Paris: Emile Larose, 1921, 70.

(3) Caillié, 145.

(4) نفسه، ص ٦٥.

الأهمية في حوض نهر السنغال؛ فلقد ارتأت الإدارة الفرنسية أن ترفع من مركزها في حوض نهر السنغال من مقام تجاري إلى مقام استيطاني. ولم يكن رائد هذا التحول غير الكولونيل جوليان ديزيرى شمالتز نفسه، الذي ركّز النفوذ الفرنسي على المناطق الضفافيّة، بدلاً من أن يُبقيه متمركزاً على المحطات التجارية في سان لويس وغوري، مؤسساً ما سيُعرف لدى مؤرخي منطقة النهر بـ«الاستعمار الزراعي». وكانت الخطة هي إزاحة البيضان المتوغّلين في الضفة اليمنى، وتوقيع اتفاقيات معهم وتعويضهم عن سيطرتهم العسكرية بالإكراميات الماليّة (أمكُبل)، والاستفادة منهم، إذا أمكن الأمر، في الحماية الأمنيّة للسكان المزارعين، الذين يحتاجهم «الاستعمار الزراعي» في منطقة الوالو ودغانة وبودور وكايور. وبحكم النفوذ البراكيني في الضفة، الذي، بعكس النفوذ التروزي، لم يكن يستفيد بالحجم نفسه من الغرامات على السود؛ فإن الأمير أحمدو كان أقصر نفساً في مقاومة الفرنسيين فيما وراء النهر، رغم أنه هاجمهم في إطار تحالف مع الترازة وكايور وفوتا تورو في سبتمبر عام ١٨١٩. بيد أنه سرعان ما وجد مصلحة في توقيع الاتفاقية مع شمالتز، متنازلاً عن منطقة نفوذه في الضفة اليمنى، وتحديدًا في المنطقة الواقعة ما بين بودور وسالدي^(١).

وكما سيحدث في معظم اتفاقيات الإكراميات التي مركزت العائدات في يد الأمراء، فإن اتفاقيات أحمدو لم تضمن استقراراً سياسياً، وإنما أغضب احتكاره للمحفّزات الأوروبية صراعات دامية مع أولاد نغماش بقيادة أميرهم، المختار بين الشيخ بن احميade، وحلفائه من أقرباء أحمدو، أمثال امبوة ومحمد سيدي، في عام ١٨٢٩. واستطاعوا الحصول على دعم أمير إيدوعيش محمد ولد اسويد أحمد (والد الأمير بكار ولد اسويد أحمد)، والتقى الطرفان في معركة جكة التي عرفها

(1) Mamadou Diouf, Le gouverneur Schmaltz et les débuts de la colonisation agricole, in "Le Kajoor au XIXe siècle: pouvoir ceddo et conquete coloniale", 1990, pp. 123-128; Jore L. La vie diverse et volontaire du colonel Julien, Désiré Schmaltz, Officier des Forces Indo-Néerlandaises, puis de l'Armée Française, Commandant pour le Roi et Administrateur du Sénégal et Dépendances, Consul Général de France à Smyrne (Turquie), (1771-1827). In: Revue d'histoire des colonies, tome 40, n139, deuxième trimestre 1953. pp. 265-312.

الفرنسيون باسم **يوكة**. كانت موقعاً قفراً وسهلاً واسعاً خالياً من الأشجار، جرت فيه المناوشات مدة ثلاثة أيام استطاع فيها أحمدو تحقيق انتصارٍ مشيرٍ رغم قلةٍ مقاتليه: خسر أربعة وخمسين مقاتلاً بينما خسر منافسوه تسعين محارباً وهربوا إلى تكانت^(١).

وبعد ست سنوات كان يبدو أن العداوة بين الأطراف ما زالت نضرة، فمن ناحية كان أبكاك من إيدوعيش متورطين في الصراع في البراكنة في إطار بحثهم عن منفذٍ إلى النهر، وفي إطار طموحهم إلى المكاسب التجارية في منطقة المحطات الكبرى. فبقوا متحالفين مع أولاد نغماش والجناح المنشق من أولاد السيد إضافة إلى مقاتلين من أولاد عايد، القبيلة الحرطانية الحرة المقاتلة. وفي عام ١٨٣٥ التقت جموعهم مع قوات أحمدو، المتحالفة مع الشراتيت من إيدوعيش، في معركة دامية في **بجنكل** سقط فيها القتلى بالعشرات: قرابة ١٤٠ قتيلاً منهم مائة من أولاد عايد وأربعون من أولاد أحمد^(٢). ويبدو أيضاً أن أحمدو استطاع تحقيق انتصار آخر مهم على قوة متحالفة من إيدوعيش والدولة الألامية في فوتا بقيادة زعيمها بيرام^(٣).

لقد رسّمت هذه الحروب المشهد السياسي في البراكنة بشكلٍ يكاد يكون روتينياً: يحتكرُ أمير أولاد السيد الموارد الضريبية فتحدث انشقاقات داخلية في أولاد السيد أساسها تدمر الرؤساء والأعيان من إقصائهم من الإكراميات؛ وسرعان ما يدخل أولاد نغماش للعب على هذا الوتر، فيقومون بدعم المنشقين ويُحاربون الإمارة. وهكذا أصبح أمراء الأمس، يلعبون دور المعارضة «الانقسامية» منذ إقصاء أبناء احميادة من السيطرة السياسية؛ كما أن القبائل المرابطية والإمارات المحيطة بلبراكنة، ربما باستثناء أبكاك في إيدوعيش بتكانت، بدأت في التعامل مع أولاد السيد كأمرء البراكنة الفعليين. ومع ذلك فسيبقى لأولاد نغماش دور حيوي بلبراكنة؛ إذ سيلعبون نفس دور أولاد أحمد بن دامن

(1) Ancelle. Les Explorations, 170-171.

(٢) المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٨.

(3) Ancelle. Les Explorations, 172.

في الترازة، وهو العمل كجبهة معارضة قادرة على اختزان القلاقل السياسية وتفعيلها.

وبطبيعة الحال، فإن بعض صراعات البراكنة لم تكن فقط انعكاسًا لحروب الأجنحة بين الأمراء، رغم أن جزءًا من الصراع تعلّق بهذا، ولم تكن مجرد ثنائية بين أولاد السيد وأولاد نغماش وإنما كانت حتى بين الأطراف القوية في أولاد السيّد؛ وقد أضعفت من نفوذ الزعماء العشائريين المستقلين ومن نفوذ أولاد السيّد عمومًا. بل إنّ الأمر تعلّق، علاوةً على هذا، بصراع الزوايا والأطراف واستثمارها لصراعات الأمراء لتسهيل صعودها الاجتماعي وتحسين مواقفها. وقد بدأت القبائل العاملة في مجال جمع العلك في التحرّر من ربة الحماية التي يفرضها الأمراء منذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر. كما أن نفوذ هذه القبائل ازداد كثيرًا بفعل لجوء زعماء أولاد السيد إليهم طلبًا لدعمهم في الحروب ضدّ خصومهم، وأصبحت تغير ولائها السياسية بحثًا عن أفضل الحظوظ^(١). وعندما جاء رينه كاييه في أواخر العشرينيات لاحظ أن القبائل الزاوية كانت أكثر مالًا وثراءً من رهط الأمير. ومع هذا، فقد نجح الأخير في الحفاظ على إمارة ثابتة رغم المعارك مع أولاد نغماش وأبكاك ورغم بعض المناوشات الصغيرة مع أولاد أحمد شهدا رينه كاييه في أثناء إقامته في البراكنة^(٢). وبفعل انتصاراته في ردّ هجمات أعدائه -التي ربما كانت مكلفة سياسيًا إذ حرّرت كثيرًا من المجموعات- بقيت إمارته مستقرة قبل الثلاثينيات.

ورغم أنه كان الأمير الأقوى في البراكنة إلا أن القبيلة لم تكن تعيش كلها في مضاربه، بل كانت تتوزّع في مضارب متباعدة قسّمها الزائر الأوروبي إلى ثلاثة أقسام أو فرق (فرگان). أما أولاد نغماش فكانوا ينتجعون بعيدًا في عدوة البراكنة الشمالية. كانت المضارب التي يسكن فيها الأمير والتي تضمّ محيطه الأقرب، تتكوّن من مائة خيمة يسكنها حوالي ٥٠٠ شخص في وقت واحد، حسب ما

(1) Raymond M. Taylor. " Blood Monay," 426..

تظهر الوثائق الفرنسية ضغوط زعماء أولاد السيد من أجل الحصول على عوائد للدفع إلى حلفائهم وملحقهم لبقائهم معهم أيام الحرب الأهلية. انظر: وثيقة ANS 9-G؛

(2) Caillié, 186.

شاهدَه كاييه. والواقع أن الأمير كان موزَّعًا للثروة بدلًا من أن يكون محتفظًا بها: فعندما كان يحصل على الإكراميات الفرنسية الدورية كان العشرات يحتشدون مدّة أيام حول خيمته منتظرين تقسيمه للغنيمة^(١)، ما كان يضمن له صناعة التبعية وإن كان يمنع من ادّخار المال. ورغم أنه احتكر الثروة في شخصه، إلا أن «عرشه» لم يكن غير خيمة لا تختلف كثيرًا جدًّا عن خيام بقية المضارب، فكانت:

... عشرين قدمًا طولًا وعشرة أقدام عرضًا، معدّة، مثل بقية الخيام، من قماش من صوف الخراف، ومثبتة من كل طرف بثمانية حبال جلدية، وبعده أوتاد تقوم بتثبيتها ... [وهي مفروشة بـ] بساط منسوج محليًا من صوف الخراف، ويحيط بعموم الخيمة ... [أما الأمتعة] فموضوعة في أكياس جلدية مربعة في شكل حقائب يقع مفتاحها في أطراف الخيمة، وهي حقائب مغلقة لها غطاء مغلق بأقفال^(٢).

هنالك كان يجلس على سرير «يشبه أسرة الزوج. عبارة عن رفّ مفروش بالحصائر وترفعه الأوتاد والصلبان الخشبية ويعلو بمقدار قدم عن الأرض. والأرض يُغطّيها حصير مفروش أرضًا يؤثث بقية فراغ الخيمة»^(٣). وكما يليق بأمرير، فقد كان محاطًا كل الوقت بفرقة موسيقية من الإيغاون تغني أمجاده بالشعر الغنائي الذي كانت زوجاته وأولاده يحفظونه ويرددونه فيما بينهم^(٤).

للمفارقة لم تأت نهاية أحمدو الأول من الانشاقات التي تم تجاوزها سريعًا، وإنّما من البيت الذي حاول تقويته. ففي عام ١٨٤١ وصل العداء بين زوجتيه حدًّا قرّرت معه الزوجة، ليلى بنت الرسول، قتل زوجته الأخرى، الجارية التي كانت قد أنجبت له ولدًا هو سيدي اعلي. وهكذا قرّرت وضع السم لها في الطعام. ولكن، لسوء مخططها، طعم أحمدو من الطعام فلقى حتفه مباشرة^(٥).



(١) نفسه، ص ٨٧.

(٢) نفسه، ص ٩٢.

(٣) نفسه، ص ٩٣.

(٤) نفسه، ص ٩٤.

(5) Ould Cheikh, Elements de l'histoire, 67.

ما إن توفي أحمدو حتى ازدادت الطرفية التي ميّزت الوضع السياسي في الإمارة وزاد معها الدور الكبير للمحطات التجارية الفرنسية. وقد تمظهر كل هذا في الصراع على تركته السياسية، الذي أسفر عن أكبر حرب وراثية في البراكنة: صراع الرجلين القويين في أولاد السيد، المختار محمد ولد سيد محمد وابن عمه، محمد الراجل ولد المختار. دعم أولاد نغماش الأول، أما الثاني فكان دمية في يد رجل أولاد السيد القوي، بوبكر ولد حديش^(١)، الذي كان يحصل أيضًا على دعم السلطة الفرنسية في سان لويس. وبسبب أهمية المراكز التجارية، فإن دورها كان حاسمًا عندما نجحت عناصر الفرنسيين في النهاية في اختطاف المختار سيدي محمد وإبعاده إلى الغابون فأخرجته من التاريخ الموريتاني في عام ١٨٤٢^(٢).

وتمامًا كما قوّت صراعات الإمارات من سلطات الأطراف المُحاربة المستثمرة في هذه الصراعات، فإن حرب الوراثة البراكنية ساهمت في زيادة نفوذ المراكز التجارية الفرنسية وفاقمت السلطات المركزية لزعماء العشائر. ولعلّ أهمّ من استفاد من هذه الفترة كان أولاد أحمد الذين كوّنوا تحالفات مهمة مع الحراطين استطاعوا بها إزعاج التجارة مرارًا والهجوم بها على المحطات التجارية والقوافل^(٣). كما كانت هذه فرصة للمجموعات الغازية لتهاجم حلفاء الإمارة، خصوصًا إيجيجبة وتابيت الذين تعرضوا مرارًا لهجمات أولاد أحمد وعناصر الترازة من أولاد أحمد من دامن وأولاد دمان الذين نهبوا للجميع ألف بقرة وآلاف الأغنام والخيام والخيول والبنادق، كما دوّنت ذلك الوثائق الفرنسية^(٤). وكان لهذه الصراعات تداعياتها على مستوى استقطاب القوى الإقليمية إلى صراعات البراكنة. ولم يضمن انتصار محمد الراجل وأبي بكر ولد حديش سلامًا

(١) انظر تفاصيل هذا الصراع في: ٣٠

Raymond M. Taylor. Blood Maony, 4, فما بعدها.

(٢) المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

(4) Raymond M. Taylor. Blood 430.

طويلاً، إلا لمدة تسع سنوات دخل إثرها التروزيون على الخط^(١). وفي عام ١٨٥١ خُلِعَ محمد الراجل؛ ففتح هذا الباب لصراع ثانٍ كان قطباه الإقليميان الترارزة، التي دعمت محمد سيدي، والفرنسيين، الذين دعموا سيدي اعلي الثاني. ومرة أخرى استطاع الفرنسيون التواجد في تحالف قوي عندما دعم رجالات أولاد السيد وأولاد نغماش الأقوياء رجلهم، سيدي اعلي.

ولكن هذا التحالف، على قوته، لم يمحى امحمد سيدي، المُطالب بالأمانة، ويبدو أن الحرب بقيت سجالاً لفترة. وفي البداية انهزم سيدي اعلي في عام ١٨٥٥ في معركة اللويط التي كانت ذكرها ما زالت قائمة عندما مرّ بها المستكشف بوريل في عام ١٨٦٠^(٢). ولم تمل الكفة لصالحه إلا عندما انضمّ لحلفه أولاد أحمد، رغم أن غريمه بقي قوياً. وعندئذ قام الفرنسيون، الذين خاضوا مواجهة جدية مع البيضان المحاذيين للنهر في هذه الفترة وأنهوا سلطتهم فيما وراء النهر باتفاقيات مع إيدوعيش في عام ١٨٥٧ ثم مع الترارزة في عام ١٩٥٨، بتوقيع اتفاقية مع كل من الأميرين المتنازعين في اعتراف بثنائية السلطة في البراكنة.

في غمرة الصراعات البيضانية في الترارزة والبراكنة ودخول إيدوعيش فيها وتحول السياسة الفرنسية من سياسة متمركزة على النفاذ التجاري إلى سياسية توسعية، بدأ نفوذ البيضان في الأفول لصالح فرنسا. فقد كرّست هذه الحروب من مركزية السلطة الفرنسية في سان لويس ولم تنتهِ معركة لِي الأذرعة بينها وبين البيضان إلا باتفاقيات منفردة مع الإمارات المحاذية للنهر، الترارزة وإيدوعيش، وسرعان ما تبعتهما البراكنة. وقد سمح الدور الفرنسي لسلطة سان لويس باستردار تنازلات من البراكنة في الضفة اليسرى، فتمّ توقيع الاتفاقية في بودور مع لويس فيدرب في العاشر من يونيو عام ١٨٥٨. وقد عبّر أول بنودها عن رغبة فيدرب الشهيرة في تحجيم دور البيضان من الضفة اليمنى للنهر عن طريق إنهاء الإغارات على السودان وفرض فرنسا حامية لديمار وجولوف. وفي المقابل، كرّست

(1) Taylor. Blood Money in the Nineteenth-Century Mauritania, 428.

(2) J. Ancelle. Les explorations, 166.

الاتفاقية البراكنة كأقوى الإمارات المتاجرة في الصمغ، كما ألزمت فرنسا بشراء المحمول البراكيني منه إلى بودور وسالدي. وهكذا فرضت فرنسا، مقابل إكراميات القماش الغيني والمواد الغالية في الصحراء للأمير البراكيني، مشروع فيدرب القاضي ببلرلة التجارة، فمنعت الأمير من أي محاولة للتأثير في «اليد الخفية» في الأسعار وأخذت منه التعهد بعدم التدخل، ولو بالقول، ضد الأسعار. وفوق كل هذا منحت الاتفاقية لفرنسا الحق في التحطيط في أرض اليبضان^(١).

إن المشهد اللاحق لهذا هو تقريباً عينه في بقية الإمارات المحاذية للنهر، فقد أسفر حسم المشاكل الخارجية عن فسخ المجال للتصفيات الداخلية. نجح الأمير سيدي اعلي الثاني في إنهاء ثنائية الحكم في البراكنة عندما خدع الأمير الثاني، امحمد سيدي. فقد اعترف به أميراً وتنازل له عن السلطة حتى كسب ثقته، ثم انتهز فرصة الثقة فقام باغتياله، ووراثته عياله، وزوجته، كرمي، وعرشه. وبطبيعة الحال، فإن هذا التغير في التوازن أدى إلى صراعات داخلية جديدة كحال إمارة ترارزة في الفترة نفسها أيضاً. ولقد سمح تضعضع الإمارة بفرص جديدة للقوى الأميرية المحاذية للدخول في الصراع، ففيما انكمشت زبدة أولاد السيد خلف الأمير الجديد فإن أولاد نغماش والترارزة بقيادة، سيدي محمد ولد محمد لحبيب، وقفوا مع منافسه، أما بالنسبة إلى إيدوعيش فقد انقسم الشرايت وأبكاك بين دعم أولاد نغماش وأولاد السيد كالعادة. ولقد حدثت مواجهة دامية بين هذه الأطراف في «لمديبز» في عام ١٨٦٣، و«كيمي» في عام ١٨٧٣، و«الخلفي» في عام ١٨٧٣، إضافة إلى المعركة الحامية في «الخريفية» في عام ١٨٧٧ التي سقط فيها العشرات^(٢). ولكن سيدي اعلي بقي أميراً حتى وفاته في عام ١٨٩٣. وإذا كانت البراكنة في عهده قد ضعفت سياسياً، فإنها كانت قد أصبحت في أكثر أوضاعها الديمغرافية نضجاً: ١٢٠٠٠ ساكن، وقوة قتالية تصل إلى ١٢٠٠ من

(١) اتفاقية بودور مع البراكنة في:

British and Forgien State Papers, 1859-1860, vol 50, London, 1867,696-700.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠٩.

المشاة و١٥٠ من الخيالة^(١). ونجح في إبقاء الإمارة في عقبه، ابنه، أحمدو الثاني، الذي تصارع مع الاستعمار الفرنسي وطرده الفرنسيون بعد سيطرتهم التامة على البراكنة في عام ١٩٠٣.

(١) De Lartigue, 48.

سلطات أولاد امبارك

«إنهم حقًا خيالة مهرة. يمتطون الخيل بلا وجلٍ، سروجهم عالية من الأمام ومن الخلف وتُعطيهم مركبًا آمنًا . . . ونادرًا ما يتضررون»

مونغو بارك عن أولاد امبارك^(١)

في عام ١٧٩٥ وصل إلى بلدة فونينغدي في مالي الحالية رحالة أسكتلندي جريء وحدث السنّ يدعى مونغو بارك. كانت البلدة محاذية لبلدات جارا وسمبيغ، وكانتا مسكونتين من قبل البامبارا المنمّين والمزارعين الذين كانوا تحت رحمة البيضان المجاورين لهم. وفي أثناء إقامته في فونينغدي شاهد هذا الرحالة خمسة فرسان من البيضان يمسكون بغدّارات صغيرة:

عندما اقتربوا من الآبار القريبة من المدينة قام البيضان بانتقاء خمسة عشر من أحسن القطعان ثم قاموا باستيقاظها بسرعة. وفي أثناء هذه العملية بقي سكان المدينة، الذين بلغوا خمسمائة، واقفين، متجمهرين قرب جدران المدينة، وعندما استاق البيضان القطعان من أمامهم لم يظهروا أي إشارة مقاومة رغم أنهم مرّوا على على مدى مرمى البنادق منهم^(٢).

وسرعان ما نجد جوابًا جزئيًا لكيف غلب هؤلاء الفرسان الخمسة خمسمائة

(١) مونغو بارك، ص ١٣٤.

(2) Mungo Park. Travels in the interior districts of Africa, London: Philadeliphia, 1799, 101.

شخص. فعلاوة على منعتهم واعتمادهم على انتقام قومهم، فإنهم كانوا متمرسين في الحرب. وعندما حاول أحد الرعاة التصدي لهم بقوس كانت عنده أطلق أحدهم النار عليه مباشرة فأصابه إصابة اضطرَّ معها لفقد رجله ثم حياته في المساء^(١). كان هؤلاء الأغراب عناصر من قوة تثير الرعب في المنطقة، وكانت غاراتهم حديث الأهلالي من البامبارا الذين كانوا لا يسافرون إلا ليلاً خوفاً منهم^(٢). ونعرف لاحقاً من الرحالة المستكشف أنهم كانوا يفرضون المكوس والضرائب على تلك القرى الزنجية وعلى مزارعيها ومنميتها الذين كانوا يُخفون قطعانهم خوفاً من أن يأمر أمير البيضان بسلبها^(٣). لم تكن أسطورية هؤلاء البيضان مجرد قصة في الجنوب، بل ستصبح أحد أعمدة الثقافة السردية عند البيضان إلى يومنا هذا. كان اسمهم أولاد امبارك، أما في أوروبا فقد عُرفوا باسم آخر، أشاعه -وإن لم يكن اخترعه- مونغو بارك. هذا الاسم هو «لودامر» المحرّف من «أولاد عمر»، الجناح الأميري الأبرز من أولاد امبارك في أواخر القرن الثامن عشر.

كان أولاد امبارك قبيلة منيعة من المغافرة. وقد نزلوا، أو تكوّنوا، في إطار التجمعات الحسانية التي توطدت في جنوب المغرب والصحراء الغربية وشمال مناطق تيريس ودرعة والتفاللت في أوائل العقود الأولى من القرنين السادس عشر والسابع عشر. غير أن تلاقح المجموعات الحسانية في الصحراء سرعان ما ولّد منافسات وصراعات وتحالفات انقسامية، وإن لم تكن نسبية حصراً، في أوساطها. ولقد بدأت مصالح «أولاد العربية»، الذين مثلهم أولاد امبارك، في الالتقاء مع «أولاد الزناكية»، ممن سيصبحون لاحقاً أولاد أحمد بن دامان وأولاد عبد الله وأولاد يحيى من عثمان وغيرهم، في وجه القوة الضاربة لأولاد رزك في الغرب. وفي البداية كان أولاد امبارك قوة منمّية من مُلّاك الإبل الذين كانوا يحومون في مساحات تيرس الواسعة التي سيطروا عليها في بداية القرن السادس

(١) نفسه، ص ١٠٢.

(٢) نفسه، ص ١٠٣.

(٣) نفسه، ص ١٥٦.

عشر بعد أن انتزعوها بسهولة من أولاد رزك^(١). ولكنهم دُفعوا إلى جنوب تيريس في القرن السادس عشر بعد أن ضايقتهُم النواة الأولى لقوى البراكنة والترارزة فهبطوا جنوبًا باتجاه آدرار^(٢). هنالك انقسموا قسمين: قسمٌ ذهب غربًا إلى أرض الغبلة ويضمُّ غالبية القبيلة، وقسمٌ ذهب إلى أرض الشرق هو أولاد محمد، وذلك في أواخر القرن السابع عشر^(٣). وقد بقي منهم قسمٌ من أولاد لغُويزي وغيرهم في تكانت وربما كانوا أوائل من سكن في وادي تجكجة، حيث حلَّ عليهم إيدوعلي، الذين سيُحيون منطقة تجكجة ونواحيها في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حسب رواية أوردتها مؤرخ من هؤلاء^(٤).

ولم يغادر أولاد امبارك آدرار دون أثر. ففي القرن السابع عشر قادوا تحالفًا ضد ماسنة، الذين كانوا متمكّنين في شنقيطي وتيشيت، فتمَّ انتهاز حادثة إيذاء امرأة من أولاد امبارك للقيام بهجوم على تحالف أماسنة وإيديشلي القوي في آدرار، ما أفضى إلى قلب سلطة إيديشلي، بعض أواخر القوى الصنهاجية من بقايا المرابطين، وأقيمت سلطة جديدة هي أولاد يحيى بن عثمان، حلفاء أولاد امبارك وأبناء عمومته^(٥). انكمش نفوذ أماسنة إلى تيشيت في تكانت، أما إيديشلي فلن يعودوا قوة آدرار الضاربة الوحيدة بعد تأسيس إمارة آدرار لاحقًا وظهور قواها العسكرية المتمثلة في أولاد عمّني وأولاد غيلان وأولاد أكشار. ولكن يبدو أن أولاد امبارك لم يستفيدوا من تورطهم في آدرار، خصوصًا عندما شاركوا في عموم هجوم سنّه المغافرة على إيديشلي في موقعة «تجالّة» في سبتمبر/أكتوبر عام ١٦٨٩. فلم يؤدّ هذا الهجوم نتيجة حاسمة عندما فضّل أولاد يحيى من عثمان،

(1) Paul Marty. L'Emirat des Trarzas. Collection de la revue du monde musulman. Paris: Editions Ernest Leroux, 1919, p. 23.

(٢) بول مارتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دار الكتب الوطنية ببنغازي، ليبيا، ٢٠٠١، ص ٢٥٤.

(3) Norris, The Arab Conquest, 69.

(٤) ولد الزين، كتاب النسب، مصدر سبق ذكره، ص ٢.

(5) Norris, The Arab Conquest, 154.

بقيادة شنان بن بوبة بن عمري، التخلي عن المغفرة والتحالف مع إيدشلي^(١).

قبل الانسحاب في آدرار بعقود كان جزء من أولاد امبارك قد هبط إلى الجنوب الغربي، في أرض الغبلة، متفرعين عن أقربائهم القرييين، أولاد باحمد، الذين مالوا إلى جنوب الغرب الشرقي، إلى الحوض، حيث بدأوا في الاحتكاك مع قوى المكان، أولاد داوود^(٢). في أرض الغبلة تمت صياغة التحالف بين أولاد الزناكية من البراكنة والترارزة، وأصبح أولاد امبارك أبرز الجماعات المحاربة الوافدة على المجال الساحلي القبلي، الذي كان يحكمه أساسًا أولاد رزك. وسرعان ما أسفرت المنافسة مع الآخرين عن توحيد المغفرة، فأنهوا سلطة أولاد رزك في معركة «انتيتام»، التي حضرها قائد أولاد امبارك، المقاتل، أوديكة الأقرع، في عام ١٦٢٩. كان أولاد رزك يعتبرون أنفسهم أنبل من بقية القبائل، وكانوا منتظمين في إطار توزيع عسكري حصيف، ولكن هزيمتهم من قبل تحالف أوديكة الأقرع وصحبه كانت قاسية؛ إذ طردهم إلى الجنوب حيث انكمش مجال سيادتهم كثيرًا واندمج كثير منهم في سكان الوالو، وباستثناء نواة صغيرة من نبلائهم المتنفيين فإنهم لم يظهروا كثيرًا في التوازنات السياسية في المنطقة بعد اندحارهم وبعد «شربة»، إلا كملحقين في قبيلة مسيطرة في جنوب الترارزة، أولاد دمان.

أما بالنسبة إلى المنتصرين فسرعان ما شبت خلافات بينهم على خلفية الأحقية بالمغانم وفرض المغارم. فقد بدأ زعيم أولاد أمبارك، أوديكة الأقرع، مباشرة في استدراج المكوس من المجموعات الزاوية في أرض الغبلة ومن التشمشين أساسًا، الذين قدم إليهم ورفض أن يمضي عليهم «العق» أو الإعفاء من المكوس الذي كان قد أقره أولاد رزك، وأمرهم بدفع المغرم تاركًا عندهم رمحه كدليل على استفراده بحق تغريمهم (وحمائهم)^(٣). في المقابل كانت استراتيجية أحمد بن دمان، الزعيم المؤسس لإمارة الترارزة، أكثر تسامحًا إزاءهم، لحين إزاحة

(١) بن حامد، حوادث السنين، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، انظر الهوامش، ص ٦٥.

(٢) بول مارتي، القبائل البيضانية، ص ٢٥٤.

(٣) اليدالي، شيم الزوايا، في: نصوص من التاريخ الموريتاني، ص ٨٢-٨٣.

أولاد امبارك. وقد سجّل مؤرخ القرن الثامن عشر، اليدالي، لحظات الصراع هذه بعد اندحار أولاد رزك ودوّن كيف كان أحمد بن دامان حذرًا في تعامله مع أوديكة الأقرع، وكيف قام، وهو يتربّص به، باتصالاته بتاشمشة ناصحًا لهم بالابتعاد عن أولاد امبارك إلى الساحل^(١).

في النهاية تفجّرت المواجهة بين الطرفين في الوقت الذي شرع فيه أوديكة بفرض المغارم على الزوايا، وبالتحديد عندما وصل إلى قبيلة إيديقب، التي فرع أهلها إلى الفقيه حبيب الله بن يعقوب. وفي انشغاله هذا بتحصيل الموارد كرّ «أولاد الزناكية»، وهو تحالف البراكنة والترارزة، على مضارب أوديكة، الذي اضطرّ للعودة مسرعًا لملاقاتهم في أغيرت (١٢ كيلومترًا من صنغرافة الواقعة ٣٠ كيلومترًا من مقطع لحجار). ولكن كرّته لم تكن إلا لتسرّع هزيمته وتؤدّي إلى مقتله على يد مقاتل في صف أولاد دمان، هو الأقيرع بن عفان.

قرّمت وقعة «أغيرت»، وإن لم تُنه كليلّة، من تواجد أولاد امبارك في أرض الغبلة، وكرمزٍ لأفول نجمهم فإن أرملة أوديكة، كرطوفة، لما علمت نبأ مصرعه تسلّقت شجرة الفليج، المعروفة في تقاليد البيضان بـ«تيشطايت»، في مضارب أولاد امبارك في انساغيار (كيلومترين من تلماس) وبدأت في النوح عند الشجرة التي ستعرف بـ«تيشطايت كرطوفة»^(٢). وهكذا حان موسم الهجرة إلى الشرق، واضطرّ أولاد امبارك للالتحاق ببقية القبيلة في تگانت والحوضين التي كان عناصر منها قد سبقوا هنالك، رغم أن مجموعة قوية ستبقى حاضرة في سياسات الترارزة وخصوصًا في إطار التوحّد ضد خطر إمارة الزوايا التي أنشأها ناصر الدين. وسيعمل مقاتلو أولاد امبارك على سحق الحركة العسكرية للزوايا في سهول تنيفظاظ في عام ١٦٧٤.



كان الحوض، شرق جنوب موريتانيا، في أواخر القرن السابع عشر، جزءًا من السافانا، المنطقة الخضراء الجنوبية، ولم يكن مستوطنًا من قبل البيضان،

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٨٥.

وخصوصًا الإبلين منهم؛ إذ كان يعتقد أن الإبل لا تعيش فيه لأجوائه الاستوائية؛ ولذلك تفاداه الجمّالون البيضان دومًا إلا من بعض الهاربين من الصراعات في تگانت. إلاّ أنّه، وإن لم يكن مسكنًا للبيضان، لم يكن مهملاً من قبلهم بل كان مسرحًا لهجماتهم من أجل نهب قطعان السونينكي وغزوهم، كما كان حديقة خلفية لتربية الخيول، النافعة جدًا في التجارة العابرة للصحراء^(١).

ولم يكن الحوض، على بُعده، مُحصّنًا من الأحقاد السياسية التي راكمها أولاد امبارك تجاه غرمائهم في الغرب. ولم يُنه التقهقر إلى الجنوب حروب أولاد العربية وأولاد الزناكية، فقد اقتتلوا في أفكّام في عام ١٦٧٢-١٦٧٣ في منطقة البراكنة كما اقتتلوا في الحوض. بل إن الهزيمة النهائية لشقّ أولاد امبارك بآدرار وطردهم منه من قبل أولاد يحيى بن عثمان لم تحدث قبل الوقت المتأخر في عام ١٦٩٤ في عهد الأمير حمو، الأب المؤسس لإمارة أولاد أحيي من عثمان^(٢). وستستمر صراعاتهم مع البراكنة حتى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، حيث اقتتلوا في معركة عرفت بـ«تاكسعيت» وأيضًا بـ«الكهكار» في عام ١٧٣٩^(٣)، وهو ما كان يحدث في إطار عداوة مستشرية بين الطرفين. فقد كان أولاد امبارك يستفيدون من حلفهم مع الأنباط الصنهاجيين، إيدوعيش، أيام كان هؤلاء تابعين لهم سياسيًا، وقد هاجموا معهم البراكنة في عام ١٧٤٠ واستاقوا الوفير من إبلهم وغنمهم، محقّقين مكاسب كبيرة جدًّا، حيث سيسمّى هذا العام «عام عكبة» أو عام الإبل الكثيرة^(٤). ويبدو أن العداوات ستستمر حتى بعد هذا بعقود، بل إن أميرًا مركزيًا من أولاد امبارك هو أمير أهل بوسيف بن أوديكة، سيدي أحمد بن اللبّ، قُتل على يد مجموعة من البراكنة، هي اليتامى في عام ١٧٧١^(٥).



(١) انظر مثلاً الشكل الاعتيادي لهذا السرد في أعمال جون هنسون، وإن لم يكن متخصصًا في تاريخ الصحراء، ولكن تصوّره يُلخّص هذه الانطباعات أعلاه:

John Hanson, Migration, Jihad, and Muslim Authority in West Africa, p. 51

(٢) بدير بونت، إمارة آدرار، ص ٣٣.

(٣) تاريخ ابن طوير الجنة، ص ٥٩.

(٤) نفسه، ص ٦٠.

(٥) بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٣٨.

كان أولاد امبارك في هجرتهم للحوض ينقسمون إلى عدة أفخاذ، هي: أولاد اغويزي وامبارك ولعبيدات وأولاد عمر ولديكة. وكانت لكل مجموعة من هؤلاء زعامتها المركزية، المستقلة عن بقية القبيلة، ولعلّ سبب ذلك كان نضوج السلطات القبلية لدى أولاد امبارك قبل قدومهم للحوض، وهو ما أنتج وضعاً سلطوياً يختلف عن بقية الإمارات، ذات الوضع الأكثر مركزية. ولهذه الأسباب فنحن نميل إلى تسمية نفوذ أولاد امبارك بالسلطات؛ لتعزّز مفهوم الإمارة ذات الزعيم الواحد في معظم تاريخ هذه السلطات. إلا أن هذا لا يعني أنّهم لم يعرفوا الزعيم الكاريزمي القوي. فبالنسبة إلى أهل محمد الزناكي يبدو أن زعامة مركزية بدأت تتوطّد فيهم حيناً مع بداية القرن السابع عشر، وخاصة لدى ظهور أوّل أمير منهم، هنون العبيدي بن محمد الزناكي، الذي استطاع توطيد نظام سلطوي واضح المعالم، على الأقل بالنسبة إلى الروايات الشفهية والانطباعات اللاحقة، ويبدو أن نفوذه وصل إلى بقية الأفخاذ. والأمر أصبح عن خلفه، هنّون ولد بوسيف، الذي لعلّ عهده شهد التطوّر الفعلي لسلطة أهل محمد الزناكي. ولعلّ قوته عادت أساساً إلى استطاعته تكوين تحالفات من خارج القبيلة تمكّن بها من توحيد البدو في إطار وحدة عسكرية.

وفي هذه الفترة، من النصف الثاني من القرن السابع عشر، أصبح أولاد امبارك قوة أساسية في الحوض وبدأوا يظهرّون على هامش الصراعات خارج الحوض على مسالك القوافل التي كان يسيطر عليها البرايش منذ القرن السادس عشر على الأقل، حسب إشارة فرناندس. ويبدو أنّهم صاروا يحمون البرايش أنفسهم. فعندما تحدّى مصطفى هير التاركي أو الطارقي (من الطوارق) البرايش، مدفوعاً بمشروعه العسكري الطموح لانتزاع تجارة القوافل منهم، تعرّض له أولاد امبارك والتقوه عند الحوض في أثناء رجوعه من حملته وألحقوا به هزيمة في عام ١٦٩٠-١٦٩١^(١). كما هزموا في الفترة نفسها محلة قوية هي كرامة ابن دهموش، التي كانت قوة حسانية من الجيل الأول على غرار أولاد رزك وأولاد رحمون،

(١) بن حامد، حوادث السنين، ص ٦٦.

والحقوها بهم فأصبحت تابعة لأهل اللب من أولاد اغويزي^(١). وقد وجدوا فرصة مهمة في تضعع السلطان المغربي في السودان، حيث سقطت تمبكتو، التي كانت المحلة المغربية تسيطر عليها، في أيدي الماندي القادمين من الجنوب فبدؤوا يملؤون الفراغ على الطريق القوافلي.

كان هذا هو السياق الذي ظهر فيه هتون ولد بوسيف، وقد استطاع تقوية تحالفاته بزيجات متعدّدة؛ فتزوَّج من امرأة صنهاجية من إيدوعيش، الذين كانوا يشكلون قوة مقاتلة وإن لم تكن مستقلة تمامًا في تلك الفترة، وكانت هذه المرأة هي عيشة بنت محمد خونة التي أنجب منها: عثمان وأحمد وبكار. كما تزوج العالّية التي أنجب منها أولاده الأشهر: بوسيف وحمّ وأمّ وسيدي أحمد. وتزوج امرأة أخرى هي ديدة من أولاد بوفاييد، الذين كانوا أيضًا قوة عسكرية مهابة، وكانوا بمثابة أمراء المنطقة، وأنجب منها ابنه اللب^(٢). ورغم أن هذه التحالفات كانت ترجمة لعلاقات قوى صاعدة، إلا أن تعدّد الزيجات هذا سرعان ما سيحوّل إلى تشكيل تحالفات بطنية قادرة على إعادة قصة هاويل وقايل من خلال ملحمة صراع الأبناء وتقاتلهم^(٣).



الشيء الآخر الذي ميّز فترة صعود هتون كان منافسة، وتفوّق، أولاد بوفاييد، سادة الحوض. وقد شعر هؤلاء بمنافسة أولاد امبارك الصاعدة فردّوا عليها بحزم؛ إذ قاموا بقتل اللب (أو ديد بالنسبة إلى المختار بن حامد) ابن هتون. وكانت هذه فرصة لأولاد امبارك للتخلص من خصومهم. ويحكي صالح بن عبد الوهاب في هذا الإطار قصة تقليدية من النخوة البدوية كسبب مباشر لهذه المعركة النهائية. فعندما قُتل اللب بدأت والدته في ندبه والنوح عليه، وقالت في هذا الإطار بيتين يُعدّان من أقدم الأبيات الحسانية المسجلة هما:

راهو لرماق أهزالي من تفكاد لفراح
اكيف ال ماج ولي وكتن ديدة ما راح

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٥٣، ٥٦.

(٢) صالح بن عبد الوهاب، كما هو محال إليه في نوريس، ص ٧٣.

(3) Le Chatelier, 59.

ولكي تُوَجَّح مشاعر العداوة، فإنها قامت بنحر بعير وتركته وباتت الناقة الأم تُطَلِّقُ نَغَاءً نَوْحِيًّا مؤلِّمًا، فاستطاعت بهذا جلد ضمائر رهط القتل، وتذكيرهم ببقطة حتى البهائم وألم الثكل بالنسبة إليها. وأثارت أبياتها حسرة في نفوس تجمعات أولاد امبارك؛ فانتفض هنون وقريبه، اعلي ولد المختار، وقاما بتعبئة حلفائهم في المنطقة: إيدوعيش يقودهم اعمر ولد محمد خونة، صهر هنون، وأولاد الناصر يقودهم بهدل ولد محمد ولد اشبيشاب، وأولاد عبد الكريم يقودهم بهدل بن حماد. وبالإضافة إلى هؤلاء فقد كان لهنون حلفاء من الزوج، فالتقوا مع أولاد بوفايده وحلفائهم من إيداس وأولاد منصور وجمان عند كساري في عام ١٧١٢. وحسب الآثار، فقد كان إيداس وحدهم يمتلكون ٦٠٠ حصان. ومن الواضح أن الزوج في الجنوب وجدوا مصلحة قوية في الانضمام لهذا التحالف ضد أولاد بوفايده. وتمكّنوا من ترجيح الكفة لصالح أولاد امبارك وأنهوا سلطان أولاد بوفايده نهائيًا^(١).

استبدلت معركة كساري السلطات الحمائية والجبائية القائمة ووضعتها في أيدي هنون وحلفائه. وفي عام ١٧٢٧ حقّق هنون ضربة مهمة عندما حظي بدعم السلطان المغربي، مولاي إسماعيل، الذي كان معاديًا للسونغاي وكان مفيدًا له أن يحالف أقوياء المنطقة المحاذية له، خصوصًا بعد أن عقد تحالفًا مهمًا مع أمراء الترارزة^(٢)، وصاهر البراكنة. وقد وجد السلطان الباحث عن النفوذ في الصحراء فرصة فيما سمّاه مؤرّخو المركزية المغربية بـ «تتويج» الأمير هنون ملكًا على الجنوب، وبالطبع لم يكن هذا «التتويج» غير رغبة سياسة لتأمين القوافل عن طريق التنسيق مع المجتمعات المقاتلة القادرة وحدها على حماية المسالك. وبطبيعة الحال، فقد احتفظ هنون ولاحقوه بالسلطة في باغنة دون ولاء كبير للسلطان المغربي، وإنما بسبب طموحات ومنافع محلية^(٣).



(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٥٩.

(٢) مارتني، ص ٢٥٥.

(3) Le Chatelier, 59.

إذن، مع زوال أرستقراطية أولاد بوفايذ البدوية نشأت سلطة معتمدة على قبيلة جديدة من الفرسان الأقوياء المتحالفين مع القبائل والمجموعات السودانية المقاتلة. وقد خلف هُنُون ابنه بوسيف، الذي كان ابناً للعالية، ابنة زعيم إيدوعيش. ولكن، بعكس معظم الرئاسيات والإمارات الحسانية، فإن السلطة عند آل هنون لم تكن دوماً وراثية للأبناء. فبعد وفاة بوسيف بقي ابنه راعياً لشأن العائلة ورئيساً لها، وخصوصاً أن إخوته الذين عرفوا بأولاد العالية بقوا ذراعاً سياسية مهمة، أما السلطة السياسية فقد انتقلت إلى الأعمام من أبناء عيشة وتحديدًا إلى عثمان بن هُنُون الذي توفي في عام ١٧٤٦^(١).



في الفترة التي أعقبت وفاة هُنُون العبيدي بدأ فرع آخر من أولاد امبارك في الصعود. فنلاحظ ظهور أهل اللَّبَّ بن بوسيف يتسَيِّدون في الجنوب، صائرين بذلك أول من توغل في بلاد السودان، كما تَوَكَّدُ المصادر. ونتيجة لهذا فإنهم غيَّروا نمط رعويتهم من بدوية الإبل، التي لا عمر ولا حياة لها في السافانا ولا قبل لها ببعوض التسي تسي الاستوائي، إلى بدوية البقر، وهو ما عناه نسبة القرن الثامن عشر، صالح بن عبد الوهاب، من أنَّهم «اتخذوا آسكر»^(٢). وفي الجنوب قام فرع آخر من القبيلة هو أهل بهدل بتحقيق توغُّلٍ شبيه، عندما بسط هنون ولد بهدل سلطته في باغنة (باخونو) ربما في ثلاثينيات القرن، وبالتأكيد قبل وفاته في عام ١٧٤٢^(٣). وفي عام ١٧٤٥، عندما عمَّت الاضطرابات في سيغو ونواحيها وقُتل زعيم سوداني هو ساغوني، فإن أولاد امبارك، متمثِّلين في أولاد مزوك، استفادوا من الفراغ السياسي ونزلوا في ضواحي باخونو في الوقت نفسه الذي سيطر فيه حلفاؤهم، أهل صنبارة من القُلبة المتداخلين مع البيضان، على شمالي المدينة. وقد استغلَّ سلطان من أولاد امبارك -عرفه لويس بينجر باسمه العائلي، هنون، وربما كان اممر بن هنون بن بهدل- هذا الحضور فقاد جماعته

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٥٦.

(٣) المختار بن حامد، ص ١٣٢.

إلى الحرب وأحكم سلطته على عموم باغنة وتم الاعتراف به حامياً عليها^(١).



في منتصف القرن الثامن عشر كانت سلطة أولاد امبارك منقسمة بشكل عام بين رئاسيات الشمال والجنوب. في الشمال كان أولاد هنون لعبيدي قوّة حاضرة في تكانت والحوض. أما في الجنوب فكان يوجد أولاد هنون ولد بهدل، المعروفون بالسلاطين، الذين حكموا في السودان الإفريقي. وبين هؤلاء كانت رئاسيات امباركية أخرى، عرفت بـ «فاتنة» و«فوتنة»، منتشرة في المكان الفسيح ما بين اركيبة في أعالي لعصابة إلى الحوض وشمال مالي. وستظهر فيهم رئاسيات أخرى في القرن التاسع عشر. وبشكل عام، كان عموم هؤلاء يمثلون سلطنة متشرذمة ذات أصل ونسب مشترك. وتمكّن نبلاؤهم من تعدي الاقتصاد التقليدي المعتمد على رعي المواشي وتربيتها والغزوات الخاطفة إلى اقتصاد مبني على المغارم والخفارة (حماية القوافل وتأمينها) من باغنة إلى تيندوف. ونتيجة لهذه المؤانسة مع القوافل نبت فيهم فئة متاجرة في القرن الثامن عشر، وظلت مزدهرة حتى القرن التاسع عشر رغم مضايقتها من قبل إيدوعيش ومشطوف. أما حملة السلاح والرئاسيات المتوغلة في الحوض فقد كانوا يفرضون المغارم على السكان المستقرين في المساحات العريضة التي كانت تقع في نفوذهم. وكانت القرى والمدن السودانية تدفع الضرائب لأسرهم الكبيرة. وبعكس معظم الإمارات، ربما باستثناء إمارة آدرار (وفقاً نسبياً)، فإن أولاد امبارك بسطوا نفوذهم على المدن والكصور كما كان حال مدينة جارة التي فضل أهلها الوقوع في حماية أولاد اعمر (بن هنون بن بهدل) بدلاً من الوقوع «مكشوفين لعداوتهم الضارية»، فكانوا «يظهرون لأسيادهم البيضان أشد الطاعة وأكملها، وكان [البيضان] يعاملونهم بأشدّ الازدراء والاحتقار»، حسب كلام مونغو بارك^(٢).

رغم أن أولاد امبارك كانوا يتعرّضون أحياناً لبعض الهزائم، كما حدث في

(1) Louis Gustave Binger, Du Niger au Golfe de Guinée par le pays de Kong et le Mossi 1887-1889, Tom 2, Paris: Librairie Hachette, 1892, p. 387

(2) Park, 111.

انكدي عام ١٧٤٦ عندما هزم أولاد الناصر أولاد ازناكي وبدأ أيدوعيش حربهم الاستقلالية في العام نفسه^(١)، ورغم أنهم لم يكونوا أغلبية سكانية في المنطقة إلا أن مهاراتهم القتالية جعلتهم أسياداً مهابين ومتفوقين. وكان بعض سرّ هذا التفوق يكمن في نفوذهم في الجنوب، مصدر الخيرات والتجارة. هنالك كانت قوتهم تنظيمية تأتي من مراقبة وضبط وتغريم تسليح القرى في حومتهم^(٢). إلا أن أهم مصادر أسطورتهم كان فروسيّتهم وخيّالتهم الضاربة السريعة، فقد قيل إن جيشهم في ستينيات القرن الثامن عشر بلغ ٧٥٠٠ خيال ومثلها من المشاة، وهي أكبر قوّة من الخيالة في تاريخ المنطقة^(٣). وانضاف إلى هذا توفّرهم على الأسراج العالية والثابتة. ولقد أدرك المقاتلون الإمبراكيون خاصية تفوّقهم كخيالة، فكانوا يؤلّون عناية فائقة بأفراسهم. وعلى العموم، فقد كانوا يطعمونها ثلاث مرات، وأحياناً أربع مرات، في اليوم؛ وفي المساء كانوا يقدّمون لها اللبن المحلّي^(٤). وكانوا يحرصون على عدم إنهاكها في غير طائل، بل ويرفضون السير بها إلى الآبار، مُرغمين العبيد على ورد الماء لها. وربما عادت هيبتهم إلى شكّهم للسلاح ومشيتهم به في الحومات والمضارب، وكان مقاتلوهم يتقلّدون دوماً سيوفاً كبيرة وبنادق مزدوجة الفوهة، وكان لكلّ منهم جراب جلدي أحمر صغير كأنه كنانة، يعلّقه على كتفه ويحفظ فيه الرصاص، بحيث يسمح للمقاتل بإطعام بندقيته بسرعة في أثناء الهجوم من على صهوة الجواد. وقد استطاعوا في أيام الحرب مع البامبارا تجهيز ١٠٠٠ خيال^(٥). وبفعل هذه السمات، وبالأخصّ بفعل صداها، صارت قوتهم أسطورية في المنطقة.

أمام هذه الخيل المجهّزة والسريعة كانت القرى الزنجية الرعوية أو الزراعية تفقد قدرتها على الممانعة. وهكذا في كل عام كان أشراف القرى التي تقع في مجال أولاد اعمر يقدّمون على أميرهم في أثناء انتجاعه في بيناؤون ليقدموا له

(١) بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٢٩.

(2) Park, 139.

(3) Webb. The Horse and slave Trade, 232-233.

(4) Park, 134.

(٥) نفسه، ص ١٥٦.

الضريبة الحولية من القماش الغني، عملة الصحراء، ويؤدّون له ضريبة القمح كما يعرضون عليه أسلحتهم ليراها ويوافق علىّ تقلّدِهم إياها^(١). ولم تسمح هذه السيطرة لهم فقط باستصدار المغارم، بل بالاستعباد فاستطاعوا توفير العبيد والجواري لزوجاتهم. وكان هؤلاء الجواري، بدورهم، مسؤولات عن ورد الماء في القراب وعن إعداد المؤن وطحن القمح وسَمَك الخيام وإناختها وحلب القطعان.. إلخ^(٢).



منذ مقدم بطون أولاد امبارك إلى الحوض والأنساب والتواريخ تشير إليهم باسم «أولاد امبارك»، حيث تظهر أقدم إحالة للصبغة في حوليات ولاتة في عام ١٧٣٦ في عهد هنون الأول. غير أن هذه هي الفترة نفسها التي شَبَّت فيها الصراعات بين مكُونات هذا الاسم. فاشتعل صراع على الحكم بين أولاد ازناكي وأُسرة هنون قُتل فيه أطراف مؤثرون، هم الأبيكم واعلي بيبة من أبناء ديجنان. وربما كان الأمر يتعلّق بمحاولة لانتزاع السلطة، التي نجح أهل محمد ازناكي في اكتسابها^(٣). ولكن الحكم بقي في أسرة هنون، الذي كان إخوته، حمو وميمو وبهدل، مقاتلين أقوياء، وخلفوا خلفاً مهماً.

استطاعت أسرة هنون المحافظة على الحكم في نواحي ولاتة، وعندما توفي هنون في عام ١٧٥٥ وخلفه ابنه، اعمر، فإنه استمرّ في الحكم حتى وفاته في عام ١٧٦٢. واستطاع توسيع نفوذ القبيلة في الحوض وهزيمة آخر القوى المارقة فيه، مجموعة «فاتة»، التي قُتل قائدها بوزكرارة^(٤). وبعده بقيت الأسرة مسيطرة رغم حرب وراثية استمرت سبع سنوات استطاع فيها ابنه، علي، هزيمة عمه، اعلي الشيخ، ونفيه إلى الجنوب، إلى سيغو حيث توفي بها^(٥).



(١) نفسه، ص ١٣٩.

(٢) نفسه، ص ١٥٤.

(٣) مارتني، ص ٢٥٦.

(4) Norriss, The Conquest, 74.

(٥) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ١٩٨.

إذن، كانت الانقسامات طابع ملك أولاد امبارك في المنطقة الشاسعة الممتدة من تگانت إلى باغنة، مرورًا بالحوض وأرجاء من لعصابة. وقد بدأت هذه الانقسامات تتطوّر إلى صراعات منذ عهد أولاد هنون العبيدي الذي شهد صراعًا مريّرًا بين الرئاسيات الامباركية في أهل محمد الزناكي وفونتي.

في داخل أولاد هنون ولد العبيدي اندلّع انقسام معلمي بين أولاد هنون الأول، وتحديدًا بين الأمراء من أولاد زوجتيه، العالية الصنهاجية وأختها عيشة. وكان أولاد العالية، الذين تولّوا الرئاسة في شخص شقيقهم، بوسيف ولد هنون، قد خسروا سدّة الحكم بعد وفاته في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وانتقلت الرئاسة إلى أبناء عيشة في شخص عثمان بن هنون، ثم أخيه بكار (ت ١٧٨١). ولكن أولاد العالية بقوا قوة متميزة في صلب الإمارة، بل ودخلوا في خلافات قوية مع أولاد عيشة. وسرعان ما تطوّر صراع الإخوة هذا إلى حرب مستعرة. فاقتتل الفريقان في وسّط في عام ١٨١٧ ثم في ولانة في عام ١٨١٨. واستمر تحاربهم عقودًا حتى انتهى في عام ١٨٥١ في معركة عرفت بـممد الله تحالفت فيها زعامات أولاد امبارك ضد أولاد العالية وقتلتهم و«تلاشى أمرهم»، حسب تعبير صالح بن عبد الوهاب ثم المختار بن حامد^(١).

وبطبيعة الحال، فقد كان لصراعات أولاد امبارك المستعرة أثرٌ سلبي في سلطاتهم، ولكنها كانت تُنتج أيضًا سلطاتٍ أخرى بديلة. وربما كانت الخلافات بين أولاد العالية وأولاد عيشة سببًا في ظهور عائلة امباركية أخرى، هي أولاد عم الإخوة القتلى، أولاد العالية. وسرعان ما أصبحت هذه العائلة رئاسية جديدة ومستقلة، وأخذت اسمًا مستقلًا هو فونتي وأصبحت متميزة كلية عن أهل هنون، بل وتحاربت معهم في عام ١٨١٧. واستمرت صراعات الأجنحة في الأسر المتشعبة ووصلت غالبًا إلى نهايات مأساوية. ففي أسرة السلاطين أو أبناء هنون بن بهدل طبعت الخلافات السلطنة المتوطدة ما بين السودان والحوض. فبعد وفاة هنون بن بهدل في عام ١٧٤٢ استعرت حرب أهلية بين خليفته وابنه اعمر ولد

(١) بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٢٩-١٣١؛ صالح بن عبد الوهاب، فتح

الوهاب، ص ٥٩.

هنون (ت ١٧٥٧) وبين منافسيه في الإمارة، أمثال اعلي بوزكرارة وفرع من أهل اللب ولد بوسيف من أولاد لغويزي. ودخل ابنه، الملك القوي، اعمر ولد اعلي، حرباً أهلية مدّتها سبع سنوات ضد عمه. ولعل الاقتتال في داخل مملكة أولاد اعمر هو ما قضى عليها في عام ١٨٤١، فقد قُتل الأمير اعلي ولد اعمر ولد اعلي ولد اعمر في عام ١٨٢٧ على يد أخيه شقيقه هنون. وقُتل هنون القاتل بعد عامين على يد شقيقه المختار، المعروف بخطري، الذي قضى بدوره في صراعٍ أهليٍّ كبير تورّط فيه رؤساء أولاد امبارك الآخرون. ويجب ألا ننسى أن هذه الصراعات هي التي انتفت فيها قوة أولاد اعمر وأولاد العالية من أبناء هنون ولد لعبيدي، الذين أسلفنا أنّهم انقضوا في معركة «مد الله» عام ١٨٥١^(١)، وهو التقاتل الذي جعل صالح بن عبد الوهاب يقارنه بحروب أبناء الخلفاء العباسيين فيما بينهم وبحروب الإخوة الأمراء من بني مرّين^(٢). وفي الوقت نفسه كانت صراعات دامية تضع رئاسة فاته في مواجهة لعبيدات، حيث اقتتلوا قتالاً دامياً في عهد زعيم فاته، سيدي أحمد بن المختار، في معركة عرفت بـ«تنكة ناكّة»^(٣)، واقتتلوا علاوة على هذا في وقعة إيولان التي قتل فيها زعيم العبيدات، أحمد درماز بن بكار، في بداية القرن التاسع عشر^(٤).



في الوقت نفسه عاش أبناء أوديكة، قتل موقعة أغيرت، لدى مقدمهم إلى الحوض صراعات أهلية تقاتل فيها الأعمام والأخوال مع الأبناء على الملك. ولا شك أن التحولات الإنتاجية لأولاد امبارك أثّرت في نمطهم الأميري ونمط صراعاتهم. فقد بنت هذه الرئاسة ملكها الرعوي على الانتجاع القار المعتمد على الأبقار، ما سيعرف بـ«أسكر»، ومن هنا كانت الأهمية الانتجاعية والمُلْكِيّة تعود لمياه السقي ومسارح البقر. وبفعل هذا تمّ التحول من جمالة ضاربة إلى

(١) بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٣٢-١٣٣ و ١٣٠-١٣١.

(٢) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٥٩.

(٣) بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٣٤.

(٤) نفسه، ص ١٤٠.

أرستقراطية بقرية. ويبدو أن هذا أثر في نوعية الصراعات في هذا الجناح، فكانت صراعاته داخلية بين الزعماء الكبار أكثر من كونها مصروفة إلى الخارج؛ ولذا كانت اغتيالات الزعماء أكثر حدوثاً في هذه الرئاسة، فقد قام أقرباء هنون الكوري بن اللب بقتله في معركة ١٧٣٦، وقُتل ابنه، بوبكر، في وقعة **جكم** ١٧٤٨. وفي عام ١٧٧٧ تصارع بوبكر بن سيدي أحمد بن محمد بن اللب مع أبناء أخيه، الأمير المقتول، سيدي أحمد، وهما هنون وأحمد بوشارب وقاما بالتآمر عليه واغتياله؛ ونُصّبَ هنون رئيساً. ولكن خال هذا غدر به وقتله. وفي السنوات اللاحقة استقرّ الحكم في يد بوسيف بن سيدي أحمد، الذي نجح في قتل أخويه الذين حاولوا إزاحته. واستمرت الصراعات والاغتيالات طابع التنافس بين الزعامات في هذا البطن.



استطاع أولاد امبارك، ولاحقوهم، تحويل صراعاتهم وقيم الشجاعة عندهم إلى أيديولوجيا وفن. وفي العشرينيات من القرن الثامن عشر كان هنون ولد بوسيف، الذي تسلّم رئاسة أهل الزناكي حتى وفاته عام ١٧٢٦، رمزاً للأبهة، واستفاد فنانه، الذين كانوا النواة الأولى لطبقة **الإيغاون** البيضان، من التراث الموسيقي لرعاياه في الجنوب؛ فطوّروا الغناء التمجيدي من مزيج من الملحنون الأندلسي والمغربي والموسيقى التمجيدية السودانية. وأصبح بلاطه البدوي يستقطبهم ليتغنّوا بأمجاده في نمط امتداحي غنائي يسمى **ب التهيدين**^(١). بلغت هذه الطبقة أوجها من خلال فنان موسيقي وشاعر عبقري ظهر في بلاطه هو سدّوم ولد انجرتو، الذي كانت مدائحُه إشارة عزّ للإمارة، ما جعل بقية الإمارات البيضانية ترغب في اقتناء الفنانين الامباركيين تحت أي ثمن. وهذا هو ما حدا بأمر إدوعيش في تگانت أن يستدعي سدّوم ويعطيه امتيازات كبيرة مقابل أن يلازمه^(٢). كما استفاد أمير البراكنة، أحمد ولد الهيبة، من تمجيد قدّمه له

(1) Norriss, The Conquest, 69.

(2) Poulet, 9.

سدّوم عندما تحالف مع أولاد امبارك ضد إيدوعيش. ولم ينسَ الأمير البراكني أن يستقدّم معه فنّانين يمجدونه على طريقة أولاد امبارك.

إلا أن فنّاني الأخيرين ظلّوا لفترة أصحاب السبق بقصائدهم وموسيقاهم الحماسية الشهيرة^(١)، وظلّت تمجيداتهم لزعماء أولاد امبارك مقدّمات موسيقية يُستأنس بها حتّى في مدح غيرهم، كما لو أنّها رسم غنائي ثابت. فاشتهرت الغنائيّات بعثمان بن بوسيف، الذي عرف بـ «فارس الحلة» وكان أميراً من أولاد بوسيف بن أحمد بن هنون وتوفي في عام ١٧٦١^(٢). واشتهرت مؤسّقة اسم هنون ولد بوسيف في الأغاني الحماسية والمدحية. كما خلّدت الأغاني اسم خطري ولد اممر ولد اعلي الذي اشتهر بـ «الكرصة». وما زال تمجيده هو وهنون من المطالع الطللية في أصناف الموسيقى البيضانية.



لعل أشهر أمير من أولاد امبارك، وخصوصاً خارج مجال البيضان المعاصر، كان اعلي ولد اممر (ت ١٧٩٨) الذي أشاع أخباره مونغو بارك، أسير أولاد امبارك الشهير. لم يكن اعلي مجرد وريث للسلطة، بل كان قائداً كاريزمياً وسيعرّف بـ «السلطان اعلي». أما مونغو بارك فقد وصفه بالملك. وكما أسلفنا فقد بدأ هذا القائد حكم «سلطنة» أهل بهدل في عام ١٧٥٧ بعد معركة طويلة مع عمه، اعلي الشيخ، الذي هُزم وانطرد إلى بلاد البامبارا^(٣). ولعلّ ما يميّزه هو أننا، بفعل توثيقات أسيره الأسكتلندي، نعرف الكثير عن حياته والحياة اليومية في عهده بصفة أعم. فأولاً كان يعيش في أبهة، فبعكس الأمير أحمدو الأول في البراكنة مثلاً. كانت قبة اعلي تميّز عن بقية خيام أمراء البيضان بأنها كبيرة جداً ومنسوجة من الصوف الأبيض، وكانت صالوناً مضاربياً: مركز اجتماع أعيان أولاد امبارك وموضع سمرهم ومجلسهم. وثانياً كان يميّز بطقّمه: دراعة من القماش القطني الأزرق كانت تُستقدّم له من تمبكتو، كما كانت تأتيه أخرى معدة

(١) Marty, Les Brakna, 27.

(٢) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٢٩.

(٣) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٦٤.

من النسيج القطني المستورد من المغرب. وربما كانت هذه الحُلل هدايا دائمة يخلعها عليه السلطان المغربي أو يؤديها له حلفاؤه أو محميوه^(١).

كان اعلي سلطاناً مهيباً وكانت له جوارٍ وصفهن مونغو بارك بالخليلات. وكنّ يبرُزن في مجلسه خصوصاً في أثناء غياب زوجته، الأميرة فاطمة^(٢). وكانت فاطمة أيضاً ذات حضورٍ متأمر، فعليها توقّف مصير مونغو بارك خصوصاً بعد تشعب النقاش بين الرجال حول مصيره، وتعدّدت خياراتهم هل يقتلونه أم يفقّون عينيه أم يحرّرونه. وقد حسم اعلي الأمر بأن قرّر أن تفتي زوجته فاطمة في شأنه. عندما رآها الأسير تركت انطباعاً حسناً لديه. حيث يصفها بأنها كانت:

امرأة من طينة عربية، بشعرها الأسود الطويل، ممتلئة بشكل ملحوظ، وقد بدت أولاً مندهشة من وجود مسيحي قربها: ولكن عندما سألت -عن طريق الولد الزنجي الذي كان يتكلّم المانديكية والعربية- عن عدة أسئلة أملاها عليها فضولها بخصوص بلاد المسيحيين؛ فإنها هدأت، وناولتني قدحاً من اللبن، وهو ما اعتبرت أنه فال حسن جيد^(٣).

وقامت بالاعتناء به والإحسان إليه. أما اعلي فكان مقاتلاً ماهراً وخيلاً مداوماً لركوب الخيل إلا إذا كان قاصداً الصلاة. وكان فرسه الأبيض، بذيله المُخضّب بالحناء، جواد المملكة^(٤). ولكن مركزه كان في خطرٍ بفعل الصراعات على السلطة؛ ولذلك لم يكن يشعر غالباً بالأمن، وكان يتخذ مخدعاً سرياً لينام فيه بعيداً عن احتمالات الاغتيال^(٥). وكان حذراً من أن يُسمّم، وقد تعلّق جزءٌ من يقظته الأمنية بفرضه رقابة دائمة على طعامه^(٦).



(1) Park, 155.

(٢) نفسه، ص ١٤٣.

(٣) نفسه، ص ١٦٧.

(٤) نفسه، ص ١٣٤.

(٥) نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

(٦) نفسه، ص ١٣٩.

بـعكس معظم الإمارات البيضانية كانت سلطة اعلي منصرفة إلى حكم السودان، وفي عهده وصل أولاد اعمر لعلو مجدهم حيث لاحظ مونغو بارك بأسهم وقهرهم للسونينكي والبولار والبابامبارا. ولم يكن استثمارهم في السودان مجرد حضور انتجاعي على نمط الحمائية البدوية التقليدية، التي كانت غالباً انتجاعية في الجنوب السوداني تقدّم إليه في الخريف وتأفل عنه حال انقضائه. بل على العكس من ذلك كانوا متوطّدين في هذا الجنوب، بحيث إن الجغرافيين الأوروبيين في هذه الفترة سيطلقون اسم «لودامر»، المُحرّفة من أولاد اعمر، على عموم المنطقة من شمال مالي إلى الجنوب الشرقي الموريتاني. ويبدو أن هذه التسمية ظلّت قائمة حتّى أواخر القرن التاسع عشر، وإن كانت أصبحت تعني شيئاً آخر على الأقلّ منذ عام ١٨٣٨ حيث ظهرت في موسوعة بيني الإنجليزية في إشارة إلى إحدى الممالك الفلّانية التي أصبحت تقع في مجال «لودامر» في هذه الفترة^(١).

وبعكس الممالك الرعوية لآل أوديكة وغيرها من جماعات آسكران، فإن سلطة أولاد اعمر كانت تنبع من العوائد التي يجبونها من خيرات ما وراء الحوض. وكان هذا يمرّ عبر نظام أمني وضريبي ورقابي قويّ. فكان الأمير اعلي وحده من يحقّ له منح حرية المرور في «لودامر». وأحياناً كان إذن العبور يتحوّل إلى بيرقراطية بطيئة، فقد اضطرّ مونغو بارك إلى إعطاء خمس قطع من القماش الغيني وانتظار أربعة عشر يوماً لاستصدار السماح له من اعلي بالمرور من قرية جارة إلى بابامبارا^(٢). كما أن الأمير كان يُمثّل سلطة قضائية فيجلس لتطبيق الأحكام والعقوبات على المجرمين^(٣). وكانت مداخله تأتي أساساً من الضرائب على المواد الأساسية التي كان يدفعها الزوج من الذرة أو القماش أو تبر الذهب. وهي ضرائب حرص على فرضها على كل أسرة في المجال. أما أتباعه من البيضان فكانوا يقدّمون ضريبة من القطعان جزاءً لانتفاعهم من المسارح الخصبة

(1) Penny Encyclopaedia of the Society for the Diffusion of Useful Knowledge, Vo., 10. London: Charles Knight, 1883, p. 384.

(2) Park, 113-114.

(٣) نفسه، ص ١٥٤-١٥٥.

ومن المياه التي تقع في مجاله . أو بدورها كانت التجارة العابرة تؤدّي ضريبةً غير محدّدة ولكن منتظمة^(١) .

ويبدو أن احتكاكًا حدث بين القوتين الأساسيتين في أواخر القرن الثامن عشر: البامبارا وأولاد امبارك، اللذين تنازعا النفوذ على بلدة سامباكا الفلانية في جنوب «لودامر» . وسرعان ما تحوّل التجاذب بينهما إلى صراع مسلّح، فقام أولاد امبارك بالهجوم على سامباكا مرتين . ورغم أنهم تكبّدوا خسائر في الهجوم، إلا أن الحرب انتهت لصالحهم عندما اضطرّ ملك البامبارا إلى التنازل لهم عن البلدة وعن بلداتٍ غيرها حتى غمبا، مقابل السلام^(٢) . ولا ريب أن سبب هذا كان تكلفة الحرب مع أولاد اعمر والاستنزاف المستديم الذي تمرّسوا في تسبّيه؛ إذ كانوا قادرين على شنّ حرب عصابات دون مجهود كبير منهم . وكان خطرهم الأساسي ينبع من قدرتهم على تحريك أعداء البامبارا من قبائل الجاور والكاكارو الذين كانوا يؤذون إمارة البامبارا وسُكانها وينجون من المتابعة عندما يلجأون إلى مجال أولاد امبارك^(٣) .

في مقابل هذه الحماية كانت القرى الزنجية المُسالمة تُقدّم الإذعان وتنظر إلى سلطة اعلي لحل المشاكل الأمنية والسياسية والقضائية . وعندما كان اعلي ينتجع في قرية بيناون كانت تقدم إليه فيها وفود المباعين؛ فيأتيه :

... الزنوج من بيناون كما جرت بذلك عادتهم كل عام، ويُظهرون له أسلحتهم ويؤدّون له ضريبتهم من القماش والقمح . كانوا مسلّحين بشكل سيئ؛ اثنان وعشرون مسدسًا وأربعون أو خمسون قوسًا وسهمًا؛ وتقريبًا العدد نفسه من الرجال والغلمان، لا يملكون غير الحراب . وقد اصطفوا أمام خيمته منتظرين أن يتمّ فحص أسلحتهم، وحلّ مشاكلهم^(٤) .

لم يبن اعلي مملكته فقط على القوة، بل بالمناورة والدهاء فقلب تحالفاته مع

(١) نفسه، ص ١٥٥-١٥٦ .

(٢) نفسه، ص ١١٦ .

(٣) نفسه، ص ١٠٦ .

(٤) نفسه، ص ١٣٩ .

الأمراء الزوج المتصارعين سعيًا لمصالحة. فعندما اشتعلت الحرب بين مانسونغ، ملك البامبارا، وأعدائه في كاراتا، المتحصنين في غدينغوما، وهي حرب أشعلوها بالتنسيق مع اعلي، فإن اعلي اختار اللحظة الحاسمة ورفض حسم المعركة لصالح ملك البامبارا ورفض الهجوم بخياله على غدينغوما مُفْشِلًا مخطط حليفه الذي هاجم فونينغديغي ردًا على خذلان أولاد امبارك له^(١). ولكن، في المقابل، لم يدعم اعلي رجل كاراتا القوي، دايزي، بل قام بإضعافه عندما دعم الجناح المتمرد عليه في كاراتا من محاربي الجاور والكاكارو الذين كانوا يقيمون في مجال سلطنة أولاد امبارك^(٢). وقضى اعلي بقية الأيام في مناورات انسحاب من أمام جيش البامبارا الذي زحف عليه فتراجع من أمامه مرتين في عام ١٧٩٥^(٣)، كما أن خياله لم تدعم متمردي جارا عندما هاجمتهم قوات دايزي وتركت الأخير يدخل المدينة في ١٨ يونيو عام ١٧٩٥ دون مقاومة تذكر^(٤). وتخمينًا أن هذه كانت استيراتيجة واعية لإضعاف القوى المحاربة في جوار «لودامر»، وضرب بعضها بالبعض الآخر لصالح أولاد امبارك.



كان منتصف القرن الثامن عشر بداية التضعف في الوحدة السياسية لسلطان أولاد امبارك، حيث بدأ أولاد الناصر وإيدوعيش، الذين كانوا ينضويان غالبًا تحت قيادتهم، في التمرد بقيادة محمد البكار ولد اعمر ولد موسى بالنسبة إلى أولاد الناصر، واعمر ولد امحمد خنة بالنسبة إلى إيدوعيش. كان أولاد الناصر قد بدأوا في هذه الفترة يمارسون عمليات الغزو بشكل مستقل، ولم يعد، لأحد إلا زعيمهم محمد البكار، سلطة عليهم. أما إيدوعيش فقد كانت تزدهر فيهم نزعة استقلالية، وخصوصًا في تكانت وشمال ولعصابة، ولم يعد خيار التحالف مع أولاد امبارك والتجند في ملاحمهم وغزواتهم مرغوبًا به لديهم. ولفترة استفاد

(١) نفسه، ص ١٠٨.

(٢) نفسه، ص ١١٠.

(٣) نفسه، ص ١٤٣-١٤٤.

(٤) نفسه، ص ١٦٧.

أولاد امبارك من عداوة الطرفين لبعضهما في محاولة لجمعهما عن الاستقلال، ولكن الأمر أفضى إلى فشل ذريع. فعندما استعانوا بإيدوعيش لتأديب أولاد الناصر، وهاجما قوات محمد البكار استطاع الأخير رد هجماتهم كافة، بل وفرض عليهم دفع تعويض مالي^(١). ويبدو أن هذا شجع إيدوعيش على فك الارتباط مع أولاد امبارك في عهد أميرهم اعمر ولد امحمد خنة ثم ابنه امحمد شين. ومرة أخرى فشل أولاد امبارك وحلفاؤهم من المغافرة في معارك طويلة في رد إيدوعيش إلى بيت الطاعة، رغم مُحاصرتهم لأشهر في تكانت في عام ١٧٦٠. ومع بداية ستينيات القرن الثامن عشر استقل هؤلاء الأخيريون بتكانت ونواح كبيرة من اركيبة وكيدماغا. ورغم أن أولاد امبارك بقوا متواجدين لفترة في شمال تكانت وخصوصًا من خلال العلاقات مع تيشيت^(٢)، إلا أن نفوذهم في وسط تكانت فقد أساسه.

وبطبيعة الحال، فقد مسّت نتائج التمرد على أولاد امبارك من اقتصادهم وتجارتهم بشكل واضح؛ فعندما استفرد إيدوعيش بنقاط الاحتكاك التجاري مع الفرنسيين من خلال موقع التجاري، بكّل (باكل)، فإنهم -بحكم الحرب مع أولاد امبارك- منعوهم حق التوافد إلى باكل، الذي كان مُخصّصًا للآدرارين والتكانتين فيبيعون فيه للفرنسيين وللسنغاليين منتوجاتهم من التمور والماشية ومتعلقاتها عبر مجال إيدوعيش. ولهذه الأسباب اضطرت قوافل أولاد امبارك إلى التوقف عند كينيوك Caignouk وبالتحديد عند مركز كانني Cagny التجاري. وفي السنوات الست التي أغلق فيها مركز كانني تعرّضت بيوعهم للصمغ لانتكاسة. وكما حاولت أوروبا العصر الحديث الالتفات على طريق الحرير الذي سيطر عليه المسلمون، فإن أولاد امبارك حاولوا الالتفات على طريق إيدوعيش باكتشاف طريق جديد يخلص إلى المراكز التجارية الإنجليزية ويمرّ عبر بلدات بوندو وخاصو السودانيّين، ولكن هذه المحاولة اصطدمت بالعوائق الجمركية وبخسارة

(1) De Lartigue, 53.

(2) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonnewes Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p. 219.

المواشي، خصوصًا أن هذه المواقع لم تكن تحت نفوذهم^(١).

وفي داخل قبيلة أولاد امبارك لعبت نفس مغريات الاستقلال والتمفصل السياسي دورها في تشرذم رئاسيات القبيلة التي ابتعدت كل منها عن الأخرى سياسيًا وجغرافيًا؛ وأصبحت كل رئاسة قبيلة بذاتها بحيث إن المستشرق هنري بارت سيعدّ أولاد مزوك وأولا لغويزي كقبيلتين منفصلين عن أولاد امبارك، الذين كانوا يعني بهم أولاد اعمر. وبالطريقة نفسها كان أولاد لغويزي يعيشون في القرن التاسع عشر في المنطقة الكبيرة الممتدة ما بين تگانت وباغنة وكانوا على عدااء مع بقية القبيلة والرئاسيات^(٢).

ومع ذلك، فإن هذه «الأفخاذ» أو البطون القبلية كانت تتحالف غالبًا وتتوحد ضد الأجنبي. فعندما استعرت حروب أولاد امبارك مع قبائل الشمال كإيدوعيش في تگانت ومشظوف في الحوض وتاكل المختار وغلاغوريمة (في الحوض أيضًا)، استطاع الأمير اعمر ولد عثمان قيادة تحالف واسع من أولاد امبارك في عام ١٨٤٠ واجه به إيدوعيش الأقوياء في تلك الفترة وهزم به أيضًا مشظوف. وعندما جمع بگار ولد اسويد أحمد جيشًا كبيرًا في منتصف القرن التاسع عشر وهاجم به في كاساكاري، تصدّى له أولاد امبارك وهزموه، وبقوا متحكّمين في فرض الجبايات على القوافل التجارية وفرضوا عليها التعامل مع تجارهم بدلًا من أي منافس تجاري آخر^(٣). واتحد أولاد امبارك أيضًا في حادثة أخرى، فعندما بدأ نفوذ أولاد اعمر يضعف في «باغنة» استعان أميرها اعلي ولد خطري ولد اعمر ولد اعلي بأمير فاة القوي، المختار الصغير، الذي وصفه المختار بن حامد بأنه «كان رئيسًا لفاة، بل لأولاد امبارك، وكان فارسًا من فرسان العرب ومن ساداتهم وحذاقهم»، ونجحًا معًا في تنظيم هجوم كبير على البمبارا والفُلان تمكّنوا فيه مما وصفه المؤرخ البيضاني بـ «فتح» مدينة جنكة في عام ١٨٤٩ بعد أن

(١) جان فرانسوا كاي حول سكان موريتانيا وسكان بلاد الزنوج المتاخمين لنهر السنغال، في: وثائق من التاريخ الموريتاني: نصوص فرنسية غير منشورة، ترجمة وتحقيق محمد بن محمد، ص ٧١-٩٩.

(2) Barthes, 3, 711-712.

(3) De Lartigue, p. 55.

قتلوا فيها «عدداً لا يُحصى»^(١). ولعلّ هذه الانتصارات هي ما حدا بالكثيرين في تلك الفترة، منتصف القرن التاسع عشر، أن يرى فيهم قوّةً واحدة ذات نفوذٍ ممتدّ. وقد وصفهم عليون صال، مُخبرُ الفرنسيين والعارفُ بأمور البيضان، في ستينيات القرن التاسع عشر بأنهم كانوا «الأقوى من بين أمراء البيضان»؛ إذ كانوا «يتلقّون المغارم من سيغو إلى توات»^(٢).



كان «فتح» جكنة والانتصار على جيوش الحوض في الأربعينيات آخر الأعمال الملحمية في تاريخ أولاد امبارك. فقد دخلوا في حرب أهلية استمرت ستة عشر عاماً استنزفتهم تماماً. وما إن خرجوا منها حتّى وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة عدوٍ جديد لم تنهكه الحروب بعدُ مثلهم، هم الفوتانكة التيجانيون بقيادة الحاج عمر الفوتي (ح. ١٧٩٧-١٨٦٤). بدأ الفوتانكة بالدخول على الخط التجاري الذي استطاع أولاد امبارك تأمينه في المعارك ضد قبائل الشرق. وأسفر هذا عن عداوات، خصوصاً عندما فرض الحاج عمر سيطرته على كاراتا في منتصف وأواخر خمسينيات القرن التاسع عشر ودمرها، وهي كانت في تبعية أولاد امبارك وتدفع لهم ضريبة «الحرمة»^(٣).

ومباشرة قرر أولاد امبارك دخول الحرب، رغم أن قدراتهم التعبوية قد ضعفت كثيراً. وتعرّض الأمير اعمر ولد عثمان للفوتانكة وهزم جيشهم الذي كان يقوده أخو الحاج عمر عند «باساتشة» في عام ١٨٥٩. ومن هنا قرّر الحاج عمر بنفسه حسم التنافس وقاد جيشاً كبيراً ووافاهم عند «باسخة»، حيث استمرت المعركة أياماً تّمت فيها هزيمة امبارك واندحروا إلى مانيوفا حيث بدأوا في تنظيم هجمات تقودها وحدات صغيرة متحالفة مع الصمبارة البولار. وبهذه الوحدات استطاع اعمر ولد عثمان بناء جيش وهزيمة الحاج عمر عند «سمبخة»، وأجبره على التقهقر إلى ديونغوة، ونجح في محاصرة الحاج عمر ووضعه في مقامٍ صعب لم

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ١٣٨.

(٢) Ancelle. Les explorations, 209.

(٣) نفسه.

يُسَعَف منه إلا بَمَدَدِ أخيه، ألفا عمر، الذي نجح معه في استعادة زمام المبادرة وهزما أولاد امبارك وطرداهم من الساحل. وفي هذه الظروف القاهرة توفي آخر الأمراء الكبار، اممر ولد عثمان، ما ساهم في تَشَرُّدِ أولاد امبارك بفعل تناوب الزعامات الضعيفة والوجيزة أمثال سيدي أحمد اعلي ولد المختار وأمات ولد اعلي ولد بهدل والمختار ولد سيد أحمد.

ثم وصلت الرياسة إلى بادي ولد المختار. وكان مدفوعاً بروح الانتقام واستعادة سلطة أولاد امبارك في باغنة وكينغي، وقد استغلّ ذهاب الحاج عمر إلى سيغو لمقاتلة أهلها فهاجم نيورو وقراها وقام بعمليات نهب واسعة بعد أن هزم قوات مصطفى الفوتي، الذي خلف الحاج عمر في المنطقة في غيابه. ويبدو أن قوات أولاد امبارك وقعت في خطأ غزوة أحد عندما انشغلت بالنهب تاركة الفرصة لمصطفى في جمع جيشه والالتحاق بهم عند آبار «ورقطة»، فألحق بهم هزيمة ساحقة وسلَبَ نساءهم وعاد بهن إلى نيورو. وقد أثارت هذه الخطوة غضباً عارماً من بقية أولاد امبارك الذين حشدوا كل من يحمل السلاح منهم حتى الشيوخ، وقرروا الكرّ على قوات التكرور بسرعة غير أن فقدانهم لعامل المفاجئة، بعد أن وصلت أنباء تحركاتهم إلى مصطفى، جعلته يتصدى لهم عند بئر تيني حيث ألحق بهم هزيمة ثانية. وعندها قرّر بادي وقف الحرب والشروع في التفاوض من أجل السلام. ولكنه ما إن قدم إلى مصطفى الفوتي حتى أوثقه الأخير وأرسله إلى الحاج عمر في سيغو، حيث تفاهم معه على السلام ولكنه عاد مكسوراً ومات في الطريق^(١).

رغم هذا، فإن قوة أولاد أمبارك لم تندثر كليّة، فحاول اعلي ولد بادي استعادة مراكز السلطنة ولكنه انهزم في كلتا المحاولتين في معركتي «كوريجيد» و«توروغومبي»^(٢). وكان هذا كافياً لإنهاء سلطنة أولاد امبارك في السودان الفرنسي وبدء تضعضعهم وتراجعهم إلى المجال البيضاني في عام ١٨٦٠. وبما أن ذلك المجال كان محجوزاً من قبل قبائل الحوض؛ فقد عاشت القبيلة فترة شبيهة

(1) De Lartigue, 51-52.

(2) نفسه، ص ٥٢.

بالشتات فاندثرت سلطتها الكبيرة وبقيت في مقام القبيلة العادية من القبائل في المجال. وتعاقت زعامات سريعة بعد بادي (أخوه هنون ولد المختار الذي تزعم القبيلة ومن بعد أولاده وأحفاده بدءًا من ابنه محمد الصغير ثم أبناء أولاده كإبراهيم ولد عثمان ولد هنون ثم عثمان ولد اعلي ولد هنون قبل أن يتزعم عم هؤلاء أخو بادي، اعلي ولد المختار).

ولم يعد أولاد امبارك إلى أرضهم في المجال السوداني إلا في عام ١٨٩١ عندما عادوا إلى كينغي وباغنة. ولكنهم عادوا في انقسام سياسي واضح، فقد بقي الطرف الذي قاده العم، اعلي ولد المختار، في كينغي، وظلّوا ينتجعون في فوتني (النوارة)، التي ستصبح معلمًا حضريًا لبيضان الجنوب الشرقي. أما جماعة باغنة فقد انضوت تحت قيادة عثمان ولد اعمر وكانت تنتجع في سهول منطقة متروك^(١). وفي عام ١٨٩٧ عندما بدأ لارتيج يُدوّن استعلامات لفرنسا عن البيضان كان أولاد امبارك يتجمعون جنوب الحوض وشمال كينغي، وعندما ينتهي الخريف والموسم الجاف فإنهم كانوا ينتقلون إلى نيورو وغومبو فيقيمون بها دهرًا^(٢).

بشكل عام كانت السنوات اللاحقة للعودة للسودان سنوات هادئة في حياة أولاد امبارك، حيث بدأت عناصر منهم في ممارسة تجارة العلك فيما انخرط بعضهم في تجارة القطعان والنقل بالبقر^(٣). أما الأغلبية فكانت تمارس رعي الإبل، وكانت على علاقة جيدة مع الفرنسيين والبابامبارا والسونينكي؛ ولذا وصفهم المستكشف الفرنسي بأنهم «أقل البيضان تعصبًا»^(٤). كانت صورتهم تختلف بحسب المصوّر، فمن منظر لارتيج يبدو أن قوتهم قد تقزمت وتناقصت أعدادهم فكانوا يتراوحون ما بين ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ شخص ولم يكونوا يوفّرون أكثر من ٦٠٠ من المشاة و٢٠٠ من الخيالة، وكانوا يتعرضون لغزوات متتابة من

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٤٥.

(٣) كانت تجارة النقل بالبشر شائعة لدى أولاد امبارك في أواخر القرن الثامن عشر بين تمبكتو وويليت.

Park, 140-141.

(4) De Lartigue, 53.

أولاد الناصر^(١). ولكن هذه الصورة تبدو مختلفة عن صوّر وأرقام معاصرة أخرى أوردت أن كثافتهم تراوحت ما بين ١٢٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ نسمة، وكانوا ما زالوا يحتفظون بسمعتهم كـ «أكبر ركاب الخيول جرأة وأمهر صائدي النعام في الصحراء الغربية»، حسب تعبير صحفي واستراتيجي وسياسي فرنسي راديكالي، هو لويس أنريك Louis Henrique، ولكنهم، ككلّ الإمارات البيضانية، فقدوا نفوذهم في المنطقة وأصبحوا تحت الحماية الفرنسية^(٢).

(١) نفسه.

(2) Louis Henrique, Les colonies francaises, Vol 5-6, p. 154.

إمارة آدرار

«امنح السلام لهؤلاء الناس واتركهم يعيشون في ظل قيادتك»

الطيب ولد بتاح (ح. ١٧٥٠)

«... ومن يرحل بحاجته/ إلى ابن عَيْدَة فمحتوم له الظفر»

عبد الله بن حبيب الله التامكلاوي، مادحًا أمير آدرار

في منتصف القرن التاسع عشر شبّهت برقية صحفية أوروبية آدرار بسويسرا، ونقلت بأنها إمارة قوية لرجل مثقف وعالم^(١). في تلك الفترة كانت إمارة آدرار المزدهرة تمتد من جنوب سهول تيريس إلى الخط الفاصل بين تگانت وآدرار إلى منتصف إنشيري، حيث «الحدود» العرفية مع إمارة الترازة. كانت إمارة آدرار آخر إمارة حسانية كبيرة تشكّلت في المجال الموريتاني، ولكنها ستستمر حتى تكون آخر الإمارات سقوطًا. وبطبيعة الحال، فإن التقاليد السردية الإدارية لا تقبل بهذا الظهور المتأخر. إذ -حسب تقاليد أولاد يحيى بن عثمان- قد تشكّلت الإمارة في إطار اتفاق أولاد العربية على تأسيس إمارات لهم في عموم الصحراء، وهو اللقاء المعروف بـ اجتماع أولاد العربية في مكان ما بين آدرار وتگانت ولبراكنة والترازة. إلا أن المعطيات التاريخية لا تحيل إلى إمارة إدارية متمخّضة عن هذا اللقاء. ولن تظهر الإمارة بشكل واضح قبل القرن الثامن عشر.

(1) The Journal of the Manchester Geographical Society, Manchester: ManchesterGeographical Society, 1886, vol., 2, p. 156.

يبدو أن أولاد يحيى بن عثمان بدأوا بداية متواضعة عندما نزلوا في آدرار في بداية القرن السابع عشر، واستقرّوا عند وادي سَكْلِيل والوادي الأبيض بين القبائل المزارعة والمتاجرة والغنية بالمسارح والواحات. ويبدو أنهم مكثوا من الوقت ما هو كافٍ ليتفرّغوا إلى ثلاث قبائل أساسية بعد النزول إلى آدرار: أولاد عمّني، حيث قيادة الإمارة، وأولاد أكشار وأولاد غيلان، قوتيتها الضاربة. ويبدو أن سياسات هؤلاء بدأت في التوسّع في وقت مبكر عندما بدأوا يضايقون أمير الترازة الكبير، اعلي شنظورة، الذي اعتبرهم أعداءه بصراحة وذلك في وثيقة مبرمة مع الفرنسيين بشأن تنظيم الإكراميات التي كان الفرنسيون يدفعونها للأمرء لقاء الأنشطة التجارية في الموانئ التروزية^(١). ويبدو أن هذا العداء ازدهر بفعل عناصر من أولاد غيلان، الآدراريين، بقيت في الترازة، مثيرة فيها صراعات؛ ولن يتقرّر ترحيلها بصفة نهائية إلى آدرار إلا بعد مواجهتها مع الترازة في يوم البطحاء الذي انهزموا فيه في عام ١٧٥٢^(٢). ومن هنالك سيصبحون ذراعاً أساسية في برعم الإمارة الإدارية التي بدأت تلتحم في هذه الفترة فيما ما هو أبعد من مجرد جماعات غازية وصائلة.

ويبدو أن السلطة المتشكّلة وجدت فرصة في تضعّض اتحاد أولاد بلّة الذي كان قوياً في آدرار، ولكن هزيمته من قبل إحدى المحلات المغربية التي ربما كانت إحدى مجموعات العروسيين فسّح المجال لصالح أولاد يحيى بن عثمان، ولن تنجح الرغبة المغربية أو العروسية في كسرهم^(٣). حسب المختار بن حامد، فقد تشكّلت إمارة في بيت أهل كيراف بن عمّني وتمّ فيها تداول الإمارة إلى أن وصلت إلى عبد الرحمن ولد حمو. غير أن الجامع الكبير للتاريخ الموريتاني الكبير لم يتوصّل بتفاصيل كافية عن هذه الإمارة^(٤). بينما لا يرى أهمّ متخصص أكاديمي في إمارة آدرار، هو بيير بونت، بداية معتبرة إلا في حمو، والد عبد الرحمن، الذي ذكره ولد حامد.

(١) بيير بونت، إمارة آدرار، ص ٢٨.

(٢) نفسه، ص ٢٩.

(٣) لشاتليير، ص ٥٩-٦٠.

(٤) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٤٦.

في القرن الثامن عشر كانت آدرار مسرحًا لقبيلة إيديشلي التي سلّمت من تدهور بعض القبائل اللمتونية في القرون السابقة، ولكن شقاقًا عنيفًا وقع بين أطرافها الذين انقسموا جغرافيًا إلى إيديشلي اظهر وإيديشلي الباطن ودخلوا حربًا أهلية دامية. وفي ظلّ هذا الانقسام وجد أولاد يحيى بن عثمان موطنًا قدم بين التوازنات السياسية. وقد رضوا بالتعامل مع إيديشلي بعد محاولات مغفرية لقهرهم كما حدث في موقعة آفكام (١٦٧٢-١٦٧٣)، التي فضّلوا بعدها عقد اتفاق معهم وإقصاء أقربائهم المغفرة. وقد تُوجّ هذا التحالف بزواج أمير أولاد يحيى بن عثمان، حمو، من امرأة من إيديشلي. ولكن إيديشلي أصبحوا يدفعون غفرًا في شكل شاة إلى حمو، وهو ما اعتبره بيير بونت إشارة حماية^(١). واستطاع أولاد يحيى بن عثمان إبعاد أولاد امبارك بعد هزيمة لهم في عام ١٦٩٤، كما صدّوا هجومًا لأولاد دليم، أولى القوى المتنفذة في الساحل إلى آدرار بعد سيطرة المغفرة^(٢). وهكذا أُعيد ترتيب القوة في آدرار لصالح القادمين الجدد، رغم أن إيديشلي بقوا سلطة قوية خصوصًا في باطن آدرار.



غير أنّ صراعًا على وراثة حمو سرعان ما شبّ في الفترة ما بين ١٧٣٢^(٣) و١٧٤٥-١٧٥٠^(٤)، وانقسمت فيه الأطراف في الإمارة الوليدة. فقد رفض عثمان ولد لفظيل، المنتمي إلى أسرة من الأسياد من أولاد عمّني هي أهل بوبة بن عمّني، تأمّر عبد الرحمن ولد حمو، ابن الأمير الراحل و«مؤسس» الإمارة. وبالإضافة إلى داعميه من الأطراف المحلية كالحيانة والطرش من أولاد غيلان، فإن عثمان ولد لفظيل حصل على دعم البراكنة، الذين كانوا أخواله، والذين كان لهم نفوذ في تلك الفترة في المجال الفسيح من حوض النهر إلى نواحي آدرار. وفي المقابل، تحلّق إيديشلي والطرشان وبقية أولاد غيلان، القوة الأساسية في

(١) بيير بونت، إمارة آدرار، ص ٣٢-٣١.

(٢) نفسه.

(٣) حسب المختار ولد حامد، ص ١٤٦.

(٤) هذه التواريخ مأخوذة من عبد الودود ولد الشيخ والمختار بن حامد وبيير بونت.

أولاد يحيى بن عثمان، حول عبد الرحمن. وقسمَ هذا الصراع عموم آدرار، خصوصًا عندما توسّعت تحالفات عثمان ولد لفظيل فاستطاع كسب الجناح القوي في أولاد غيلان، الطرش، وأقربائهم من أولاد بولحية؛ وحصل، بفضل تحالفه مع البراكنة، على دعم قوي خارج المجال كإيجيجبة فيما حافظ السماسيد على الحياد الودي. واحتدمت معارك كبيرة بين الطرفين في انزيدان وتنمدان وتنجوكر وتنتشل أفضت إلى حصار كبير فرضه عثمان وأنصاره على خصومهم في تكل، واستمر ستة أشهر حتى نفذت مؤونة المحاصرين ففرّ حلفاء عبد الرحمن من أولاد غيلان وتبعهم إيديشلي في الغد الموالي. وهكذا تم تنويع عثمان أميرًا، وتم استبقاء المنهزمين، بينما هربت بقيتهم إلى الترازة وتگانت. أما عبد الرحمن فقد انتهى شريدًا في الصحراء. وفي عام ١٩٧٧ روى أحد محاربي إيديشلي ومن أكبر العارفين بتاريخها تفاصيل المعركة:

في العام السابع من الحرب، طلب عثمان المدد من البراكنة، واستؤنف القتال بضراوة. وكان أولاد غيلان تكل معنا، واستمرت المعركة ستة شهور في الموضع المسمى تكل. فحاصرونا، ولم تبق معنا مؤن، فانسحب أولاد غيلان ليلاً، تاركين النساء والأطفال واتجهوا نحو إدوعيش.

بقي إيديشلي في ساحة المعركة. وكانوا يعرفون أنهم غير قادرين على الصمود في وجه الأعداء المعززين، فهربوا إلى الشمال الشرقي. وعرض مبعوث من السماسيد، هو الطيب ولد بتاح، خدماته على عثمان، وطلب منه الأمان لمن بقي من أعدائه وقال له: «إذا كنت ترغب في حكم هذه الأرض وأهلها فلا فائدة من إبادتهم؛ لأنك ستحكم أرضًا بلا سكان ولن تكون كاسبًا، وسيتحتّم عليك العمل بمفردك. امنح السلام لهؤلاء الناس واتركهم يعيشون في ظل قيادتك».

قبل عثمان بالمبدأ وذهب الطيب ولد بتاح لمقابلة إيديشلي، وقال لهم: «إنكم سائرون في طريق الهلاك. فلماذا؟ أنتم تقاتلون من أجل أرضكم: فما النتيجة إذا هلكتم جميعًا؟ فمن الأفضل أن تتجاوزوا الماضي على مرارته. فالعاقل من يعرف كيف يضمن المستقبل. اطلبوا السلم من

السلطان، وتعاهدوا معه لاسترجاع من [خطأ من المصدر] بقي من مالكم في سلام». قبل إيديشلي بالاقترح وهكذا تم الاتفاق الذي يسترجع بمقتضاه إيديشلي أرضهم ويعوّض للأمير عمن مات من ذويه في الحرب، طبق رغبته عندما يعود للبلد^(١).

وبالفعل، كانت نصيحة الشمسدي ناجعة. ورغم أن أولاد عمّني انقسموا في هذه الحرب، إلا أنهم سرعان ما التحموا وصاروا القوة الأكبر في آدار وخصوصاً عندما هربت العناصر المحاربة من إيديشلي وتوطّنت على أنها تيّاب في قبائل تجكانت ومشظوف وإيدوعيش وأهل سيدي محمود وإيدوعلي، رغم أن شقاً منهم استطاع البقاء قوة محاربة تفرض المغارم على القبائل، في الوقت نفسه الذي بقوا فيه يدفعون المغارم بدورهم لعثمان، المنتصر في تكل، كتعويض له على قتلاه في المعركة^(٢).

لعلّ عثمان كان بهذا المعنى أول أمير حقيقي في أولاد عمّني، وقد استمرّ في إمارته حتى وفاته في الفترة (١٧٦٥-١٧٧٠) حسب حسابات بيير بونت^(٣). وبمعنى من المعاني، فقد حوّل تحالف أولاد يحيى بن عثمان إلى حقيقة سياسية؛ إذ ضمّ إلى جانب أولاد عمّني أولاد غيلان، العائدين من الترازرة وأولاد أكشار، مشكلاً بهذه الثلاثية عقداً أميرياً في آدار كانت تفاصيله توطّد الحكم بتحالف خاص مع الأجنحة القوية في أولاد غيلان كالطرش وأولاد سلة ولعياشة. وفي المقابل، قسّم نزاع أهلي كبير أعداءه، إيديشلي، وصرفهم عن مجابهته، مفسحين له المجال في توطيد سلطته. وهكذا توسّع نفوذه واستطالت شريعته، فأصبح سلطة قضائية وحكماً بين قبائل المنطقة. ويعدّ بيير بونت في جملة هذه الواقعة التي اتهم فيها بعض من أهل الحاج بعضاً من أولاد بوسباع بسرقة شاة لهم، متقدّمين بالشكوى إلى عثمان، الذي طالبهم بضرورة دفع الشاة غير أنهم رفضوا

(١) مقتبس في بيير بونت، إمارة آدار، ص ٣٣.

(٢) بونت، ص ٣٤؛ والمختار ولد حامد، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) بونت، إمارة آدار، ص ٤١.

وأساءوا إلى «الصرية» أو الوفد المرسل إليهم. وهنا أرسل لهم «عثمان فرقة لتأديبهم»، حسب تعبير بونت^(١).



تركت وفاة عثمان (١٧٦٥-١٧٧٠) الباب مفتوحًا لأخيه الأقرع (لكرع) ولد لفضيل، الذي لم يكن شقيقًا له. وقد تقلد عمليًا، وإن لم يكن رسميًا، شؤون الإمارة كنوع من الوصاية عليها، وذلك في غياب بنين ناضجين لعثمان، كما خلفه في أهله، متزوجًا من أرملته. وحسب ما تُقدّمه التصاوير السائدة، فقد كان صنديلاً استئسادِي الطبع، ولذلك يبدو منها أنه لم يحظَ بولاء أطراف مهمة من الأمارة بما فيها بعض المُهمّشين والمستضعفين؛ فقد وقف بقوة في أيام عثمان ضدّ حقوق أخ لهما من أم سودانية هو صمبة^(٢). كما يبدو أن هذه العدوانية تعدّت المجال الأسري، فقد «كرهه» أولا غيلان، حسب تعبير المختار بن حامد^(٣). أما إيدشلي فقد فرضَ عليهم إتاوة جديدة عبارة عن شاة عرفت بـ «شاة لكرع»^(٤).

استمرت سيادة لكرع عشرين عامًا، غير أن الأوضاع بدأت في التوتر عندما بلغ سيد أحمد بن عثمان سنّ الرشد، وبدأ في التعبير عن رغبته في استلام سلطته. ويبدو من الإشارات أن الأطراف المتدّمرة استثمرت في يقظته وأميريته الشرعية. وبدأ يستفيد من دعم ابن عميه لفضيل ولد صمبة، ابن العم الذي اضطهده الأقرع. وكان لفضيل قد هاجر إلى الترابزة وبقي بين أولاد بنيوك، ممتعضًا من سياسة أعمامه الذين اتفقوا مع لكرع على حرمانه من الميراث. وكان له دور أساسي في عودته في إيقاظ سيدي أحمد ولد عثمان وتشجيعه على المطالبة بالإمارة. ويقال إنه دخل على والدته سيد أحمد، زوجة عثمان، وقال لها: «لا يجب عليك إدخال أميرين في خيمة واحدة». وكانت تلك العبارة إشارة

(١) نفسه، ص ٤١-٤٢.

(2) Pierre Bonte, "Tribus faction" p. 494-495.

(٣) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٤٧.

(٤) بونت، إمارة آدرار، ص ٤٣.

إلى نضج المطالب بالإمارة من قبل سيد أحمد، فقامت ببناء خيمة خاصة لسيد أحمد.

وبعد تقاسم الإمارة الرمزي هذا قام لفظيل بالعمل على خطوة أخرى في صالح ابن عمه، وهي جعله يزاحم لكرع في خصائص الإمارة. فانتظر حتى قام لكرع بغزوة ضد الترازة وغنم فيها الغازون بعض الغنائم، فأصر على أن يحصل سيد أحمد على الحصان الأجود فيها. وربط الحصان أمام خيمة سيد أحمد، وعندما رآه لكرع أرادته لنفسه فرفض سيد أحمد. وشرعا في تنازع الحصان، وكل منهما أخذ بطرف من لجامه. وكاد الأمر يتطور إلى صراع عنيف حتى تدخل محمد بن المحمود، المعروف بـ «كار»، زعيم أولاد سله من أولاد غيلان، المتذمرين من حكم لكرع، وطلب من سيد أحمد ترك الحصان في الوقت نفسه لذي ألمح فيه إلى أن الغيلانيين يدعمونه. وترك لكرع الحصان فاهما أن مؤامرة قد حيكت ضده. خرج مغاضبا وضرب قصعة اللبن بقدمه. وبدا الاستعداد للمواجهة.

استطاع لكرع الحصول على دعم تيار من أولاد غيلان يقوده اعمر أكدش وأولاد الجعفرية، وأمن قوة هاجم بها سيد أحمد وأنصاره. وقد نجمت عن ذلك ثلاث معارك في تنوشرت وتيدرناتين ورك الفتنة لم يستطع فيها لكرع حسم الكفة لصالحه؛ لذا غادر إلى الساحل بغية حلفاء وازنين وحصل على دعم أولاد دليم وهاجم بهم مقر الإمارة المعروف في تقاليد آدرار بـ **الحلّة**؛ وهنالك تصدى له لفظيل ولد صمبة واستطاع رد الهجوم رغم إصابته. وفي هذه الأثناء عاد سيد أحمد بجيش هاجم به قوات لكرع وحاصره في **تيجيريت** في المكان الذي سيعرف بـ «**علب لكرع**» أو هضبة الأقرع. كان حصارا مضنيا. وفي النهاية استسلم لكرع وأنصاره وتنازل عن السلطة وقبل المغادرة لقاء الحصول على الماء. وذهب إلى الشمال حيث مات كمدًا^(١). أما المختار بن حامد فيعتبر أنه قتل في معركة

(١) من رواية لولد أحمد كركوب وسيد أحمد ولد عيدة في:

تيدنانت^(١)، التي ربما تكون قد دارت حوالي عام ١٧٩٠.



كان من الواضح أن سقوط لكرع عاد إلى تدمير المجموعات المقاتلة، وخصوصًا أولاد غيلان. ولم يكن تأثر سيد أحمد إلا فرصة لإعادة الانتباه لهذا. لذا كانت مغادرة لكرع فرصة لإعادة ترسيم الشأن السياسي وتقسيم العمل، وهو ما تم في إطار ما عُرف بإصلاحات امحيمدات. والمقصود بـ «امحيمدات» هم زعماء أولاد غيلان الثلاثة: محمد ولد مكناس (الطرش) ومحمد ولد امحيميد (نعموشة) ومحمد ولد محمود المعروف بـ «كار» (أولاد سلة)، الذين اتفقوا على إبقاء الإمارة في أهل عثمان مع الاعتراف بأولاد غيلان وحقهم في الاستفادة من العوائد الأميرية في مجال الأسلاب^(٢). إلا أن الجزء الأهم في هذه الإصلاحات كان الاتفاق على جعل الإمارة شأنًا انتخابيًا، وليس وراثيًا، حيث يجد زعماء أولاد غيلان فرصة لإقرار الأمير القادم وانتخابه من بين أولاد الأمير بدلًا من انتقال الإمارة إليه تقليديًا وتلقائيًا. وخصّص «اتفاق امحيمدات» عائدات من العبيد والنخل والمنازل للإمارة ولكن فقط بصورة وقفية بحيث لا تبقى في الملك الشخصي للأمير، وإنما في عهدة الإمارة ووقفًا عليها. وهو ما اعتبره بيير بونت تأسيسًا لبيت المال^(٣).

وربما كانت المواجهة مع أولاد دليم في الشمال التي أعقبت إصلاحات امحيمدات أوّل اختبار جدي لقوة أولاد غيلان. فقد تورّط أولاد دليم في الصراع في آدرار بعد فشل الهجوم مع لكرع ونجحوا في الهجوم على مرايع الأمير في الحلة، غير أن أولاد غيلان نجحوا في صدّهم ومطاردتهم حتى توات في جنوب غرب الجزائر، وعادوا بقافلة كاملة من الشاي الأخضر (الأتاي)، وهو المشروب الذي كان لمّا يدخل الصحراء في حينه، ولم تعرف له حينها أية استخدامات، بل

(١) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٤٧.

(2) Tribus, faction, 497

(3) Pierre Bonte. "Kinship and politics in the Sahara and Sahel," In H. J. M. Claessen and Peter Skalnik, eds. The Study of the State. Vol 1, The Hague: Mouton Publishers, 1981, p. 48.

إن أولاد غيلان بدأوا في استخدامه في دبغ القراب^(١). وفيما عدا هذه المواجهات، فإن حكم سيد أحمد استمر هادئًا طويلًا فحكم أربعين عامًا.



بدءًا من القرن التاسع عشر ستعرف إمارة آدرار أحيانًا بإمارة أهل عَيْدَة. ولهذا قصة. كانت عَيْدَة جارية مرضعة لأحمد ولد سيد أحمد، ابن الأمير، الذي قرّر التسمي بأحمد ولد عَيْدَة، التي أرضعته في الصغر. كانت فكرته في ذلك الانتساب هي إثبات حسبه على حساب نسبه. وفي السنوات الأخيرة للأمير سيد أحمد شبّ صراعٌ بين أبنائه على الوراثة البادرة للسلطة. ويبدو أن أحمد لم يكن محظيًا كثيرًا من طرف والده، خاصّةً أن والدته توفيت عندما كان صغيرًا، ولم يجد من يضغط لصالحه في حريم والده. ولكنه فرض نفسه بشجاعته وقوته، وقد ظهر سريعًا ضعف أخيه، الوريث المحتمل للسلطة، المختار الملقب النّانة^(٢)، الذي كان والده يعدّه للإمارة. وسرعان ما برّ أحمد ولد عيدة إخوته؛ فعندما كان صغيرًا سار في غزوة نظمها النّان ضدّ مقاتلي الشمال بغرض استنقاذ بعض الإبل التي كانوا قد استاقوها. ولكن عندما أدركوهم تبين التفوّق العددي للأعداء فقرّر النّان وجماعته الانسحاب. ولكن أحمد ولد عيدة قرّر المضيّ في القتال حتّى هزم الغاصبين وانتزع منهم الإبل المسروقة. وفي تحدٍ لخلافة أخيه رفض أن يأخذ حصة أقل منه من المغنم، مهذدًا بمحاربته، ما اضطرّ النّانة للإذعان. ثم ورّع أحمد عَيْدَة نصيبه على قادة الهجمة، وعاد منتصرًا. وفي قصة أخرى هاجم أولاد دليم في غزوة تيراكّلين ثم حاربهم وهزمهم واستاق إبلهم^(٣).

ولا نعرف مدى استحضار إصلاحات امحيمدات التي تعطي دورًا لمحاربي أولاد غيلان في اختيار الأمير الجديد في ظروف وراثة الأمير سيد أحمد؛ إلا أنّ أثرها واضح، ذلك أن ولد عَيْدَة كان يتمتّع بقوتهم وبتحالف معهم يبدو أنه كان أساسيًا في رفع شرعيته كمطالب شرعي واستحقاقه بالإمارة. وفي السنوات

(١) بونت، إمارة آدرار، ص ٤٤-٤٥.

(٢) الناه عند بوير بونت المترجم، والنان عند المختار بن حامد.

(٣) بونت، تربيين فراكسيون، ص ٤٩٨-٤٩٩؛ بونت، إمارة آدرار، ص ٤٥-٤٦.

اللاحقة طور الأخير زعامته الفتية إلى فتوة لاستصدار اعترافٍ من والده بزعامته . وقد كسب المعركة بالفعل عندما خصّصت له **حِلَّة** عُرفت بـ «الحلة السوداء الصغيرة». وفي هذه الظروف من تصاعد قيمة أحمد عيّدة رحل والده قبل حسم مسألة الوراثة؛ لذا شبت معركة على خلافته عندما انتظمت جبهة ضدّ أحمد من إخوته المتحالفين مع أهل كركوب وأولاد سلّة من أولاد غيلان والجعفرية (أولاد أكشار) وغيرهم .

انتصر أحمد ولد عيدة على الإخوة والعم، أحمد ولد لفظيل، فرادى ومتفرّقين؛ فهزم امحمد ولد سيد أحمد عند **لمصيدي**، وهزم اتحاد الإخوة في **تنواجير**، ثم نفى الشيخ إلى الترازة. أما سيد امحمد والمختار فقد فرّا إلى تكانت في إطار العادة المعروفة بـ «**الزوكّة**» أو الفرار في التقاليد الحسانية، حيث يهرب الجناح المهزوم تاركًا المجال للمنتصر. وهكذا فرّ العم، أحمد ولد لفظيل، ومحاربوه إلى إيدو علي وأصبحوا تياّبًا عندهم. وحقق أحمد عيدة أيضًا انتصارًا شبيهاً عندما هزم تحالفًا من الجعفرين الذين تحالفوا مع الثّانة، وهاجموا ولد عيدة ونجحوا في إصابته إصابات عديدة في تيديرز، وقُتل حصانه، الشهير بـ «الحرانة»، في هجوم فاشل على **الحلّة**، ثم فرّوا إلى الترازة والبراكنة بعد هجوم مضاد قام به أنصار الأمير في **الطينطان** ثم **أجيلان**^(١).

غيّرت الصراعات السياسية في حرب الوراثة الخريطة السياسية بآدرار، فبالإضافة إلى «**زوكات**» الأعداء فإن التراتبية الداخلية في أولاد غيلان قد تغيرت تبعًا للتحالفات الجديدة؛ فبسطوا نفوذهم هم وحلفاء الأمير من إيديشلي على شرق آدرار، المعروف بـ «**اظهر**»^(٢)، هذا بالإضافة إلى توسّع النفوذ السياسي للإمارة إلى الكصور الأدرارية حيث كانت تقطن قبائل الزوايا المتعلّمة والمتاجرة، التي بدأت تدفع ضريبة للإمارة. وقد عدّد فينسان زوايا آدرار في عام ١٨٦٠ بأنهم سبعة آلاف شخص يدفعون ضريبة سنوية إلى ولد عيّدة^(٣)، كما نعرف من أحد

(١) بونت، إمارة آدرار، ص ٤٨-٤٩؛ والمختار ولد حامد، ص ١٤٧.

(٢) بونت، ص ٥٠.

(3) Bonte, Tribus, p. 500.

J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'a nos jours. Paris.Maisonnewes Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p.137.

أوائل دارسي إمارة آدرار، وهو أمدو ممدو، بأن رعاية الإبل، وبالأخص من خارج آدرار صاروا يدفعون لأمرآء آدرار لقاء حقّ السماح لهم في المراعي الآدرارية، الأنجع للإبل عامة^(١)، وربما تكون هذه هي المرحلة التي تم بسط النفوذ فيها على باطن آدرار، حيث كان يقيم أسياد آدرار القدماء، إيديشلي^(٢).

فَتَحَتْ حرب الوراثة الطويلة هذه جبهة القتال مع عدو جديد: التراززة في الغرب والجنوب الغربي. فقد استاء ولد عَيْدَة من إيواء التراززة للمحاربين الآدراريين ومساعدتهم في محاولة الإطاحة به. وانتظر فرصة قصيرة لتوطيد إمارته ثم هاجم أمير التراززة، محمد لحبيب، الذي كان منتجعاً بعيداً عن قبيلته وهزمه في «الملحس» وقطع أذني زوجته، أم راس. وهو ما فتح باباً من الحرب مع التراززة القوية، إضافة إلى استمرار العداء التاريخي مع الشمال الذي يتموقع فيه أولاد دليم. وفي البداية انتظر محمد الحبيب وقتاً قبل أن ينفذ هجومه الانتقامي، المتوقع، الذي أثار تأجيله سخرية من الآدراريين. وعندما شَنَّ أخيراً الهجوم فإن الآدراريين تمكنوا من صدّه عند آمسكة، قرب لعوينات. وهو ما جعله يلجأ إلى أولاد دليم في الشمال لتنسيق هجوم يكبس على آدرار، وهاجما آدرار محققين انتصاراً طفيفاً لم يُرضِ محمد لحبيب؛ فقاد هجوماً آخر مستغلاً عامل المفاجأة ونفذ في آدرار حتى وصل إلى الحلة في تنزاك فأحرق بها المقاتلون التروزيون النخل في آمدير في عام ١٨٥٠^(٣).

بدورهم ردّ الآدراريون بهجوم قاده أحد أبناء أحمد ولد عَيْدَة هو امحمد أو عثمان بتكليف منه، واستطاع تحقيق نصرٍ تاريخي عندما هاجمت عناصره مخيم أمير التراززة ونهبوه وأخذوا الرقيق والأنعام واستولوا على السروال الأبيض، رمز الإمارة في التراززة، كما أخذوا قدراً من رموز الإمارة، وما زال إلى الآن عند

(1) Ahmedou Mamadou Ba, "L'Emirat de l'Adrar Mauritanien de 1872 à 1908" Bulletin Trimestriel de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, mars, 1932, Tome 53, 83-119, (p. 84).

(2) Pierre Bonte, "Tribus, faction," p. 500.,ku

(٣) ببير بونت، إمارة آدرار، ص ٥٠-٥٢.

أسرة أهل بوص، زعماء تيزگة^(١). وفي السنوات اللاحقة فكّر ولد عَيْدَة في ضرب التراززة عن طريق فتح نافذة تجارية في آرغين للتعامل مع الفرنسيين خصوصًا وأن التراززة كانت في تلك اللحظة تمرُّ بحروب عصبية تهددُ كيانها، وكانت عرضة للهجمات من قبل إيدوعيش وآدرار إضافة إلى الصراعات الداخلية فيها^(٢). ولكنه توفي بعيد ذلك؛ ولم تتسنَّ الفرصة لخلفائه بسبب القلاقل اللاحقة.

كمعظم أمراء الصحراء كان أحمد عَيْدَة شجاعًا وكان يقود الهجمات والمعارك بنفسه، ولكنه كان يركّز على أعدائه في الشمال الذين كانت مواجهاتهم مع آدرار شأنًا روتينيًا. فهاجمهم ولد عَيْدَة في **تفرفات** التي كان بها تجمع من مقاتلي أولاد دليم والقرع، وقد استطاع بنفسه إسقاط زعيم أولاد دليم، الشيعة ولد منصور، من فوق حصانه ثم عدل عن قتله احترامًا لشيئته. وقد ردّ الشيعة أيضًا بأخلاق فروسية عندما أعلن الهزيمة وانخزل بجيشه. وبطبيعة الحال فلم يمه هذا الأحقاد بين الشمال وآدرار، فقد هاجم ولد عَيْدَة أولاد دليم عند **بئر دموس** ثم عند **لكرب** التي قتل بها منهم مقتلة، مستفيدًا دائمًا من حلفائه من أولاد غيلان وأولاد آكشار. وربما انتهت هذه العداوة في وقت ما من الخمسينيات عندما تمّ التفاهم على السلام بين أولاد يحيى من عثمان وأولاد دليم؛ فعندما زار المخبر فينسان زعيم أولاد دليم اعلي ولد محمد ولد أحمد، الملقب بـ **بارموكة**، وجد عنده ابن الأمير ولد عيدة، اعلي شنظورة، وهو يحتفظ به كضمان سلام من أمير آدرار^(٣). ولكن عصر ولد عَيْدَة، الذي كان عصر سطوة ونفوذ، قد جعل آدرار المنطقة الأبرز شدة وقوة، وقد استمرّ تسعة وثلاثين عامًا، أفضى إلى نهاية مأساوية بعد وفاته من مرض في عام ١٨٦١ (١٨٦٣، حسب المختار بن حامد). وكان جوهر المأساة هو الموت المتسلسل الذي نخرَ في أفراد أسرته في عام عُرفَ بعام «موت أهل عثمان».



(١) نفسه، ص ٥١-٥٢.

(2) J. Ancelle. Les explorations, p.132.

(3) Ibid., p.129.

كان عام «موت أهل عثمان» حدثاً مفرقياً في حرب الوراثة العيديدية. فمن الواضح أن «إصلاحات امحيمدات» التي نقلت الأمر الأميري من شأن وراثي انقسامي إلى شأن سياسي أوسع، قد كثفت من احتمالات الاقتتال على الوراثة. إلا أن هذا لا يعني أنها خلقت أو سببت هذه الحروب، ففي بقية الإمارات كانت حروب الوراثة شأنًا روتينيًا؛ ذلك أن المجموعات المحاربة في الإمارات المعتمدة على الحرب والغزوات كانت تتشكل بشكل مستقل عن بعضها البعض وكانت كل مجموعة قتالية تتحالف أو تنضوي في رئاسيات قبلية مستقلة تشترك في مصالح معينة؛ وعادة ما كانت تتشكل رئاسيات أو تحالفات متنافسة رغم الولاء للأمير، غير أنها تختلف في ولائها لورثته. وهكذا كان المطالبون بالإمارة يجدون دومًا إلى جانبهم مقاتلين أكثر منهم تحمسًا للقتال وانتزاع الحكم، إضافة إلى كل المكاسب الآتية والمغنمية التي ترافق الملاحم المصاحبة لهذا. وفي منتصف القرن الثامن عشر برز أمحمد ولد أحمد عيدة بصفته خليفة محتملاً لوالده، الذي كلفه بمهام رمزية وعملية كبيرة كالحملة على الترازرة، كما بنى له حلة منفصلة كنوع من إشراكه في الحكم. وإضافة إلى هذا، فقد كان أمحمد ذا شعبية كبيرة بين أمراء الحرب الذين كوّن بينهم تحالفات مهمة، بل وطالت تحالفاته إمارة تكانت القوية، التي تزوج من أخت أميرها، بكار ولد اسويد أحمد، وهي خديجة بئي. وتماماً كما حدث في تجربة أحمد ولد عيدة نفسه، فإن إرهاصات الصراع على السلطة بين أبنائه بدأت في عهده واشتدت قبيل وفاته.

اتحد الأخوان، عثمان ومحمد، واتفقا على تحييد أمحمد؛ وتعاملاً مع رجل من لعويسات هو باب ولد سيد أحمد ولد محمود، فانتظر حتى وفاة الأمير أحمد ولد عيدة فقام في الليلة نفسها بضرب أمحمد ضربة خطيرة على الرأس. ولكنه لم يمت مباشرة. وقد أرادت زوجته تهريبه وهو جريح، ولكن أخاه عثمان بادر إليه في الصباح فقتله^(١).

ومباشرة هبت حالة جديدة من التحالفات والاستقطابات، فلم يرض أنصار الأمير القاتل بالتسليم للأميرين القتاتلين خصوصاً أنهما اعتمدا على دعم من

(١) بئر بونت، إمارة آدرار، ص ٥٤-٥٥.

الأعداء التاريخيين لآدرار، أولاد دليم، (رغم أنهما تحصّلا على دعم من أولاد سلمون من أولاد غيلان). إلا أن أحد العوامل المهمة في دعمهما كان الشيخ سيد امحمد الكنتي الذي سطع نجمه في تلك الفترة كزعيم روحي قوي يسيطر على قوى كبيرة وتتبع له جماعات واسعة منها عناصر مقاتلة وقوية من أولاد غيلان، وخصوصًا عندما نجح في هزيمة الطرف الآخر من الغيلانيين الموالين للشيخ محمد فاضل ولد اعبيدي. وفي الناحية الأخرى، وقفت قوى نقموشة (أولاد غيلان) والجعفرية (أولاد أكشار) ضدّ الأخوين القاتلين. ومن ناحية أخرى ظهرت أطماع بكار ولد اسويد احمد والبراكنة، وذلك عندما استجدي مساعدتهم سيد أحمد ولد عيّدة، أخو الأمير القتيل، الذي ظهر ممثلًا شرعيًا ومطالبًا بالإمارة، ولكنه سرعان ما توفي في ظروف غامضة^(١).

وأمام حالة الانقسام والفراغ هذه دخلت آدرار التي كانت متماسكة وقوية في عهد أحمد عيّدة في حالة من الشتات والتشرذم، وأصبحت مسرحًا للمصالح الإقليمية والسيّئة واشتعلت المواجهات بين أطرافها، وخاصّةً عندما استعان الأخوان، عثمان ومحمد، بقوات من أولاد دليم وأنصارهم، من أولاد بوسباع واركيبات. ولكن الآدراريين هزموهم هزيمة كبرى تمّ تأريخ العام بها، الذي عُرف بـ «عام أذريّة» أو الشتات، ١٨٦٣، نسبة إلى الهروب الكبير الذي حلّ بالعناصر الآدرارية المتحالفة مع الأخوين عيّدة. إلا أن الأخوين هربا بفرسي الإمارة، وهما رمز السلطة بها، ولن يعودا إلا بعد لملمة فلول أنصارهما وتأمين تحالف مع بعض الغيلانيين وبعض أولاد أكشار من أنصار الشيخ الكنتي إضافة إلى قوات منيعة من الركيبات وأولاد دليم وهاجما بهم وسط آدرار في أطار وكنوال، اللتين كانتا محطّتين من محطات الإمارة. وقد نجحوا بالفعل في تشتيت القوات الآدرارية وحلفائها من سكان الجنوب في لعصابة وجنوب تكانت من أهل سيدي محمود ومشظوف. ويعرف هذا العام (ما بين ١٨٦١-١٨٦٣) بـ «عام أذريّة الثانية»، في إشارة إلى التشيت الانتقامي الذي حقّقه الأخوان عيّدة^(٢)، اللذان

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٥٨.

تمكّنا من فرض انتصارهما وتبوأ القيادة في الإمارة، وقبل الإداريون بهذه السيطرة المفروضة بالقوة^(١).

واتفق أنّ هذه الغلبة لم تُنهِ الصراعات، فقد عملت عناصر غيلانية معادية للأميرين الجديدين، عثمان وامحمد، على التربّص بهما؛ ونجحت بالفعل في اغتيالهما. وفتحَ هذا بدوره فترة صراع على السلطة، وفسح المجال لعدة مطالبين بالإمارة. وتدخلت عناصر من خارج آدرار وخصوصًا إيدوعيش الذي دخلوا في تحالف معادٍ للمختار، الملقب بـ «النّاه»، الذي أصبح زعيم آدرار فهزموه وقتلوه في عام ١٨٧٧.

وبقي الباب مفتوحًا بعد هزيمة القوى الشمالية لرجل تكانت القوي، بكار ولد اسويد أحمد، الذي استطاع التحالف مع القوى الإدارية المعادية لمحمد وعثمان، المتمثلة في الجناحين القويين في حينه في أولاد غيلان، أهل تكدي وأهل مكّية، واستطاع تأمين استلام الإمارة لابن أخته، أحمد، بكر الأمير المقتول امحمد، ونجح في تنصيبه أميرًا خصوصًا بعد تغلب هذا على عمه، اعلي شظورة، الذي أصبح زوج أمّه بعد مقتل امحمد، وإقصائه، مدعومًا من بكار ولد اسويد أحمد. واستطاع تحالف تكانت وآدرار هزيمة آخر محاولة من قوى الشمال، أحمد ولد امحمد، بكسر هجوم قام به أولاد دليم في عام ١٨٧١ متحالفين فيه مع الزعامات الروحية لكنّنة. وتمّ توزيع سلطة أحمد بنجاح أنصاره في استعادة خيل الإمارة من عند أولاد دليم، وذلك بفعل جهود رجل أولاد غيلان القوي، أحمد بريشة ولد تكدي. وبإعلان أحمد أميرًا لآدرار انتهت سنوات التشردم و«اذيرة» في آدرار^(٢).



إضافة إلى أن الأمير الجديد كان محاربًا قويًا، فإنه كان ذا ميول دينية تقشفية قوية. وفي عام ١٨٨٦ أشارت إليه مجلة مانشستر للجغرافيا بأنه «شخصية بارزة، له سلطة عظيمة ويقال إنه مثقّف جدًا وعطوف وعادل ويعيش في دولة، وله حرس

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٥٩-٦٠.

من ٣٠٠ عبد سوداني طويل^(١). أما إمارته فقد أشارت إليها بـ «خلافة آدرار». درّس الأمير في يفاعته القرآن الكريم والنصوص الفقهية التقليدية عند الزوايا كنص مختصر خليل، المؤجّر لأحكام الفقهية، وغيره من النصوص. وكان مّطلّعاً على قصص العرب وآدابهم، وكان له ذوق صوفي فكان ينزوي في خلوات تعبدية ويحافظ على التقشف ونبذ الدنيوية. وكان يقبل مشيخية الشيخ محمد فاضل العبيدي الذي كان أساسياً له في توفير دعمه من طرف من أولاد غيلان. وقد انعكست ميوله العلمية والدينية على نمط حكمه، فعمد إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. واستطاع بهذه المعيارية القانونية تشييد عهد من السلام والرخاء، فازدهر في عهده الأمن والتجارة القوافلية. وأطلق على زمنه العافية أو «عافية أحمد ولد أمحمد»، وتعني العافية لدى البيضان السلام. وتغنّى به الشعراء، ومن ذلك مدح محمد الحسن بن محمد عبد الجليل العلوي:

أميرٌ فارسٌ بكل جواد خليفةٌ فارسٌ بطلٌ جواد
وغيثٌ لا يملّ إذا تمادى وكان الغيث يُسأم بالتمادي
إلى أن يقول:

لِنَعْمَ الْجَلْدُ أَنْتَ إِذَا تَبَدَّتْ نَوَاصِي الْخَيْلِ مُقْبِلَةً بَدَادٍ^(٢)



إلاّ أنّ «عافية أحمد ولد امحمد» لم تنه الصراعات ولم تُقنع أعداءه بالاستسلام. واستطاع كل من سيد أحمد ولد البرناوي ولحزام ولد معيوف تزعم حركة رافضة له. كان البرناوي من المساندين لإمارة المختار ولد امحمد ولد سيد أحمد ولد عثمان، وقد استطاع تنظيم هجوم على الأمير الجديد عام ١٨٧٣، ولكن قوات مساندة لهذا من اجعافرة (الجعفرية) صدّت الهجوم وقتلت البرناوي في معركة عيو لبكر. ومباشرة هرب المعارضون في زوجة جديدة إلى الترازة، ومن أبرزهم المقاتل الكبير لحزام ولد معيوف الذي هاجر معه بجلّ أولاد أكشار

(1) The Journal of the Manchester Geographical Society, Manchester: ManchesterGeographical Society, 1886, vol., 2, p. 160.

(2) أحمد بن الأمين الشنقيطي، ص ٧٨.

إلى الترازرة. كان لحزام مقاتلاً ضارياً ذا بأس، وكان له تاريخ مهم في الحروب حيث عمل في الجناح العسكري لحركة الشيخ سيدي امحمد الكنتي وخاض معارك كبيرة في الشمال في تيرس. في الترازرة لم يأت لحزام لمجرد الراحة، بل قام بعقد تحالفات مهمة مع الشيخ سيديا الكبير (١٧٧٦-١٨٦٩) الذي درس في يفاعته على المشايخ الكنتيين وكان يأوي عائلة الشيخ الكنتي المقتول. وقد تحالف مع أمير الترازرة لدعم لحزام وإن بشكل غير معلن؛ كما استفاد الأخير من مجموعة لعُلب بالترازرة وواصل علاقاته مع مقاتلي الشمال في تيرس، وقام بشن هجمات على الحلة وعلى الغيلانيين الداعمين للأمير.

وفي فترة مُعينة عنت بادرة سلام لإنهاء هجمات لحزام على آدرار، ولكنها سرعان ما أخفقت. فقد بعث إليه أحمد ولد امحمد بوفد تصالحي يريد إرضاءه، ما يُسمّى في التقاليد السياسية الإدارية بـ «الصرية»، فقبل جهود المصالحة وقرّر العودة إلى آدرار. ولكنه سرعان ما أقفل راجعاً بعد أن حاول مبعوث الأمير قتله. ومن الترازرة واصل إزعاج آدرار. ولم تتباطأ هذه الهجمات في جرّ إمارة الترازرة لمواجهة جديدة مع آدرار. فقد استغلّ أمير الترازرة، اعلي ولد محمد لحبيب، إيواؤه للمعارضة العسكرية الإدارية فبعث برسالة متكبرة إلى أحمد ولد امحمد يريد منه أحد خيله المعروف بـ «غزالات»، ما أغضب جداً الأخير؛ فنظّم هجوماً على مخيم الأول في تيكينت، بين نواكشوط وروصو، واستطاع هزيمة ثلاثة جموع من الترازرة بما فيها جمعٌ أخيرٌ من أنصار لحزام ولد معيوف، الذي لم يكن حاضراً؛ واستطاع العودة بسرّوالة الإمارة التروزية، وقتل اثنين وثمانين رجلاً من التروزيين وحلفائهم المهاجرين الأدريين^(١). وصفت مجلة مانشستر هذه الحروب بأنها حروب فظيعة، ونقلت ما كان يتمّ تداوله في آدرار في حينه من أن التروزيين يتلقّون دعماً فرنسياً ضد آدرار^(٢).

وبالعودة إلى آدرار، بعد سنوات، فإن ثأراً قديماً استجدّ وتطوّر إلى خلاف قوي عندما أراد أمير تكانت، بكار ولد اسويد أحمد وجماعات من إيديشلي،

(١) بونت، ص ٦١-٦٤.

(2) The Journal of the Manchester Geographical Society, 160.

قتل كل من إبراهيم ولد مكّية، حليف أمير آدرار، وذلك انتقامًا لمقتل الشيخ ولد النويصري من إيديشلي، الذي قُتل في خيمة الأمير دون أن يحميه، وانتقامًا أيضًا لابن بكار ولد اسويد أحمد، المختار، الذي قتله ولد مكّية في عام ١٨٩٠. واجتمع ثار هؤلاء، فقتلت نواة منهم ولد مكّية والأمير أحمد وآخرين في عام ١٨٩١^(١).



قبيل وفاته قام الأمير أحمد الجريج باستدعاء ابن عمه أحمد ولد سيد أحمد، الذي كان على خلاف سلطوي معه وحضّه على الثأر من خاله بكار. وكانت هذه لحظات مهيبة اجتمع فيها بعدها الأدراريون عند خيمة الأمير وأقسموا على المصحف بالثأر من قتلته. ولربما لم يُوحّد شيء آخر آدرار كما وحّد من مصرع أحمد ولد امحمد، فتصاعدت المشاعر المتأججة واستعلّت الأطراف المتصارعة على خلافاتها، بحيث إن أولاد أكشار اعترفوا بسلطة الأمير الجديد أحمد ولد سيد أحمد. بل إن عدو الإمارة اللاجئ في الترازة، لحزام ولد معيوف، أففل راجعًا على رأس فرقة مقاتلة ليلتحق بالحملة الأدرارية ضدّ إيديشلي وتگانت. وكان جدّيًا في هذا الاندفاع بحيث لن يلتحق بالأمير الجديد إلا بعد عودته من تگانت من المعركة الأولى.

كانت الحرب مع تگانت من أكبر الحروب في الصحراء؛ إذ شهدت تجيُّش المئات عكس ما كانت تشهده الحروب الاعتيادية الخاطفة. وقد بدأت المواجهة الأولى في يوليو عام ١٨٩١ عندما هاجم جيش أحمد ولد سيد أحمد تگانت عند «راس أدرك» و«الكفيطنه»، حيث كانت مرابع إمارة تگانت. وبفعل عامل المفاجأة استطاعت قوات ادرار مدهامة تگانت واستولت على أغنام أميرها ووزّعها الأدراريون على سكان تجكجة. وقبل مغادرة الجيش الأدراري وصلتهم رسالة تحدّ من عثمان ولد بكار ولد اسويد أحمد، فيها: «هذا الهجوم الذي تقدمتم به جيد، ولكنني أطلب منكم عدم الإسراع بالذهاب حتى أتمكّن من اللحاق بكم». قبل الأمير أحمد بالتحدي وبعث إلى عثمان بأنه سينظره مدة ثلاثة أيام. كان رد

(١) بونت، إمارة آدرار، ص ٧٥-٧٦.

التگانیین ضعيفًا، فقد هاجموا بخمسة فرسان قتل منهم ثلاثة وفرَّ اثنان. وعاد الآدراريون إلى موطنهم بعد انتهاء الأيام الثلاثة^(١).

رغم هذا الانتصار الكبير لآدرار، إلا أنه يبدو من خطوات أمير آدرار الجديد أنه لم يكتفِ به؛ فشرع في الترتيبات لهجوم آخر آخر في العام نفسه. فانتظر حتَّى تزوج من أرملة الأمير القتيل، وهي من مجموعة الشراتيت، الجناح المعادي لبقار ولد اسويد أحمد من ايدوعيش، ونظَّم هجومًا على تگانت في معركة الطرطكة، التي حشد فيها بكار جيشًا عظيمًا ولكن الآدراريين فاجؤوه. وهربت قواته وبقي مقطوع الإمدادات ثم أسرع بالعودة إلى تگانت.

وبالطبع غضب محاربو تگانت تجاه هذا الإخفاق. وبدورهم توحدت عناصرهم من أبكاك والشراتيت، الطرفين المتعاديَّين بشدة، وأعدوا جيشًا يتراوح ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل وهاجموا آدرار، فتصدَّى لهم محاربوه عند وادي سگليل الصخري. وعندما تكثَّف إطلاق الرصاص وارتدَّ دويه المهيب ما بين الوادي الصخري اعتقد الشراتيت أن الصدى هو من جيش آدراري جرَّار في مواجهتهم فأقفلوا راجعين. ولم يبق أمام بكار إلا أتباعهم. وحسب ما هو مروي فإنه ترك زوجته، الحُبلى، في الوادي الآدراري حيث وضعت ابنه في كنوال. هذا الابن هو عبد الرحمن ولد اسويد أحمد المعروف بالدان، الذي سيكون من آخر الأمراء الكبار في التاريخ الموريتاني.

وإذا كانت حرب تگانت وآدرار قد نجحت في توحيد القوى السياسية المتصارعة في كلتا الإمارتَيْن، فإنها أيضًا قد ساهمت في توحيد ظرفي لقوى الشمال. كان لا بدّ للأمير الآدراري من البحث عن قوة عديدة موازية لقوة تگانت، فذهب إلى الشمال للبحث عن حلفاء من ارقيبات وأولاد دليم. كما استطاع أخيرًا الحصول على دعم من قبيلة كنتة في تگانت الذين تفرَّق البعض منهم بعد حرب شتَّها عليهم بكار ولد اسويد أحمد عندما قتلوا فيها أحد أبنائه. وجمع الفريقان جيشًا كبيرًا وهاجموا به تگانت في كَصْر البركة، فحقَّقوا انتصارًا صعبًا فقدوا فيه مائة رجل. وكان دور كنتة حاسمًا في النصر؛ غير أن مسار

(١) نفسه، ص ٧٧-٧٨.

الحرب بدأ يتغيّر بانضمام عناصر من ايديشلي، الذين كانوا يتعرّضون للعدوان من قبل أولاد غيلان، إلى بكار ولد اسويد أحمد، واستطاعوا معه أن يحققوا انتصاراً مهماً على آدرار في فرع الكتان في عام ١٨٩٣. وانتهت حرب آدرار وتگانت عند هذه المعركة. فقد قضى الأميران بقية الوقت في الترتيبات الداخلية. بدأ بكار حملة تقوية سلطته الداخلية في جنوب تگانت وفي الحوض وانشغل أحمد ولد سيد أحمد بالصراعات الداخلية في إمارته. ويبدو أن الأخير حافظ على تقاليد ابن عمّه الأميرية، وخصوصاً إكرامه للشعراء، فظلّوا يقصّدون الحِلّة للظفر من عوائدّها للأدباء المادحين؛ وهذا واضح مثلاً من مديحية عبد الله بن حبيب الله التامكلاوي (ت ١٣٢٧ هـ)، التي يُسجّل فيها الطلب على بلاط أحمد ولد سيد أحمد للكسب:

إنّي أقول لقومي والمطي بنا	تخدي وموج ظلام الليل معتكِر
حَثُوا المطي وأرخوا من أحزمتِها	فعند بابِ كريمٍ ينتهي السفر
باب بن عَيْدَة ومن يرحل بحاجتِه	إلى ابن عَيْدَة فمَحْتومٌ له الظفر ^(١)



إلى آدرار عاد أحمد ولد سيد أحمد وبدأ صراعاً قوياً ضدّ أولاد غيلان، الذين أراد إجبارهم على دفع مغرم رفضوا دفعه بحجّة أنهم موالون له. ولعلّهم كانوا دقيقين في ذلك في وصف الصراع؛ إذ كان في عمقه صراعاً على اكتساب الأمير. فالواقع أن ممارسات أحمد ولد أحمد كانت خرقاً لروح اتفاق امحيمدات، ولم يُخطئ أولاد غيلان في أن الأمير الجديد يُبعدُهم ويعصِفُ بدورهم التاريخي كأعوان الإمارة ويستبدل بهم أولاد أكشار، الذين انتقلوا الآن من أعداء الإمارة إلى وزرائها. وسرعان ما ولّدت إزاحتهم صراعاً مع أولاد أكشار، وأدّى الصراع إلى مقتل فارس الأخيرين، لحزام ولد معيوف. ثم تطوّر الأمر إلى حرب بين أولاد غيلان والأمير انتهت بمحاصرتهم له في داره وهدمها عليه ومقتله في عام ١٨٩٨^(٢).

(١) المختار بن حامد، حياة موريتانيا: الحياة الثقافية، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٠، ١٢٩.

(٢) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٥٦.

كانت السنوات اللاحقة سنوات حروب أهلية في آدرار دخل فيها أولاد بوسباع واركيبات وكننة وأولاد اللب، وتضعضت فيها المحلّة بحيث إن الأمير سيد أحمد بن أحمد ولد سيد أحمد تربّي في خارجها وبقي عند الشيخ ماء العينين حتى تقلّد الإمارة بعد سنوات من القلاقل في عام ١٩٠٣. في هذه الأثناء كان الاستعمار الفرنسي قد أسقط أو أشرف على إسقاط معظم الإمارات البيضانية الأخرى، وبعد ستّ سنوات سيحلّ الدور على إمارة آدرار نفسها.

إمارة إيدوعيش

«كان زعيمًا مسلمًا برئاسته»

باب ولد الشيخ سيديا عن أمير إيدوعيش

بعكس الروايات الملحمية عن كسر شوكة لمتونة التي رواها اللمتوني والكتني، كل بطريقةٍ مختلفة، فإن المجموعات المقاتلة اللمتونية لم تختفِ رغم استهدافها من سادة المكان الجدد: الحسانيون، ثم الحسانيون المغافرة. فبينما انتظم معظم لمتونة وجدالة ومسوفة في طبقة مستقرة ورعوية اندمجت في مجتمع الزوايا، فإن بعض العناصر المقاتلة انقسمت إلى المجموعات التي ألحقَ بعضها ببعض القبائل الحسانية حيث كوّنت أسافل الطبقة المحاربة وآزناكتها وأفنانها العسكريين. أما المجموعات المنيعة والعصية من هذه القبائل فقد استطاعت البقاء في آدار وتگانت مجسّدة مصير الصنهاجيين وكرامتهم. وستحمل هذه الخيالة على عاتقها عبء تحقيق وجودٍ مستقلٍّ للصنهاجيين على مدى القرون القادمة. وقد استطاعوا تحقيق ذلك في المنطقة الممتدة من آدار إلى الحوض من خلال إيدوعيش وإيديشلي ثم لاحقًا مشطوف وعناصر معتبرة من أهل سيدي محمود. أما الأرستقراطية الصنهاجية القديمة كانيرزيگ وبقايا اكّدالة (جدالة) في أرض الغبلة، فقد ذابت واختفت.

ربّما تقهقر الصنهاجيون من الشمال في تيريس، التي تقدّمت إليها أولى العناصر العربية المحاربة، فأووا إلى آدار باحثين عن فضاءات أكثر حرية.

فبحسب التقاليد الشفوية كانت سيوف العرب قاسية على الصنهاجيين في آدرار، وكانوا يقتلونهم على الهوية ويتعرضون حتى لأطفالهم فيقتلونهم في المهد. وتورد هذه التقاليد عادة قصة بنيوك ولد أوديكة، المنحدر من أسرة نبلاء صنهاجيين؛ إذ كان أبوه من أحفاد يحيى بن عامر، أخي أبي بكر بن عامر، وقد طاردتهم الإبادة الحسانية فتم إنجاؤه بإخفائه صغيراً وبإيكاله إلى أسرة من إيدوعلي بشنقيطي لتربيته بعيداً عن بني حسان. وفي تلك الأحضان أصبح أطفال الأسرة يطلقون عليه اسم «خنة» أو «أخ لنا». وسيتعرع «خنة» في تلك الأسرة وسيحمل على عاتقه مهمة الصعود بالمجموعة المقهورة، وسيصبح رأس أسرة أهل محمد من خنة التي ستصبح الأسرة السائدة في إيدوعيش وستنبع منها لاحقاً إمارة إيدوعيش في منطقة تگانت، الممتدة في حينه جنوب آدرار حتى نواحي النهر، شاملة جهات من لعصابة وكيديماغا الحاليين^(١).

ربما كان هروب الصنهاجيين إلى الجنوب هروب مجموعة نضالية في مواجهة مجموعات استئسادية، ولكنه كان في شيء منه انكماش علاقات نسبية لم تعد منتصرة. وفيما نجح إيديشلي في الإبقاء على حضورهم في آدرار بعد خرق تحالف المغفرة في معركة أفكام عام ١٦٧٢ والحفاظ على وجودهم في آدرار، فإن بقية العناصر وقعت تحت سيطرة أولاد امبارك الذين تنفذوا في تگانت والحوض بعد انهزام بعضهم في انساغيار في الغرب في عام ١٦٣٠. وهناك تأمروا على المحاربين هنالك بمن فيهم جماعات إيدوعيش ومشظوف. وبهذا المشهد في آدرار وتگانت تفككت المحددات القبلية-القومية لسياسات المجموعات الصنهاجية، بحيث تعربوا بسرعة وثاقفوا في التنظيم الاجتماعي العام، وأصبحوا حلقة من حلقات الصراعات بين المغفرة الذين كانوا يستخدمونهم في تحالفاتهم وعداوتهم البينية؛ وأصبحوا جزءاً من الأرستقراطية العسكرية البدوية. وبطبيعة الحال، لم يندمج كل هؤلاء أبداً في اقتصاد الغزوات وستفضل مجموعات كبيرة منهم إلقاء السلاح والانضمام إلى بقية المجتمعات الصنهاجية-العربية المتعلمة. وهكذا سيغادر كثير من «التياب» من إيدوعيش

(1) Ould Cheikh, Elements, 108.

وإيديشلي على مر القرون اللاحقة إلى إيدوعلي والأقلال وإيديبوسات وتجكانت وغيرها^(١).



ابتداءً من القرن السابع عشر بدأت نواة صنهاجية جديدة في التشكل من الأوضاع النسبية الصنهاجية المختلطة ولن تنتج قبيلة صافية، فسينضم إليها الجموع من إيديشلي ومن أولاد غيلان كما كان الحال في أولاد اعلي نتوتكة (الكحل) من الأنباط كما ستقوم فيها خؤولات كثيرة من أولاد امبارك وإيديشلي^(٢)، القبائل التي سيطرت على «أرض الحجرة» في المجال الممتد من ظهر آدرار إلى تگانت وشمال لعصابة في القرن السابع عشر فما بعده. ومع ذلك، فقد كانت جهود تكوين قبيلة ذاتية وقائمة، وربما عادت في جزء كبير منها إلى مبادرات امحمد بن خنة الذي ربما تحوّلت المجموعة في عهده إلى كيان سلطوي مهم وتحوّلت من فصيل اسمه من «إيدويدر» إلى «إيدوعيش»^(٣).

أصبح إيدوعيش كياناً أرسقراطياً متغلغلاً في العلاقات النسبية المحيطة بهم وأصبحوا جزءاً من النظام الاجتماعي الذي عزّزه، وإن لم يُنشئه صرفاً، العرب، فقد كانوا موجودين في المجال السلطوي لأولاد امبارك وأولاد بلّة وأولاد الناصر، وربما تحالفوا مع المحلة المغربية في أواخر القرن السابع عشر في دفع السودان وقهرهم^(٤). وهكذا دخلوا -عندما صاروا كياناً أميرياً- في لعبة القوى الحسانية واختاروا حلفاءهم بعناية، فشاركوا في معركة أم عبانة التي رصّت المغافرة ضد أولاد دليم في عام ١٦٩٥. ولكن سياساتهم في وسط الصحراء وجنوبها، في تگانت والحوض كانت مختلفة؛ إذ رضوا أولاً بالاستمرار في دعم المغافرة، وخصوصاً أولاد امبارك، حيث قاد عمر ولد محمد خنة قبيلته في إطار الاستنفار الكبير الذي استجاشه أولاد امبارك في معركتهم الحاسمة في كساري

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) الحسين بن محنض، تاريخ موريتانيا الحديث، ص ١٧٢.

(4) Lechatelier, 59.

في عام ١٧١٢، التي أنهت سطوة أولا بوفاييد. ويبدو أن أمير أولاد امبارك، هنّون ولد اعبيدي، الذي استطاع جمع تحالف واسع من السودان وأولاد الناصر وإيدوعيش، كان يوطّد هذا التحالف بالزيجات السياسية فتزوَّج من ابنة عمر ولد امحمد خنّة، وهو ما كان يعكس حالة من الندية والاصطفاء والقيمة السياسية. وسرعان ما تطوّرت هذه الوضعية إلى شبه استقلال سياسي، وذلك بعد أن توغّل أولاد امبارك في الحوض وبقي إيدوعيش في حديقتهم الخلفية في تكانت كقوة وحيدة فيها. وكان واضحًا أن أولاد امبارك قد انشغلوا بالأرباح في الحوض وتجاهلوا تكانت لوقت، ولم يكونوا عاملاً حاسماً في التفاصيل الداخلية لإيدوعيش وخصوصًا عندما نشب خلاف بين اعمر ولد امحمد خنّة وبين عمه، اعلي ولد اعمر، على سيادة إيدوعيش. كان اعمر قياديًا محنّكًا وسرعان ما أبعد عمه وأعلن الاستقلال عن أولاد امبارك، وذلك عندما رفض دفع المغرم لهم. وبطبيعة الحال، لم يقبل الآخرون بهذا. ويبدو أنهم استفادوا في هذه المرحلة من وعي المغفرة بوحدة مصيرهم وبتوحّدهم النسبي وبكونهم ما زالوا قادرين على ترجمته إلى تحالفٍ سياسي؛ فنجحوا في استنفارهم في حلف مقدس ضد إيدوعيش، وانضمت لهم المجموعات المقاتلة في الترازة والبراكنة وأولاد علّوش (وهم فصيل حسانى غير مغفري) وأولاد الناصر الذين هاجموا إيدوعيش في درغل عام ١٧٣٩، والتكاداي عام ١٧٤٦، وأكرادي عام ١٧٥٨-١٧٥٩. ومن الواضح أن الحرب كانت طويلة.

ورغم أن قدرة إيدوعيش على القتال لم تكن شافية دومًا في هذه الفترة إلا أن الأمير بكار، الذي خلف أباه، اعمر بن امحمد خنّة، حرص على توطيد استقلاله السياسي؛ وهو أمرٌ محصّه بمميّزات فنية وثقافية. وفي بداية القرن انصبّ اهتمامه على استقطاب سدّوم ولد انجرتو الذي كان تاج سلطة أولاد امبارك. فأراد الحصول على مغنٍ شهير كهذا بأي ثمن ليس فقط لقيمته التمجيدية؛ بل وربّما لقيمته السياسية، ورمزيته للاستقلال. وتتضح قيمة الفنان عند الأمير من خلال إغداقه عليه، حتّى إنّه أمر بتخصيص عوائد معيّنة له من كل قافلة. وكانت كلّ عائلة في مجال إيدوعيش تعطيه سنويًا رأسًا من الغنم عن كل فردٍ بالغ فيها، ما

جعله يحقق ثروة طائلة. وفي المقابل قال سدّوم أروع قصائده في الأمير الصنهاجي وفي قبيلة إيدوعيش عمومًا ومجد تاريخها وقدرتها على الصمود في وجه المحاربين^(١).



بلغت الطموحات السياسية لإيدوعيش مداها مع الأمير محمد شين الذي ورث والده بكار في عام ١٧٦٠، وكان من أقدر القواد العسكريين، فأصرّ على منعة مجموعته واستقلالها عن المغفرة. وقد صمد صمودًا بطوليًا في حصار احنيكات بغداد، قرب تجكجة في عام ١٧٦٠ عندما حاصره تحالف كبير من المغفرة يمثلّه أولاد امبارك والبراكنة وأولاد غيلان. واستمرّ هذا الحصار ستة أشهر. وبالنهاية رضي المُحاصرون بفكّ الحصار مقابل الحصول على مكافأة من أربعين حصانًا يدفعها إيدوعيش، المعروفون بجودة خيولهم^(٢).

لعلّ جزءًا من قدرة إيدوعيش على الصمود وبناء حلف مستديم كان قدرة امحمد شين على تأسيس عقد سياسي جديد في تگانت عرف بـ «سارت امحمد شين». ويعتقد المؤرخ والسوسيولوجي عبد الودود ولد الشيخ أن الأمر ربما تعلق بسرايا للأمير^(٣)، وخصوصًا أولاد طلحة المنضمين له، فيما يذهب دارس آخر إلى اعتباره نوعًا من العقد الاجتماعي قام فيه الأمير الصنهاجي بإلغاء المغارم عن القبائل التي حاربت إلى جانب إيدوعيش وخُفّفت فيه المغارم عن «اللحمة» مما جعل القبائل في تگانت تتحلّق حوله في حلقة أو «سارية»^(٤). وإضافة إلى هذا، فقد كسب الأمير ولاء أولاد طلحة ودعم سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم، الذي يقال إنه كان ذا تأثير فيه^(٥). وكان سيدي عبد الله عالمًا مجتهدًا رياديًا

(1) Poulet, 9.

(٢) بابا سيديا، ص ٩٦.

(3) Ould Cheikh, Elements, 110.

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن الدّي كما أُخيلَ إليه في: الحسين بن محض، تاريخ موريتانيا الحديث، ص ١٧٩.

(5) Abdel Wedoud Ould Cheikh. Nomadisme, Islam et Pouvoir politique dans la société maure précoloniale (XI^{ème} siècle -XIX^{ème} siècle): essai sur quelques aspects du tribalisme. Tome II. Paris: Paris V Reine Descartes, 1985, p. 409.

ذا تأثيرٍ واسعٍ في الصّحراء وزعيمًا اجتماعيًا لإيدوعلي، الذين هاجر تيارٌ كبير منهم إلى تجكجة واستصلحوها بعد انشقاق أهلي في عام ١٦٦٠^(١). ولعلّ امحمد شين يُعتبرُ الأميرَ الفعلي لإدوعيش بفعل تأسيسه لكيان سياسي جديد في تگانت، وبفعل استقلاله تمامًا عن أولاد امبارك، إضافة إلى إبعاده للمغافرة الذين حاربهم كلٌّ على حدة ونجح في صدّهم^(٢).

ولكي يحققَ أمير تگانت هذه الإنجازات فقد اعتمد على قوة مبنية على الخيالة السريعة وعلى فوارس محترفين سهّلت مهمّتهم أفراس تگانت، الشهيرة بجودتها، حيث كان يُستأنسُ الجواد المعقلي العربي المستقدّم من الشام، الذي كان يحتفظ بكل خصائصه «العربية» رغم تزاوجه مع الخيل البربرية^(٣). وكانت هذه الأفراس مطمح مقاتلي الصحراء، وبالأخصّ المغافرة الذين طالبوا ببعض منها في حصار احنيكات، وظلّوا على الطلب عليها حتّى بعد فقد إمكانية أخذها غفرًا أو حربًا. ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت إمارة الترازة ما زالت تسيّطورها من تگانت^(٤).

وقد اضطرّ امحمد شين إلى خوض حروب طويلة ضد الترازة تكبّد فيها خسائر عندما قُتل بعض إخوته، ولكنه استفاد من الانشقاقات في الترازة على الأمير اعمر بن المختار (١٧٣٩-١٨٢٩) فتحالف مع منافسه الحرون محمد بن اعلي الكوري (ت ١٨٢٦) ونجح معه في إذلال أمير الترازة القوي، عندما هاجموا محلته في أباح ونجحوا في قطع أذني زوجته^(٥). ورغم أن حليف امحمد شين في الترازة لم ينه سطة اعمر ولد المختار، إلا أن الأمير الصنهاجي خرج بطلًا من المواجهات وبقي حرًا في مساحات واسعة. وكان، بحسب سيديا باب بن الشيخ سيديا (ت ١٩٢٤)، «ينتجع من تگانت، دار مُلكه، إلى أرض تيرس

(١) إسلام ولد محمد المختار، أباه ولد محم عاشور، المعهد العالي للدراسات، نواكشوط، ١٩٨٣.

(٢) باب سيديا، ص ٩٦.

(٣) Hamet, 56.

(٤) Webb, "The Horse Trade", 228.

(٥) باب سيديا، ص ٩٧.

ونواحيها». وكان الأمر مصدر فخر شعري بالنسبة إليه^(١). واستمر أميراً قوياً حتى وفاته في عام ١٧٨٨، وذلك عندما أصيب في حادثة كان يشغل فيها ببعض البارود فقتله^(٢).



ربما كان الصراع بين الأعمام والأبناء الملمح الأساسي في الصراعات السلطوية في تگانت، وهو مشهدٌ حدث مراراً وتكراراً في تاريخ إمارة إيدوعيش على عكس بقية الإمارات التي لا يشاهد فيها دورٌ كبير لأخي الأمير، باستثناء آدرار، وفي أحيان نادرة، وبشكلٍ شبيه وربما أقلّ لدى أولاد امبارك. فبعد الصراع بين اممر بن امحمد خنة مع عمه، اعلى ولد اممر، تكرر المشهد نفسه بعيد وفاة امحمد شين بعد عام ١٧٨٨. فبطبيعة الحال، قدّم بكار وهو ابن امحمد شين نفسه وريثاً شرعياً لأبيه، وقد دعمه تيار واسعٌ يعرف بـ «البهواكة»، التي ربما عنت التحالف الواسع وغير المتماسك، وربما كان الأمر كناية عن قوى غير متجانسة عصبياً. أما أعمام بكار فقد تحالفوا مع بقية القبيلة وقدموا العم الأكبر، سيد أحمد ولد بكار، على الأحق بالإمارة. وعُرف تحالفهم بـ «المكروزة»، تسمية عنت التماسك، وربما أحالت إلى علاقات قرابية متقاربة جداً.

التقى الطرفان المتصارعان على الزعامة مراراً في معارك ومناوشات. وفي عام ١٧٩٢ لم ينقشع غبار المعركة الضارية في غابو إلا على العم، سيد أحمد، صريعاً. ولكن تحالف الأعمام لم ينحذل لدى هذه الكارثة واستطاع أطراف الحلف لملمة الصفوف ومواجهة البهواكة في تنبوزكري في العام الموالي، وأدت المعركة بين الطرفين إلى قتل بكار ولد امحمد شين نفسه. ولكن المكروزة لم يستطيعوا متابعة انتصارهم خصوصاً بعد الثام البهواكة خلف أمير جديد هو محمد ولد امحمد شين الذي هزمهم في عام ١٧٩٣. وهكذا غادر مقاتلو البهواكة سجلّ الفرسان وأصبحوا تياراً لدى قبيلة مسومة المتديّنة.



(١) نفسه، ص ٩٨.

(٢) باب سيديا، ص ١٠٤.

بعد معركة اكلية الشبار التي سقط فيها قياديون في المكروزة ثم فروا، فسح المجال للأمير محمد ولد امحمد. ويبدو أنه كان ذا مطامح إقليمية تتعلق برغبته في إيجاد منفذ جنوبي، فشرع في عهد من التورط في المواجهات في أطراف تكانت ولعصابة فتابع الحرب على وجود أولاد امبارك في مجاله في عام ١٧٩٤ في موقعة البيجوح^(١). وفي عام ١٧٩٦ حقق انتصاراً مهماً عليهم^(٢). ويبدو أن جزءاً من الصراع كان يتعلق بأولاد الناصر، حلفاء أولاد امبارك الذين وصلوا الحرب مع إيدوعيش حتى بعد قنوط أولاد امبارك من إعادتهم إلى الحظيرة السياسية. وربما كان إصرار أولاد الناصر عائداً أساساً إلى كون معظم عوائلهم كانت في المجال الذي سيطر عليه إيدوعيش. وهكذا نشبت المواجهات بينهم في البيجوح وفي أير في عام ١٧٩٩، التي يبدو أنها أنهت إغراء أولاد الناصر بالمعارك، وإن كان حلفاؤهم في عداوة إيدوعيش، أولاد امبارك، سيحاربون إيدوعيش في معركة خاسرة في سنكطرة في عام ١٨٠٤^(٣).

ولا شك أن انزياح أولاد امبارك وأولاد الناصر أعطى للأمير إيدوعيش فرصة جديدة لمتابعة تورط والده في الغرب، فتابع دعم المعارضة في الترابزة واستمر في دعم ولد اعلي الكوري، الذي لم تخفت مطالبه بإمارة الترابزة؛ كما تورط في صراع البراكنة الذي قسم أولاد السيد وأولاد نغماش فدعم الأخيرين، الأسياد الأصليين لكن المتراجعين بفعل النفوذ التجاري والعسكري لأولاد السيد. وربما فتح هذا الاحتكاك بالإمارات المبنية على العلاقات التجارية مع فرنسا عينيه على حجم الأرباح التي توفرها حماية تجارة الصمغ مع الفرنسيين، فحاول فتح منفذ على النهر، ونجح في ذلك عندما استطاع التعاون مع الفرنسيين في بناء محطة بگل (باكل السنغالية)، الموجودة بجوار مجتمع من المهاجرين الجولوف منذ القرن الثامن عشر والواقعة على ضفة النهر في شرق السنغال، والتي أصبحت

(١) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٦٨.

(٢) حسب سردي عبد الودود ولد الشيخ.

(٣) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ١٨٦-١٨٧.

مصدر دخل مهمّ لإيدوعيش^(١)، خاصّةً بعد بناء الفرنسيين لحصنها في عام ١٨٢٠ وتحولّها إلى محجّ تجاري. وسرعان ما صار إيدوعيش حماة المجتمعات النهرية الزراعية وتغلغلوا إلى مجال النهر مُستقْدِمين إليه تجارتهم، خصوصًا في كاران وكيديماغا حيث سيعرفون بين سكان المنطقة باسم ديوناغي Diounagués التي ربما كانت مشتقة من صنهاجة^(٢).

توفيّ محمد ولد امحمد في عام ١٨٢١ بعد سبع وعشرين عامًا في الحكم تمّ فيها بسط نفوذ إيدوعيش في مجال ثريّ واسع يمتد من أعلى هضاب تكانت إلى المصبّ الشرقي في نهر السنغال وشمال الركيبة ولْعصابة، وتمكّنت من خلاله عناصر كثيرة من القبيلة من الانخراط في التجارة مع السودان، ربما على حساب الاعتماد على الحروب والغزوات.



ومرة أخرى، تکرّر صراع الإخوة والأعمام في تاريخ إيدوعيش بعد وفاة محمد ولد امحمد شين. إلّا أنه لن يُحسَم هذه المرة، وسيتحوّل الشرخ السياسي إلى شرخ هوياتي طويل الأمد. فقد خلفَ الأمير المتوفّي ثلاثة رجال أقوىاء في الإمارة: بوسيف والمختار اعلي (حسب عبد الودود ولد الشيخ) وسيد الأمين^(٣). وربما كمن أساس الصراع في تكوّن مجموعات متمصلحة وقويّة متحلّقة حول أطراف السلطة، فلم ينفجر التحارب فيما بينها إلّا بعد وفاة الأمير. وقد اصطفّ الأبناء خلف الابن البكر للأمير الراحل وهو اسويد أحمد، وقد عُرفوا بـ «الشراتيت»، بينما تحلّق الأعمام من أبناء محمد شين حول العم الأكبر، المختار، مؤسّسين تحالفًا يدعى «أبكاك». وكان المختار شخصًا كاريزميًا وقائدًا مهيبًا، فقد وصفه الشيخ باب بن الشيخ سيديا بأنه أحد أعظم أمراء إيدوعيش جنبًا إلى جنب مع محمد ولد امحمد شين وبكار ولد اسويد أحمد^(٤). أما اسويد

(1) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonneuves Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p. 186.

(2) De Lartigue, 48.

(٣) نفسه.

(٤) بابا سيديا، ص ١١١.

أحمد فقد كان يمثل الوراثة الشرعية للحكم من منظور خلافة الابن لأبيه.

وبينما تذهب المصادر البيضانية في القرن العشرين إلى إرجاع ألقاب «الشراتيت» و«أبكاك» إلى شعارات حربية مايزت الجَمْعَيْن، فإن بعض المصادر الأوروبية المُعاصرة لحرب إيدوعيش هذه، التي بدورها نقلت مصادر البيضان في تلك الفترة، أعادت التسميات إلى مجاعة اضطرَّ فيها «أبكاك» لأكل الصَّمغ أو الكندر الأسود، الذي هو نبات بري يُعرف محليًا بـ «أبكاك»، وأكل فيها المناوئون لهم جلود الأبقار فسموا بـ «الشراتيت»، أي الضباع. إلا أن روايات أخرى تقدّم سردًا مختلفًا، فقد قدّم أحمد بن الأمين الشنقيطي، الذي عاصر الانقسام اللاحق من هذا الصراع، شرحًا مقتضبًا ربما ينبع من خلفيته السياسية الزاوية ويحمل نقده: «الشراتيت» سمّوا كذلك لنهيبهم أموال الناس؛ و«أبكاك» سمّوا بذلك لكثرة «ما فيهم من أطراف الناس»^(١). وبالنسبة إلى مصادر فرنسية أخرى معاصرة فقد تعلّق الأمر بقصة حربية أخذ فيها «الشراتيت» زمام المبادرة عندما هاجموا اسويد أحمد وسلبوه من ممتلكاته وهزموه هزيمة كبيرة جعلت عناصره تفرّ وتشتّت. وكانت فترة الهزيمة الأولى هذه فترة محنة لأبكاك الذين أوا إلى المجال الصحراوي من تگانت، وهو مكان خالٍ من الثروات بحيث لم يعد أمامهم غير تنقيح الأشجار من العلك الأسود، المعروف بأبكاك، وبيعه ما جعل أعداءهم يسخرون منهم بلقب «أبكاك». وقد ردّ «أبكاك» بتسمية أعدائهم بالضباع أو «الشراتيت»^(٢).

ومهما يكن من أمرٍ، فقد كان الصراع الأهلي صراعًا على المداخل من محطة باكل، المعروفة لدى البيضان ببُكل، أكثر مما كان صراعًا على السيادة أو الزعامة الاسمية، وإن كان ذلك بُعدًا لا يتجزأ منه؛ إذ كان إيدوعيش يبيعون ما بين ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من الصمغ سنويًا في باكل^(٣). كما كان في بُعدٍ منه انقسامًا جهويًا في

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديدًا وتخطيطًا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مصر: المطبعة الحالية، ط ١، ١٩١١، ص ٤٦٥.

(2) De Lartigue, 48.

(٣) فرانسوا كاي، في: ولد محمذن، وثائق من التاريخ الموريتاني، ص ٨٨.

نواح واسعة من مجال تگانت التاريخية؛ إذ كان لكل طرف من «أبكاك» و«الشراتيت» طرفٌ من الحلفاء ومن الملحقين والدائرين في ركبته من المستفيدين من عوائد التجارة والحملات؛ فكان لادم في مجال «أبكاك» في منطقة الركيبة، بينما كان مشطوف، الذين بدأوا يحققون أرباحاً مهمة في هذه المرحلة وذلك قبل استقلالهم بإمارة منفردة، يدخلون في حلف «الشراتيت». واستطاع «أبكاك» تكوين حلف من كنته، فيما استطاع «الشراتيت» تأمين الدعم الروحي من أهل سيدي محمود، الذين أصبحوا قوة روحية صاعدة في المنطقة منذ النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وقد نجمت قوتهم من نفوذ شيخهم المرباط سيدي محمود (ت ١٧٨٦) الذي أصبح زعيماً روحياً لكثيرٍ من الأتباع، وقدم إلى تگانت واستطاع تكوين فيدرالية قبلية متشعبة متحلقة حول نواته الأسرية ثم توسعت إلى أهل سيدي محمود، الذين حاك بهم تحالفاً مع الأمير محمد وذلك بعد نجاح «احجابه» أو تعويذته ضد أولاد امبارك في عام ١٧٩٦، وزواج ابنه عبد الله من ابنة الأمير. وقرّر أهل سيدي محمود المضي في خيار دعم الجيل القديم من أهل محمد شين بدلاً من الأبناء وأنصارهم^(١)، خصوصاً وأن كنته، أعداءهم، قد انضموا لأبكاك^(٢).

إلا أن «أبكاك» لم يكونوا طرفاً خاسراً كما تقدّمهم الصور من المعارك الأولى، فسرعان ما بدأت الكفة تميل لهم في معارك النوادر في عام ١٨٢١، ثم في شكار عام ١٨٢٢، ثم في أرادان عام ١٨٢٤، التي انتصروا في معظمها، رغم أن «الشراتيت» حافظوا على تماسكهم بعد وفاة أميرهم بكار في عام ١٨٢٦. ولكن ضعفهم وعدم ظهور زعيم أوحد لهم كان بمثابة نصر سياسي لاسويد أحمد، وأعطاه صفة الرجل الأهم في إيدوعيش قاطبة^(٣).

على أن انتصار اسويد أحمد، هذا إن صحّ اعتباره كذلك، لم يعن أنه كان الزعيم الوحيد، أو الموحد، لإيدوعيش. فبعكس انشقاق «المكزوزة»

(1) Ould Cheikh, histoire, 112.

(٢) الشيخ سيديا بابا، ص ١٠٩.

(3) Ould Che?kh, Histoire, 112.

و«البهواكة»، فإن انقسام «الشراتيت» و«أبكاك» تحوّل إلى حقيقة مستديمة جغرافيًا وسياسيًا واقتصاديًا بل وحتى ثقافيًا. ويُعطينا استقطاب الإيغاون ما بين الجناحين فكرة عن التباين في الهوية بينهما. فقد انضمّ المُغنيّ الشهير، الجَيْش، الابن البكر لسدّوم ولد انجرتو، إلى حلف أبكاك، بينما انضمّ أخوه، أحمد دية، الابن الأصغر لسدّوم، إلى الشراتيت. وكانا يمجدان المحاربين ويحصلان على الأموال من الأفراد المستثمرين في الصراع^(١). أما من الناحية الجغرافية والاقتصادية فقد سكن الشراتيت في الجنوب الغربي من تگانت حيث ظلّوا يفرضون الضرائب على القوافل التجارية التي تمرّ عبر مجالهم، واستمرّوا يفرضون الغرامات على القبائل التي تقع في جوارهم وعلى المزارعين السود فيما وراء النهر، الذين كانوا يعتبرونهم حمايتهم ويدفعون لهم لقاء الكفّ عنهم أو حمايتهم. أما الغزاة في الشراتيت فكانوا يسيحون في المجال مشكّلين غزوات وسرايا سريعة، وكانوا يهاجمون «السوادين» في منطقة النهر ويأخذونهم عبيدًا. وسيقرّر الفرنسيون في عام ١٨٩٤ شراء السلام منهم باتفاقية موقعة مع M. Godel يدفعون فيها القماش الغيني مقابل تراجع الشراتيت عن الهجمات. ولم تكن هذه الاتفاقية كافية للأمرء الشراتيت في لجم الغزاة عن مصدر رزقهم. فقد شكّى المستكشف والإداري الفرنسي لارتيج من أن الشراتيت لم يحترموا الاتفاقية.^(٢)

وبطبيعة الحال، لم يكن هؤلاء الشراتيت في أغلبهم عصابات مقاتلة؛ ذلك أن مجموعات أخرى منهم كانت تنتهج تجارة العلك وتشحنه إلى باكل وماتام، وكانت تباع القطعان في السودان بدرجات محدودة^(٣). وفي المقابل أنهى أبكاك، القاطنون شرق تگانت وشمالها وفي شمال لعصابة، عهد «سارية امحمد شين» في عهد الأمير اسويد أحمد، الذي يبدو أنه بدأ في فرض المداراة على بعض قبائل تگانت، متخلّصين من الشراكة الأمنية معها^(٤).

(1) Poulet, 9.

(2) De Lartigue, 48-49.

(٣) نفسه.

(٤) سيديا بابا، ص ١٠٤.

وربما كان للتدخلات الخارجية الدور الأبرز في إطالة انشقاق الشراتيت وأبكاك وتحويله إلى حقيقة مستديمة؛ ذلك أن الحاجة المتعلقة بصراعات أهلية في البراكنة مثلاً دعت إلى تحلُّق أولاد نغماش، الحلفاء القدماء لمحمد شين، مع أبنائه من أبكاك؛ وفي المقابل كان غرماؤهم، أولاد السيد، يدعمون الشراتيت، وهو التحالف الذي قوّته العلاقات القرابية إذ كانت بينهم خؤولة^(١).



بقي الشراتيت قوة متماسكة بعد وفاة أميرهم بكار وبائعوا عثمان ولد المختار. ولم يستطع اسويد أحمد إذابة الشراتيت، فكان ذلك خطأه التاريخي؛ إذ قتله هؤلاء في عام ١٨٢٩. وقد خلفه أخوه سليمان ولد امحمد شين. وكان من سخرية الأقدار أن الأعمام، الشراتيت، الذين ثاروا في السابق في الدفاع عن شرعية الأخ بعد وفاة محمد شين، قد تحلّقوا الآن حول شرعية ابن أميرهم، عثمان؛ أما الأبناء في أبكاك، الذين دافعوا يوماً عن شرعية الابن، فقد تحلّقوا حول شرعية أخي أميرهم، سليمان ولد محمد شين. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حرب الوراثة على إمارة محمد شين. وكان العامان ١٨٣٠ و ١٨٣١ حاسمين في هذه المرحلة منها. في العام الأول لقي سليمان مصرعه، وفي العام الثاني تبعه عثمان في معركة اركيز.

ولم تلق الأطراف المتصارعة أسلحتها، وإنّما قامت بتجديد المعارك تحت زعامة محمد ولد اسويد أحمد الذي صار قائداً لأبكاك، وعبد الله ولد محمد شين الذي أضحي قائداً للشراتيت^(٢). ومرة أخرى انتصر جناح الأبناء على الأعمام، وخرج محمد ولد اسويد أحمد، أمير أبكاك، منتصراً. وهو ما سمح له بالمحاربة إلى جانب أولاد نغماش ضد الأمير أحمدو، زعيم أولاد السيد، وخصوصاً في معركة جوكة التي خسر فيها خسارة ملفتة^(٣). وفي تكانت أيضاً لم

(١) عبد الودود، ص ١١٣.

(2) Ould Cheikh, Elements, p. 112.

(3) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonnewes Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p. 194.

يُدم انتصاره طويلاً، فقد استطاع الشرايتت تكرار التاريخ ونجحوا في اغتياله. وهذه المرة سيدخل تاريخ إيدوعيش عصرًا إضافيًا من الانقسامات عندما دخلت المجموعتان المتصارعتان في صراعات داخلية على القيادة، ففي جانب الشرايتت تصارع الرسول ولد اعلي ولد محمد شين مع ابن عمه المختار ولد أحمد ولد المختار. وكان الرسول ولد اعلي قياديًا تُصوّرُه الروايات دومًا أنه انتهازي، وقد عمل على وصاية ابن أخيه، أحمد ولد اعلي، الذي كان صغيرًا، بعد وفاة عثمان. ولكنه سرعان ما أراد استغلال حكمه بالوصاية للاستئثار بالسلطة حتّى عندما بلغ ابن أخيه الرشد، وهو الأمر الذي نجمت عنه حرب أهلية في «الشرايتت». وبعد لأي انهزم تحالف الرسول وتسلم أحمد حكم الشرايتت حتّى وفاته في عام ١٨٧٠. وسرعان ما ظهر الرسول مرة أخرى وسيطر على مقاليد الأمور في وجه أولاد أحمد بن اعلي الذين قادهم ابنه المختار^(١). وكان الصراع مع المختار صراعًا طويلًا هو الآخر وتواجه فيه الطرفان مرارًا حتّى اضطرّ الرسول، الذي عرفه الفرنسيون باسم بوسول، إلى التنازل بعد تبين قوة ابن عمه^(٢)، رغم أنه ظلّ يتمتع بمستوى قويّ من السلطة في الشرايتت كما تشهد بذلك زيارة دودو سك المعروف بولد ابنو المقداد لمجال إيدوعيش في عام ١٨٩٤، حيث أصرّ الرسول على أن يحصل على القطع نفسها من القماش الغيني التي كان يعطيها الفرنسيون للمختار، باعتباره حامي حمى منطقة مقامة، الواقعة في المنطقة النهرية بگورگول^(٣). بل إن لارتيج، المعاصر للأحداث، يعتبر، وهو ما تدعمه الإشارات، أن المختار لم يتسلم الحكم عمليًا إلا بعد وفاة الرسول^(٤).



في الوقت نفسه كان تحالف أبكاك يشهد صراعًا بالموازاة ما بين العم عبد الله ولد محمد شين، الذي سبق أن صارع من أجل الإمارة، وبين شاب حدث السن

(1) De Larigue, 48.

(2) Ould Cheikh, Elements, p. 113.

(٣) محمدو بن محمدن، وثائق من التاريخ الموريتاني، ص ١٣٢.

(4) De Lartigue, 48.

من أبناء اسويد أحمد، سيعرفه التاريخ على أنه واحد من أبرز الأمراء وأطولهم عمراً: بكار ولد اسويد أحمد. في عام ١٨٦١ قدّم ماج، عينُ فرنسا على المنطقة، تقريراً عن بكار، ولخصه في أنه سيد من أسياد الحرب وأنه مقاتل بارع. ولكنه قدم معلومات أكثر خصوصية: رغم أن البيضان كانوا يتكلمون عن ثروة بكار وامتلاكه لثلاثين خيلاً عربية أصيلة، إلا أن ماج لم يشاهدها عند قدومه إليه بل صرّح بأنه لم يكن يمتلك غير ثلاثة مهور جميلة. ورغم أنه لم يكن ثرياً، بحسب ماج، إلا أنه «لم يكن ينقصه شيء»؛ بسبب الضرائب التي كان يفرضها على الزوايا لقاء حمايته لهم من الغزوات. وكان يمتلك الكثير من الإبل ولكنها كانت دوماً في عهدة زوجته وبناته وعبيده، بحيث إنه كان يضطرُّ إلى الاستدانة منهم كلما أخذ منها واحدة^(١). ولعلّ هذا هو الكرم الذي مدحه به امحمد بن محمد اليعقوبي:

بَكَارُ إِنَّكَ رَوَّاحٌ وَبَكَارُ لِّلْمَكْرَمَاتِ وَبَكَارُ وَضَرَّارُ^(٢)
على العموم، فقد نجح بكار ولد اسويد أحمد في أن يكون أحد أهمّ رجالات الصحراء بسبب نمودجه في الزعامة، وبدورها كمنت هذه الزعامة في إتاحتها أدواراً لحلفائه؛ فهو كان يمثل ديمقراطية القبائل الرعوية في أكثر جوانبها عملية، فلم تكن خيمته مُستعصية على ذوي الحاجات والمتطفلين، الذين كانوا يطرقونها دوماً. بل كان يضطرُّ إلى تغيير مكانه ثلاث مرات في اليوم من أجل الحصول على قليل من الخصوصية. ولم يكن يفعل شيئاً من دون استشارة شيوخ الجماعات المؤيَّدة له، الذين كانوا بدورهم يستشيرون حلفاءهم في كل صغيرة وكبيرة^(٣).

سرعان ما حسم هذا الشاب صراع الوراثة وأقصى عمه، عبد الله؛ وسرعان ما

(1) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonneuves Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p. 194-195.

(٢) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك، مصر: المطبعة الحالية، ط١، ١٩١١، ص ١٩٣.

(3) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonneuves Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p. 194-195.

حسم الصراع مع الشرايت بآن صار زعيم إيدوعيش الأوحد، رغم أنه لم يستطع تحقيق انتصار جده، محمد شين، بإذابة الطرف المنافس إلى الأبد. وبقي الشرايت شوكة في خاصرة بكار، وإن أذعنوا له أحياناً، واستمروا في التمايز السياسي والجغرافي عن أبكاك.

وفي بداية القرن العشرين تحدّث معاصر لبار، هو باب بن الشيخ سيديا، عن نموذج السلطة في إيدوعيش فاعتبر أن بكار كان زعيماً مسلماً برئاسته ولكنها كانت «في بعض الأحيان شياخة غير حقيقية»^(١). فصحيح أنه نجح في توحيد السلطة السياسية أحياناً؛ إذ كان الشرايت ينضون تحت لوائه في الهجوم على الطرف المناوئ له من كنتة، على الأقل حتّى عام ١٨٩٤^(٢)؛ إلّا أن زعماءهم كانوا مستقلّين جبائياً، وظلّوا يحصلون على الامتيازات من سلطاتهم العسكرية والحماية، وخصوصاً في منطقة مقامة، بمنطقة كورگول، التي كانوا يسيطرون عليها ويحصلون منها على الإكراميات الفرنسية، حسب اتفاقية ١٨٩٤^(٣)، بينما كان أبكاك يستمدون عائداتهم من باكل ومن الضرائب على العبور إلى السودان والمتاجرة فيه. (بل إن بكار سيفرض سلطته على كيدماغا ويفرض الضرائب على سكانها في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر)^(٤).

وبهذا المعنى فهم لم يتبعوا لبار إلّا سياسياً. وهي تبعية، وإن كانت نسبية، فقد كانت مهمّة، وقد عادت لشخصية وكاريزمية بكار ولد اسويد أحمد أكثر من غيره، ولعلّها عادت أيضاً إلى المشاعر العامة التي مثلها باعتباره الزعيم الأكثر مهابة، وبالتالي الأجدر بقيادة عموم القبيلة وقت المحن؛ فاستطاع رصّ الشرايت خلفه كلما تعلّق الأمر بأمن الإمارة المباشر أو بتعرضها للهجمات أو تعلّق بتنظيم حملات ردّاً للكرامة، كما رأينا ذلك في المعارك مع إمارة آدرار (انظر الفصل

(١) سيديا بابا، ص ١١٣.

(٢) وثائق، ص ١٤٠.

(٣) وثائق، ص ١٣٧-١٣٨.

(4) Ibrahima Abou Sall, Mauritanie du Sud: conquête et administration coloniales française 1890-

1945. Paris: Karthala, 2007, p. 160.

السابق). ولا شك أن جزءاً من هذا النجاح عاد إلى استثمارات بكار في صراعات الشرايت الداخلية؛ فقد دسّ أنفه في حروب وراثتهم، وساعده ثقله السياسي في إبعاد جناح اعلي ولد محمد شين إلى الأبد، وذلك بعد دعم جناح المختار ولد محمد شين في عام ١٨٧٠. ولهذا السبب كانت له يدٌ على الزعامة في الشرايت، فاستغلّها خصوصاً في الأغراض العامة.

ولعل السبب الأهم في جعل بكار يربح في لَم الشرايت تحت قيادته، هو استشعار العناصر المتحاربة من إيدوعيش خطر مشظوف الذين بدأوا يظهرين في مجال لعصاة بصفتهم خيالة ضاربة وقوة سياسية ملحوظة وخصوصاً عندما انتزعوا حلفاء الشرايت، أهل سيدي محمود، لصالحهم وذلك على وجه معركة بين الطرفين، كما حقّقوا انتصارات مهمة على معظم قبائل المنطقة. وكان هذا الشعور بالخطر عاملاً مهماً في تحفيز إيدوعيش على التوحد بدءاً من عام ١٨٨٠، فرَضُوا بقيادة بكار، جاعلينه الأمير الأهم فيهم. كما استفاد إيدوعيش من دعم كتلة الذين لولاهم لانهزموا من قبل تحالف أهل سيدي محمود ومشظوف^(١). ورغم هذا، فإن الحساسيات بين أبكاك والشرايت بقيت قائمة. وسيضمن بكار ولد اسويد أحمد تنامي الانشقاقات في خصومه وخصوصاً عندما استقطب السواكر، وهم الجناح المنشق من أهل سيدي محمود وأعداء الشرايت. أما الشرايت فسيحصلون على دعم مهم من الأعداء الجدد لتكّانت في آردار^(٢).



غير أن شأن بكار الحقيقي كان في مكاسبه من السياسات خارج مجال إيدوعيش. فابتداءً من العام ١٨٤٥ دخل في صراعات البراكنة ربما لسببين؛ الأول: هو تحقيق انتصارات في البراكنة من أجل كسب موقفه الداخلي في تكّانت، فحارب سيد اعلي بن أحمد ومحمد بن هية في البراكنة^(٣). والثاني: من أجل تقوية مركزه في المحطات التجارية وموقفه التفاوضي مع فرنسا. بل

(١) De Lartigue, 48.

(٢) نفسه، ص ٤٨-٤٩.

(٣) بابا سيديا، ص ١١٣.

وحارب التارازة البعيدة واصطدم مع اعلي بن محمد لحبيب وأحمد سالم بن محمد لحبيب، الذي استطاع صدّ قوات بكار^(١). ولقد جعلته ولاءاته المتنقلة ما بين أطراف أولاد السيد يحصل على عائدات من بودور ابتداءً من ستينيات القرن^(٢). كما فرض نفسه في باكل وحصل منها على الإكراميات الفرنسية لقاء ضمان التجارة الحرة. وكما نعرف من الفصل السابق، فقد دخل بكار بقوة في صراعات آدرار وربحها، قبل أن يدعم قتل ابن أخته الذي صار أمير آدرار، ما أسفر عن حروب كبيرة مع آدرار.

مع تسعينيات القرن التاسع عشر بدأ بكار يستشعر الخطر الفرنسي، خصوصاً بعد سيطرة الفرنسيين على كيديماغا في عام ١٨٩٠، بعد أن تحالفوا مع أعيان التكرور والسونينكي الذين خافوا من قهره لهم^(٣). وفي العام ١٨٩٣ بدأ أمير إيدوعيش في السير لتعبئة حملة ضدّ الفرنسيين دون أن تسفر جهوده عن أي جدوى. وفي العام الموالي ذهب إلى زعيم أهل سيدي محمود، سيدي المختار، وأراد عقد حلف معه لمهاجمة الفرنسيين وطردهم من كيديماغا، التي كانت تابعة لأبكاك، حسب اعتراف الكاتب الاستعماري لارتيغ. ولكن سيدي المختار رفض. وفي عام ١٨٩٦ استطاع الفرنسيون دفع جهود بكار باتفاقية وقّعها شودي M. Chaudie مع أبكاك تمنعهم من الهجوم على القوافل مقابل ١٠٠٠ قطعة من القماش الغيني، وهو ما حقّق السلام في المنطقة، حسب تقييم لارتيغ. إلّا أنه كان سلاماً مهذّباً وخصوصاً عندما حشد إيدوعيش قوة كبيرة وأرادوا بها مهاجمة سيليبابي وكيديماغا في مايو عام ١٨٩٦، في غزوة طموحة كانت تنوي أيضاً الهجوم على دائرة نيورو ونهبها^(٤).

لم ينتهِ القرن إلّا وكان إيدوعيش يمثّلون قوة كبيرة من ١٢٠٠ من المشاة و٣٠٠ من الخيالة الماهرة، وكانوا يصلون إلى ٣٨٠٠٠ (٢٠٠٠٠ من الشرايت و١٨٠٠٠

(١) نفسه.

(2) Raymond Taylor, "Blood Money in the 19th century," p. 428

(٣) إبراهيم أبو صال، مصدر سبق ذكره.

(4) De Lartigue, 48.

من أبكاك^(١). بهذه القوة بدأ بكار في مواجهة التغلغل الفرنسي مع مطلع القرن. وسيبقى محاربًا ومراوغًا حتى سقوطه في معركة بوكادوم في الفاتح من أبريل في عام ١٩٠٥ وهو على أعتاب المائة.

(١) نفسه.

رئاسيات وزعامات ومشيوخيات (١٧٠٠-١٩٠٠)

«هم شرطة الصحراء»

زائر فرنسي في عام ١٨٦٠

لم يعن وجود إماراتٍ كبيرة في الصحراء أن هذه الإمارات بسطت ملكها في كل المجال الذي عُرف بـ «تراب البيضان»؛ ففي مجالات كثيرة، خارج الامتداد الترابي للإمارات، وكثيراً ما داخله، بقيت المجموعات السياسية القبلية المُغايرة تمارس حياتها بشكلٍ مستقلٍّ ولم تكن تُفَهَر، أو تُغَرَّم، من قبل السلطة الأميرية إلا وقت عبور قوافلها المناطق المحمية من قبل الأمراء حيث كانت تضطر إلى دفع المدارة خوفاً من النهب. بعض هذه القبائل كان يدفع ضرائب مختلفة، وبعضها كان يأمن من التغريم بفعل منعه وعزته. وكان هذا يتعلّق أساساً بكثيرٍ من القبائل الراوية التي كسبت حرمةً وحظوةً بفعل تعلّمها وذيوع اقتصادها الروحي المتمثّل في شساعة أتباع زعمائها وعلمائها وتعدّد علاقاتها وسلطتها الروحية.

فيما عدا بعض الإمارات وبعض المجموعات المرابطية كانت هنالك أيضاً في داخل المجتمع الصحراوي قبائلٌ مستقلة وغارمة، بل وتمارس نفس أدوار الإمارات وإن في شكل أضيق وعلى رقعة أرضية أقلّ امتداداً. وكانت هذه الإمارات الصغيرة أو الرئاسيات عبارة عن سلطات قبلية معترف بها، ذات سلطات وراثية، واستطاعت بفعل الاعتراف بها داخلياً وخارجياً الحفاظ على الزعامات

السياسية الوراثية والانتظام في تشكّلات سلطوية اجتماعية صغيرة، وفي أوقات الحاجة استطاعت حشد التحالفات وحماية قبائلها وممارسة التغريم والاستفادة من اقتصاد الغزوات.

كان انتشار هذه الرئاسيات الحسانية يتبع الديناميكيات نفسها التي ولّدت الإمارات الكبيرة مع مطلع القرن السابع عشر. وكان توزّعها أيضًا شاملاً لكل البقاع الصحراوية. وغالبًا ما كان الأمر يتعلّق بقبائل محاربة معتمدة على الخيالة الضاربة وعلى المهارات القتالية الفردية لأتباعها، وكانت حظوظها تتوقّف على حنكة قيادتها السياسية وعلى ائلافها وعدم تشرذمها.

ولم يكن صغر الرئاسيات يعني دومًا تقرّصها مقارنةً بالإمارات، بل كانت قادرة على هزم الإمارات أو تقليص نفوذها أو انتزاع الاستقلال منها بالقوة، وإن كان من العصي إنكار أن معظم الإمارات الكبيرة بدأت مجرد رئاسيات أو زعامات عائلية صغيرة كما كان حال أولاد بركني وأولاد أحمد بن دامان، وكما كان حال أسرة حمو أو أسرة عثمان في آدرار، وكما كان حال العوائل الأميرية المباركية، التي ربما لم تتطوّر إلى إمارة موحدة بل بقيت لا مركزية متشتّية، وأخيرًا، كما كان حال أسرة محمد خنة في إيدوعيش التي بدأت رئاسية صنهاجية مقاتلة إلى جانب أولاد مبارك قبل أن تنفصل عنهم بتگانة والركيبة وتتغلغل حتّى كوركول وكيديماغا وبّكل.

ورغم أن معظم الرئاسيات تعود إلى أصول بعيدة وإلى تنظيمات سياسية ذات أصول، إلا أن منحى قوتها لم يكن دومًا تصاعديًا؛ إذ كانت تمرّ بفترات مدّ وجزر حسب المعطيات القتالية والتنظيمية. ولهذا ظلّ بعضها قرونًا في فترة رعوية عادية قبل أن يستفيد من ظروف موضوعية وذاتية ليتحول إلى قوة مهمة وأساسية، كما كان حال أولاد دليم ومشظوف وأولاد الناصر وأولاد علوش، وبشكل أقلّ، القبائل التي كانت خارج ثنائية العرب والزوايا في شكلها التاريخي الجنيالوجي، كالركيبات مثلاً.

١ - أولاد دليم:

بدأ أولاد دليم في التدفق إلى الصحراء في وقت مبكر؛ إذ كانوا سابقين إلى قبيلة جدالة في القرن الخامس عشر في فترة أفولها، فاستضعفوها وألحقوها بهم.

وربما كانوا من أوائل القبائل العربية التي هبطت، أو توغّلت، في الصحراء جنبًا إلى جنب البرابيش وأولاد أوداي (الودايا) وأولاد رزك. غير أن الأمر لم يتم في شكل قوة منظمة واسعة الانتشار بقدر ما كان شأن مجموعات ضارية يمارس كثير من أفرادها قطع الطريق على القوافل. وفي بداية القرن السادس عشر وصف ليون الإفريقي مجموعة من أولاد دليم وصلت للمجال وكانت سبّاقة إلى التعايش مع الصنهاجيين، مشكّلة مجموعات تعتمد الغزوات الصغيرة: «يعيش أولاد دليم في الصحراء الليبية [الصحراء الغربية وموريتانيا] مع صنهاجة، الذين هم شعب إفريقي»^(١).

كان أولاد دليم الصحراء في هذه الفترة طليعةً بدويةً تحوم في شمال الصحراء، وربما أقصى جنوب وادي درعة؛ وكان تجارها يعتمدون على بيع القطعان في وادي درعة، فيما يبدو أن مجموعاتهما الغازية كانت تكرر على المجتمعات الصنهاجية من حين لآخر. ويبدو أن المجموعة التي عرفها ليون الإفريقي منهم كانت مشتتة، ولعلّها كانت خارج تنظيم قبلي مستقر؛ إذ لم يُعرف أو يسمع في هذه الفترة بأي انتظام سلطوي لها. ف «لم يمتلكوا مجالًا ولا مغارم وهو ما نتج عن وضعهم في حالة من الفقر المدقع، مما اضطرهم إلى أن يصبحوا لصوًّا. وهم يذهبون غالبًا إلى وادي درعة ليقايضوا قطعانهم بالتمر»^(٢).

وربما غاب عن نظر حسن الوزّان، وللسبب ذاته عن المصادر المعاصرة له، وجود تنظيمات منيعة للدليّمين، ولكنها تنظيمات ستغدو واضحة للأجيال بعده. وستتطوّر مصائر القبيلة وحظوظها إلى أن تصبح قوة منيعة وفاعلة خصوصًا في مجال الصحراء الغربية إلى جهة تيريس وإينشيري وأحيانًا منطقة الساحل الغربي، شمال الترارزة، بل وإلى شرق الصحراء وشمال مالي الحالية. وفي القرن السابع عشر ستنتج امتداداتهم الساحلية عن صراعات كبيرة مع أسياد المجال الجدد من المغافرة؛ إذ تصاعدت القيمة الاستراتيجية والتجارية للساحل من الساقية الحمراء إلى حوض آرغين، الذي قدمت إليه الشركات الأوروبية للتبادل التجاري وأسست

(1) Hodges, 268.

(٢) نفسه.

به ميناء هدي. وهو ما أدى إلى مواجهات دامية مع المغافرة في معركة شار. وحقّق أولاد دليم انتصارًا مدويًا في معركة أم عبانة في ١٦٩٥ التي أنهت نفوذ المغافرة في الساقية الحمراء. ولكن مجهوداتهم بانتزاع غرب الساحل وشمال الترابزة لم تنجح رغم أنهم استطاعوا قتل أمير أولاد أحمد بن دامن، اعمر أكجيل، في عام ١٧٠٢^(١).

على مدى القرون اللاحقة توزّع أولاد دليم في رئاسيات وبطون سياسية في مناطق شاسعة من الصحراء. ولكن نفوذهم لن يتوطّد بشكل قوي إلا في مع منتصف القرن الثامن عشر عندما أسّسوا رئاسية في أزواد البعيدة عرفت بأولاد المولاة، التي وقعت تحت قيادة أسرتي بوعادة وأحمدادو بن بلة. وبحكم مكان تواجدها، فإن هذه الرئاسية دخلت في صراعات دامية مع البرابيش، المعقلين الذين هبطوا إلى الصحراء من الخط الشرقي الممتد من الجزائر إلى مالي، الذين كانت لهم رئاسيات في المجال أيضًا. ويبدو أن رئيس أولاد المولاة، محمد العلوم بن امحمد الأقرع، قضى أهم محطات عمره في مواجهات مع البرابيش وهاجمهم مرتين، غير أنهم هزموه وتمكّنوا من قتله وإجلاء أولاد المولاة من أزواد في مطلع القرن التاسع عشر، فعادوا إلى أركشاش بتيريس التي تمكّن فيها الرقيبات من طردهم وتشيتتهم وهكذا سيصعدون إلى التايفيلات^(٢)، التي ستأوي عدة مجموعات منهزمة في الشمال الموريتاني في هذا القرن، كأولاد تيدرارين مثلاً.

ولكن أكبر رئاسيات أولاد دليم حظًا كانت رئاسة أولاد اللبّ في إنشيري التي وقعت في قيادة أسرة اللبّ بن الشويخ. ومع القرن الثامن عشر كانت هذه الرئاسة تصل في مجال إنشيري وتيريس، حيث شاهدناها تصبح خصمًا شرًا لإمارة آدرار، مُشكّلة مأوى للمطالبين بالإمارة الإدارية ومددًا لمحاربيها؛ وفي أحيان كثيرة تحالفت مع مجموعات واسعة من أولاد أكشار إلى الترابزة محاولة الإطاحة بالإمارة. كما لعبت دورًا سياسيًا مهمًا في سياسات آدرار في فترة تشرذمه في

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ١٠٠-١٠١.

الحرب الاهلية في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته عندما راهنت على الأميرين المُتغلبين، محمد وعثمان، ونجحت في وضع عثمان أميراً على آدرار قبل أن يقتاله الغيلانيون، الذين كانوا الخصم الأشرس والأعدى لأولاد دليم. وربما كان مجال تيريس الذي افتقر لحظوظ تجارية أو زراعية كبيرة، وإن كان معبراً مهماً للقوافل وثروة رعوية، مشجعاً على ازدهار الغزو كنمط إنتاج. وهو ما لاحظته عابر فرنسي في مجالهم في ١٨٦٠:

«إن أولاد دليم الذين هم تحت إمرته [يقصد اعلي ولد محمد ولد أحمد الملقب ارموكة، زعيم أولاد دليم] هم بيضان غاصبون بامتياز. ومن المستحيل أن تمر قافلة من مجالهم دون أن يفطنوا لها. ولهم إبلٌ سريعة وقوية بشكل غير معتاد وعندهم خيول صغيرة وفي غاية الجودة، وهم شرطة الصحراء الحقيقيون [...] ويلاحظ لديهم ذكاء متوقّد ونمط حياة أكثر تحرراً، ويتقلّد أطفالهم البنادق وهم في سنة الثانية عشرة»^(١).

وكان ارموكة هذا يقود أولاد دليم في حرب مستمرة، وخصوصاً مع آدرار، التي نعرف أنه احتفظ في الخمسينيات بابن أميرها ولد عيّدة، رهينة^(٢). إلا أنه لا يبدو آمناً برغم هذا السلام ذي الضمانات، فقد كان في غاية الحذر بحيث إنه كان يأمر بالارتحال وطيّ الأمتعة كل نصف ساعة. ولكن قوة قبيلته وصولتها جعلت المستكشف الفرنسي يقترح أن يقوم أولاد دليم بحماية موقع آرغين للتجارة، الذي قد أصبح في حينه موقعاً مهجوراً وبلا قيمة، غير أن الفرنسيين كانوا يفكّرون في إحيائه قبل أن تستيقظ عندهم مطامع السيطرة على عموم البلاد^(٣).

ولعل أشهر رئيس لأولاد اللبّ كان أيّدة، وهو أحمد بن محمد بن اللبّ بن الشويخ الذي حارب أمير آدرار ولد عيّدة في بداية القرن التاسع عشر، والذي كان

(1) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonnewes Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p.129.

(٢) بيبير بونت، إمارة آدرار، ص ١٢٩.

(3) J. Ancelle. Les explorations au Sénégal et dans les contrées voisines depuis l'antiquité Jusq'à nos jours. Paris.Maisonnewes Preres et Ch. Leclerc, Editeurs, 1886, p.129-120.

رئيسًا عامًا لأولاد دليم^(١). ولم تكن الحرب مع آدرار حكرًا على أولاد اللب الذين استقرّوا أساسًا في إنشيري وانقطعوا من تيريس الشمالية، فمن هناك تواصلت المناوشات مع آدرار من خلال رئاسة أولاد باعمر الذين لقي رئيسهم إبراهيم خليل بن اعثمان مصرعه في عام ١٨٧٧ في معركة آكوييت ضد آدرار^(٢). ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت القبيلة قد بدأت تبسط نفسها على الصحراء الغربية عندما بدأت في فرض ضريبة الحماية أو «الحرمة» على قبيلة أولاد تيدرارين ودخلت في حرب كبيرة ضدهم عندما حاولوا التملّص من هذه الضريبة. ونتيجة لهذا شهدت الصحراء الغربية صراعًا كبيرًا بين الركيبات، الذين تدخلوا لصالح أولاد تيدرارين، وبين أولاد دليم الذين استعانوا بتكنة. ورغم أن الركيبات برزوا كقوة ملحوظة، إلا أنهم لم يستطيعوا إنقاذ أولاد تيدرارين من «الحرمة»، وهو ما سبّب هجرة القبيلة إلى التافيلالت في أواخر القرن.

٢- أولاد الناصر:

حسب الفولكلور الذي أذاعه مؤلّف الرسالة الغلاوية، فقد كانت مجموعة أولاد الناصر من أوائل المجموعات الحسانية التي هبطت الصحراء. غير أن عوامل عدّة منعتها من التحول إلى إمارة واسعة النطاق كان من بينها استقرارها في منطقة متعدّدة الأقطاب، وهي الحوض واركيبية التي تزاومت فيها القوى الضاربة لأولاد بلّة وأولاد علّوش وأولاد داوود مع إيدوعيش وأولاد امبارك ولاحقًا مشظوف. أما السبب الثاني فكان الخلافات والتشعبات الأسرية داخل القبيلة. ولقد أدّى هذا الوضع السياسي في منطقة الحوض وتگانت والركيبة إلى تقوية التحالفات القبلية بدلًا من استفراء قبيلة واحدة. وهكذا وجد أولاد الناصر فرصة قوية في القوة الصاعدة في الحوض منذ القرن السابع عشر وهي أولاد امبارك فشاركوا معهم، إلى جانب قوة من السودان وإيدوعيش، في قلب الموازنة لصالح أولاد امبارك وإسقاط أولاد بوفايّد.

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٠١.

(٢) نفسه، ص ١٠٢.

انقسم أولاد الناصر في الحوض إلى مجموعات العناترة والعِيَّاسات، ولعلّ أهم رئاسة فيهم كانت رئاسة أهل اشبيش رغم أن وجود رئاسات في كل بطن جعل مسألة السيادة العامة صعبة؛ إذ كانت الخلافات الأسرية والنزاعات على زعامة القبيلة كثيفة، وكانت تنتهي دومًا نهايات دموية. وربما كان للشعري بن اشبيب وأولاده، اعلي ثم موسى ثم اعمر بن موسى، دورٌ في توطيد نفوذ أولاد الناصر في فترة التشكّل في الحوض. وقد حاربوا أولاد بلّة، السادة القدماء في جنوب تگانت وشمال الحوض^(١).

ويبدو أن أولاد الناصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانوا يحظون بمركز ثانٍ في التحالف شبه الفيدرالي مع أولاد امبارك؛ إذ كانت لهم أسبقية على إيدوعيش، الذراع القوية الأخرى في الإمارة، بل إن مخبرين فرنسيين أبلغوا أن الأخيرين كانوا يدفعون مغرمًا للأولين. إلّا أن استقلال إيدوعيش وتزايد نفوذ أولاد الناصر جعلهم في موقف يضطرون فيه لمحاربة إيدوعيش وأولاد امبارك معًا. ويبدو أن أحد زعمائهم، بكار بن اعمر بن موسى بن اعلي بن الشعري، حارب أولاد امبارك المتحالفين مع أولاد علّوش وهزمهم في معركة أرطان في عام ١٧٨٨، التي قُتل فيها زعماء مهمون منهم^(٢). ويبدو أن أولاد الناصر خاضوا هنا استراتيجية تشبه خطة شليفن، وهي ضرب القوة الأبرز والأقرب (أولاد امبارك) ثم التجهز للقوة الأبعد (إيدوعيش). وهكذا في السنوات القليلة القادمة في عهد رئاسيات أولاد بكار تواصلت الحرب ضد إيدوعيش.

ولكن إيدوعيش كانوا قوة عاتية في أواخر القرن الثامن عشر، وكانوا يشكّلون خيالة قوية بفعل سيطرتهم على الخيول الأصيلة التي استفادت من أجواء تگانت والركيبة لتحافظ على أصالتها وجودتها بعيدًا عن أمراض الخيول في منطقة الساحل. وقد تمكّنوا من إحقاق انتصارات مهمة على أولاد الناصر، حيث قتلت قوات محمد بن امحمد شين رئيسهم إبراهيم فال بن امحمد بن بكار في عام ١٧٩٩، وفي عام ١٨١٩ قتلوا أخاه الحبيب، وفي عام ١٨٣٤ قتلوا أيضًا رئيس

(١) نفسه، ص ١٦٢.

(٢) نفسه.

أولاد الناصر، بكار بن أحمد^(١). وهكذا أنهت ثلاثينيات القرن التاسع عشر رغبة أولاد الناصر في بسط النفوذ على تگانت وعلى الرکیبة.

ومن الطبيعي أن انكماش أولاد الناصر في منطقة نفوذ أولاد امبارك في عهد عثمان بن الحبيب أعادهم إلى الاحتكاكات مع الآخرين، حيث التقوا في معركة أجوير عام ١٨٣٧. وتواصلت الاحتكاكات بشكل متقطع تمكّن فيه أولاد امبارك من قتل زعيم رئيس أولاد اسعيد بن مسعود، وهو اممر لخروف، ثم قتل ابنه ووريثه، سيد أحمد^(٢). كما دخل أولاد الناصر صراعاً مع مشظوف الذين تحالفوا معهم أولاً ضد الأقال وضد الفوتانكة وحققوا معاً انتصارات مهمة خصوصاً في الهجمات على القوافل. غير أن الصراعات شبت بين الطرفين بعد سيطرة مشظوف على ولاتة. وهو الأمر الذي سيتطور إلى معارك في عهد رئيس أولاد الناصر، عثمان بن الحبيبي (ت ١٨٨٨) الذي هزم مشظوف في عام ١٨٨٣^(٣).

وبالنسبة إلى السياسة الداخلية، فإن الصراعات الداخلية على الرئاسة الكبرى بين أسرتي أهل بكار وأهل الحبيب عصفت بسلطان أولاد الناصر وأدخلتهم في صراع مرير على الرئاسة، راح ضحيته رئيسان على الأقل في الفترة (١٨٥٣-١٨٦٣)؛ إذ قتل أهل بكار اممر بن الحبيب في عام ١٨٥٣، وتمكّن أهل الحبيب من قتل اعلى بن موسى بن بكار في عام ١٨٥٤ لما آلت إليه الرئاسة. هذا قبل أن يشبّ خلاف لاحق على السلطة في أسرة أهل الحبيب في تسعينيات القرن التاسع عشر^(٤).

وفيما عدا هذا، فإن أولاد الناصر كانوا ينتظمون في رئاسيات صغيرة داخلية فرعية تقدّم ولاءها للرئاسة الكبرى. وكانت هذه الرئاسيات الصغرى بطوناً لها رؤساؤها الذين كانوا أحياناً أمراء حرب، كما كان الأمر في بطون أولاد إبراهيم وأولاد حرمة الله وأولاد سعيد وأفاشيل وأولاد عبد الكريم والخدائع^(٥).

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ١٦٢، ١٦٣-١٦٤.

(٣) نفسه، ص ١٦٣.

(٤) نفسه، ص ١٦٢-١٦٣.

(٥) نفسه، ص ١٦٣-١٦٥.

٣- إمارة مشظوف :

في القرن التاسع عشر سطع نفوذ مشظوف وتنامى بسرعة إلى أن أصبحوا إمارة قوية ومنتفذة. وكان من حسن حظهم، وهم المتواجدون غالباً في الركبية، أن تصادفت فترة صعودهم مع تراجع في الإماراتين القويتين في مجالهما، أولاد مبارك وإيدوعيش، وفي وقتٍ تحوّلت فيه جميع القوى في الشرق إلى رئاسيات متشرذمة ولا تخضع لنفوذ جامع. ولكن صعودهم لم يكن مجرد اتفاق وحسن حظ، فقد كانوا من أكثر المقاتلين بسالةً، واستطاعوا فرض قوتهم على الجميع.

كان مشظوف، مثلهم مثل إيدوعيش، يحتفظون بانتماء إلى الأرستقراطية الصنهاجية، حيث يعتقد أنهم ربما كانوا تحريفاً لمسوفة^(١). وقد نزحوا إلى تكانت حيث مكثوا لفترة في ظلّ إيدوعيش، دافعين المغارم لهم بل وربما كانت أطرافاً منهم ملحقة بهم منذ القرن السابع عشر، كما ذهب إلى ذلك الباحث تشارلز كليفلاند. ولكنهم كانوا يستفيدون من المسارح الواسعة، مما سمح لهم بتكوين قوة رعوية مقاتلة وسمح لهم بالاستفادة من التجارة^(٢).

ويبدو أنه في أواخر القرن الثامن عشر استطاع هؤلاء الاستفادة من تحالف مع الزعيم الروحي لأهل سيدي محمود واستفادوا من التجارة في باكل (بكل) مع المحطات الفرنسية، فبدأوا يظهرن كأرستقراطية تجارية صاعدة. وهو ما تجلّى في أسرة لمحييميد مع مطلع القرن التاسع عشر، التي قام زعيمها، لمحييميد ولد المختار، بقيادة صراع التحرّر ضد إيدوعيش قاد فيه أهل محم، الرافضين لدفع المغارم لإيدوعيش^(٣). وفي الفترة نفسها كان ثمة جناح أرستقراطي مشظوفي صاعد هو الحمونات، الذين ربما قادوا الصراع أيضاً^(٤). وعندما اندلع الصراع الأهلي في إيدوعيش بين أبكاك والشراتيت بقي مشظوف متحالفين مع الأخيرين محافظين على نفوذهم التجاري. ولكن خيارهم النهائي كان الاستقلال.

(١) الشيخ سيديا باب، ص ١١٨؛ المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ٢٠٠.

(2) Cleaveland, pp. 106.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص ١٣٥.

بعد وفاة لمحييميد خلفه ابنه المختار (ت ١٨٥٢)، ورغم أن مشظوف قد ظهروا في عهده قوة مستقلة إلا أن عملية التحرر النهائية ومشروع بناء الإمارة انتظرت حتى خليفة هذا، ابنه، أحمد محمود، الذي كان بمعنى ما الأب المؤسس للإمارة وصاحب القوة المشظوفية الأساسية. ويبدو أن زعيم إيدوعيش كان يستشرف أيام صغر أحمد محمود أن الاستقلال التام ومعاودة إيدوعيش ستتم في عهده، فكان يقول: «ما أكرهني بهذا الرأس الكبير»^(١). وبالفعل، فقد قاد هذا انتفاضة مشظوف في تكانت وقاد هجرة جزء كبير منهم إلى الحوض مؤسساً ما سيُعرف بـ «مشظوف الشرقي»، بينما هاجر بقية مشظوف، وهم أساساً الحمينات، إلى آدرار مكوّنين «مشظوف الساحلي».

كان الحوض يعاني من فراغ سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، فقد بدأ أولاد امبارك يضعفون شيئاً فشيئاً، وأصبحت قوتهم اسمية ورمزية، وهكذا هزمهم مشظوف في معركة أكوينيت في عام ١٨٥١، وبدأوا في فرض الجباية على القوافل التجارية وهو ما فتح المجال لحرب مع الفوتين، القوة الجديدة البارزة في المنطقة؛ ذلك أن سيطرة مشظوف على القوافل وفرضهم الحماية عليها وتغريمهم لسكان حوض النهر جعلتهم في خصام مع البولار. وقد استطاعت قوات أحمد محمود في عام ١٨٥٧ القيام بهجوم قوي على ميناء مَدِينَة Medina الذي أقامه الفرنسيون في عام ١٨٥٤، والذي كان يشكل خطراً تنافسياً على سيطرتهم على البقاع التجارية^(٢)، ثم هزموا جيشاً قوياً للحاج عمر الفتوتي^(٣). كانوا قوة جديدة ذات تقنيات وصبر في الحرب، فلم تستطع المجموعات التجارية والعسكرية دفعهم. وفي عام ١٨٦١ تحالف الأقال مع الفوتانكة (الفوتين) في تاقطاف، ولكن أحمد محمود انتصر عليهم عندما نجح في السيطرة على الموارد المائية وحرّمهم منها وقتل أميرهم، عبد السلام، في معركة دامية سقط فيها الكثيرون^(٤).

(١) الشيخ سيديا باب، ص ١٠٦.

(2) Cleaveland, p. 107.

(٣) الشيخ سيديا باب، ص ١٢٠.

(٤) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٢٠١؛ الشيخ سيديا باب، ص ١١٩-١٢٠.

Cleaveland, p. 107.

كانت المعركة مع الفوتانكة في جزءٍ منها معركة ضدّ الأقال، الخصم البيضاني في التجارة. ورغم أن الأقال قدموا من تقاليد لِكُصور المدنية غير الحربية، إلّا أن تدفّقهم التجاري اضطرّهم إلى حمل السلاح لحماية مكاسبهم. فنسجوا في الحوض والسودان علاقات تجارية مزدهرة مع شركائهم الفوتين؛ وكانوا قادرين بفعل عائداتهم وعلاقاتهم على جمع العدة والعتاد، وكونوا جيشًا قيل إنه وصل إلى ١٢٠٠٠ ضد مشظوف، الذين تحالفوا مع أولاد الناصر، وهاجموا الأقال في معركة انبز في تننبية ثم هاجموهم في تمبدر في عام ١٨٦١^(١). ويبدو أن الأمير المشظوفي قرّر بعد هذا متابعة الحرب، ونظّم هجمات على قوافل الأقال بالتنسيق مع أولاد الناصر كما حدث في أغسطس عام ١٨٦٢^(٢).

كانت معظم صراعات مشظوف في الحوض تدور حول السيطرة على ولاّتي التي مهّدوا لها الطريق بعد هزيمة أولاد امبارك في أفارة وأكوينيت الواقعة على بعد ٥٠٠ كيلومتر. ودخلوا بالفعل المدينة التجارية منتصرين في عام ١٨٦١^(٣). وربما أسّس الدخول لبداية لفكّ التحالف مع أولاد الناصر الذين كانت لهم مطامع في المدينة، وكانوا يبسطون نفوذهم عليها شيئًا ما فبدأ مشظوف هجومهم عليها في عام ١٨٦٩ وأبعدوهم عنها؛ وهو التخليص الذي جازاه سكان ولاّتي بتقديم الولاء للمحاميد في عام ١٨٧١، بانين لهم كَصبة (قصة) أو حصنًا عسكريًا. وهكذا تمّ إبعاد ما سوى مشظوف من المحاربين عن العاصمة التجارية بالجنوب، فأصبحوا يجنون المغارم ويوزعونها على القوى القبلية الولائية لأغراض سياسية^(٤). ولكن هذه الرّيعية سبّبت لاحقًا مواجهات بين الحلفاء ستتطوّر إلى معركة انتصر فيها أولاد الناصر في عام ١٨٨٣، ولكن أحمد محمود ردّ عليهم بغزوة انتقامية انتصر فيها^(٥).

(١) المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٢٠١.

(2) Cleaveland, p. 107.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

(٥) الشيخ سيديا باب، ص ١٢١.

وإذا كان مشظوف قد بدأوا نواة متاجرة مزدهرة في تكانت، فإن معيار قوتهم في الحوض لم يكن مجرد الانخراط في التجارة بل حمايتها وتغريمها. ومع ذلك، كانت قوتهم العسكرية مرتبطة بمصالحهم التجارية. وهكذا هاجمت قواتهم مواني مَدِينَة وماتام وباكل في الفترة (١٨٧٠-١٨٧٤)، وحاولوا فرض المغارم على الفرنسيين بإجبارهم على الأقال الإكراميات (ضريبة آمكُبلُ amkubel أو التعرفة الجمركية)، ما وضعهم في احتكاك قوي مع إيدوعيش الذي كانوا سادة المجال، وخصوصًا بگل. ويبدو أن الأخيرين ظلّوا مسيطرين حسب تقرير فرنسي في عام ١٨٧٥، وهو العام نفسه الذي فرضوا فيه سيادتهم على ميناء مَدِينَة، وفرضوا على الفرنسيين ضريبة ١٠٠٠ قطعة من القماش الغيني للعام^(١).

ولكن المعطيات تغيّرت بعد عام ١٨٧٥ عندما نجح مشظوف في هزيمة تحالف من إيدوعيش وأولاد الناصر وجناح منشق من مشظوف في معركة كَرَجوَكَة في عام ١٨٧٥، ثم في مدرّون في عام ١٨٨٠، ثم في أگْمون في عام ١٨٨١. وقد دارت كل هذه المعارك قرب المراكز التجارية في مدينة، في الوقت نفسه الذي استمرّت فيه الصراعات مع أولاد امبارك. ولعلّ أهم انتصار لمشظوف كان انتزاع الملحّقين بأولاد امبارك، كأولاد محمد وأهل الطالب مصطفى وأولاد مزوك وأولاد عبد الوهاب وأهل الرواسيل، وجعلهم مبايعين لمشظوف في إطار المكاتبَة والإلحاق^(٢).



كانت إمارة أحمد محمود عصرًا ملحميًا لمشظوف تمكّنوا فيه من هزيمة جميع القوى في الحوض، ولم يرحل الأمير القوى في عام ١٨٨٤ حتى كانت الإمارة الوليدة قد فرضت سلطتها ومغارمها على قطاعات واسعة من القبائل والكصور وأبعدت المجموعات المحاربة^(٣). ولكن هذه السلطة سرعان ما بدأت في

(1) Cleaveland, pp. 107-108.

(2) نفسه، ص ١٠٨.

(3) فمثلاً كان أولاد محمود يدفعون مغرمًا سنويًا لقاء الحماية، عرف بالحرمة يصل إلى ٤٠ بقرة و٢٢ حمارًا و١٢٠٠ من الشياه.

Cleaveland, p. 115.

التضعع بعد وفاته؛ إذ دخل خلفاؤه في حروب وراثة بين مختار الشيخ الذي تمتّع بدعم لمحاجيب، وبين فرع ولالة بقيادة الطالب محمد، وبين محمد محمود. كان هذا في جزءٍ منه صراعاً بين مشظوف الشرقي ومشظوف الساحلي على السلطة. وبطبيعة الحال، فقد كان في جزءٍ آخر منه صراعاً على حقوق التفرغ، ودارت أجزاء منه على انتزاع مدينة ولالة التي فرضت عليها قوات مختار الشيخ ضريبة العشرة في عام ١٨٨٦، بينما هاجمها أحمد بن محمد محمود ودمّرت قواته بعض أبنيتها وفرضت عليها إتاوة من القماش الغيني في عام ١٨٨٧، وهو ما تكرر أيضاً في العام الموالي^(١).



في التسعينيات تغيّر الجيل السياسي المتصارع على الإمارة، فقد تمكّن ابن محمد محمود من قتله وحدث انقلاب في خندق مختار الشيخ أتى بابن أخته، أحمد، الذي بدأ في منافسة أحمد ولد محمد محمود. ولكن أحمد كان صاحب الإمارة الفعلية؛ إذ سيطر على ولالة في عام ١٨٩٢ وبسط عليها نفوذه واستصدر منها ضرائبه. واضطرّ في سبيل ذلك إلى القدوم إلى المدينة في أبريل عام ١٨٩٤ ومحاربة أولاد علوش وإجبارهم على دفع الضرائب.

في أكتوبر عام ١٨٩٦ أدّت صراعات مشظوف الأهلية إلى مقتل أحمد ولد محمد محمود. وهكذا اندلعت صراعات مشظوف الساحلي ولحمينات، قتل فيها أحمد ولد على محمود في مارس عام ١٨٩٧ انتقاماً لمقتل منافسه الأمير القليل، أحمد. ودارت رحى هذه المعارك بين تمبدره والنعمة وفي تيجيت، على بعد ٣٠ كيلومتراً من تمبدره. وقد خسر لحمينات خسائر كبيرة في هذه الحروب، ولكن قيادتهم بقيت في أيدي محمد المختار ولد محمد محمود^(٢)، الذي وصفه الشيخ سيديا باب بأنه أقام العدل وأنشأ حالة من الاستقرار^(٣).

ضعفت الانقسامات من قابلية مشظوف للتمدد إلى إمارة واسعة، ولكنهم

(1) Cleaveland, p. 116.

(2) نفسه، ص ١٢٢.

(3) الشيخ سيديا باب، ص ١٢٢.

بقوا ذوي شوكة. ومع نهاية القرن التاسع عشر انكمش مجالهم قليلاً، ولكنهم بقوا معتمدين على المغارم على المدن وتحديداً ولاتة التي هاجموها في عام ١٩٠٠ وفرضوا عليها حصاراً مقابل ٤٠٠٠ قطعة من الذهب، وقاموا بإذلال زعيم لمحاجيب، الطالب محمد، الذي استجدى تدخل أولاد الناصر. ولا شك أن صراعاتهم المستديمة أورثتهم أعداء لا يُستهان بهم وخصوصاً في إطار احتراباتهم الداخلية. وقد لقي أميرهم، محمد المختار، مصرعه عندما قام مشظوف الساحلي بتنسيق هجومٍ سريعٍ قامت به عناصر قادمة من الشمال من أولاد غيلان والركييات الذين تمكّن رجل منهم، هو محمد سالم بن الخاطر، من اغتياله. وقد لقي الشيخ سيديا باب هذا القاتل في أثناء زيارته لآدرار بعد «فتح» الفرنسيين له في عام ١٩٠٩، وأُنبّه على قتله لقائد اعتبره عادلاً وضامن استقرار. وقد خلف هذا ابنه، اعلي محمود^(١).

٤- البرابيش:

تغلغل البرابيش حتى جنوب الصحراء في أزواد المالية، حيث أسسوا رئاسيات منذ القرن العاشر الهجري في أولاد سليمان وأولاد عبد الرحمن وأولاد عمران وأولاد يعيش. وقد ظلّوا يسيطرون على الطريق القوافلي ويصعدون أحياناً إلى الحوض حيث قاموا بإغارات على ولاتة.

٥- أولاد داوود بن امحمد^(٢):

هبط أولاد داوود وسط الصحراء وجنوبها في شكل تجمعات ورئاسيات عدة. وفي القرن السابع عشر نجدهم في تيشيت، (أولاد بوفاید، المهاجرين) وفي الحوض أيضاً نجد أولاد بوفاید (العرب)، وقد سيطروا في كلا المجالين. وفي الحوض دخلوا في صراعات مع الطوارق والبرابيش. ويبدو أن تصدرهم هذا جعلهم سادة القبائل العربية المقاتلة التي ظهرت بعدهم، وهو الأمر الذي سينتهي في معركة كسارى التي أنهت نفوذهم في الحوض، حيث سيظهرون لاحقاً حلفاء

(١) الشيخ سيدا باب، ص ١٢٢.

(٢) يتعيّن عمومًا التمييز بين أولاد داوود بن محمد وأولاد داوود بن عروك بن أودي.

لبقية أولاد داوود كأولاد بلّة وأولاد طلحة^(١). وكان أولاد طلحة هم رئاسية أولاد داوود التي بقيت محاربة في الحوض جنباً إلى جنب العناترة وأولاد سالم وأولاد بلّة^(٢). وقد دخلوا صراعات مع أولاد الناصر الذين قتلوا زعيمهم، إبراهيم لمخينز في عام ١٧٥٠^(٣).

أما في تيشيت فقد نجح فرعهم أولاد بوفائدة في عام ١٧٤١ وما بعدها في كسر أهل الحاج لحسن، وهو ما تبعته صراعات داخلية استطاع فيها أولاد بلّة طردهم إلى ولاتة، حيث ألقوا السلاح وعملوا كقبيلة زاوية سماها مؤرخ ولاتة بالمهاجرين، خرج منها علماء. بقي أولاد بلّة القوة الأساسية في تيشيت التي وصلوا إليها حوالي ١٧٨٩ وكسروا بها قوة أولاد بوفائدة وماسنة. ولكن حرباً أهلية اشتعلت بينهم في النصف الأخير من القرن الثامن عشر أدت إلى تحالف بين أماسنة وأهل اعمر بن اعبيد من أولاد بلّة، الذين استطاعوا الانتصار وطردهم الفرعين الآخرين، الدحاحنة والحجاج، الذين خرجوا وأسسوا قرية أغريحيث^(٤).

٦- أولاد عروك بن أودي:

وصل أولاد عروك بن أودي إلى الحوض وتفرّقوا فيه في شكل رئاسيات صغيرة ضاربة. وكان من سوء حظ رئاسة أولاد عكبة أن وقعت في مجال أولاد الغويزي من أولاد امبارك الذين سحقوهم في جنوب الحوض الغربي وأنهبهم^(٥). أما في الحوض الشرقي فستحافظ رئاسيات أولاد يونس وأولاد داوود على وحدتها ونفوذها. كان أولاد يونس مجموعة قوى مقاتلة منقسمة في ثلاث رئاسيات مستقلة: أولاد ازعيم، وأولاد رحمون وأولاد يعيش. وكان أولاد يونس من أوائل القوى المحاربة التي نزلت إلى ولاتة بعد تراجع النفوذ السوداني والمغربي، حيث خرّبوا قرية تازخت ودمّروا قوة العروسيين بقيادة شنان، في إطار

(١) المختار بن حامد، التاريخ السياسي، ص ١٤٢.

(٢) نفسه، ص ١٤٣-١٤٥.

(٣) نفسه، ص ١٤٣.

(٤) نفسه، ص ١٤٥.

(٥) المختار بن حامد، ص ١٦٦-١٦٧.

تحالف مع أهالي ولاتة في عام ١٦٣٠. وسرعان ما صاروا من أبرز قوى الحوض الشرقي عندما أزاحوا البرابيش.

كانت بقيّة المجموعات هي أولاد زيد وأولاد علوش وأولاد داوود وأولاد بواعلي. ورغم أنهم ذو أصل واحد، إلا أنهم غالبًا ما دخلوا في صراعات دامية، وخصوصًا بين أولاد علّوش وأولاد زيد الذين اشتبكوا في حرب مأساوية في معركة تكلط^(١)، وبين أولاد داوود وأولاد علوش.

(١) صالح بن عبد الوهاب، فتح الوهاب، ص ٤٤.